تفسير

مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتدقيق

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

المجلد العاشر

والكاظمين الغيظ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

تفسير
مقتنيات الدرر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير
مقتنيات الدرر

تأليف
السيد مير علي الحائري الطهراني

المجلد العاشر

تحقيق
السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتصحيح
محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

الحائري الطهراني، السيد ميرعلي (١٢٧٠ ـ ١٣٥٣ هـ)
تفسير مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر
العنوان والمؤلف: تفسير مقتنيات الدرر / تأليف السيد ميرعلي الحائري الطهراني.
تحقيق: محمدوحيد الطبسي الحائري / مراجعة وتدقيق: محمدتقي الهاشمي /
تصحيح: حسين طه نيا
الناشر: قم. دارالكتاب الإسلامي، ٢٠١٢م ـ ١٣٩١ هـ. ش
المجموعة: (١ ـ ١٢ مجلد) لغة الكتابة: اللغة العربية
الموضوع: تفاسير شيعية ـ القرن ١٤ هـ
تسلسل: ١٣٨٨ ٧م ٢٣ح ٩٨/ BP
تسلسل ديويي: ٢٩٧/١٧٩
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية: ١٨٢٧٥٨٦

با مشاركت و حمايت معاونت امور فرهنگى
وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى چاپ و منتشر گرديد

الكتاب .... تفسير مقتنيات الدرر (ج ١٠)
المؤلف........................ السيد مير علي الحائري الطهراني
الناشر........................ مؤسسة دارالكتاب الإسلامي
الطبعة........................ الأولى ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م
المطبعة........................ ستاره
عدد المطبوع........................ (٢٠٠٠) دوره
الترقيم الدولي للمجموعة .... ٩ ـ ٢٧٦ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
الترقيم الدولي (ج١٠) .... ٨ ـ ٢٨٦ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
السعر........................ ٩٠٠/٠٠٠ ريال

قم ـ ميدان المعلم ـ شارع سمية ـ رقم ٢٢ ـ رقم المبنى ٢٦
تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ ـ ٧٧٣٠٩٩٤ فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

سورة الشورى

تسمّى سورة «حمعسق» وهي مكيّة إلّا أربع آيات منها نزلن بالمدينة والأربع أولها: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا....﴾.

قال ابن عبّاس ولمّا نزلت هذه الآية قال رجل: ما أنزل اللّه هذه الآية فأنزل اللّه ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ثمّ إنّ الرجل تاب وندم فنزل ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

فضلها: عن أبيّ بن كعب عن النبيّﷺ: «**من قرأ سورة حمعسق كان ممّن يصلّي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون**»[1]. وروى سيف بن عميرة عن أبي عبد اللّهعليه السلام قال: «**من قرأ حم عسق بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر حتّى يقف بين يدي الله فيقول: عبدي أدمنت قراءة حمعسق ولم تدري ما ثوابها أما لو دريت ما هي وما ثوابها لما مللت من قراءتها ولكن سأجزيك جزاءك: أدخلوه الجنّة وله فيها قصر من ياقوتة حمراء أبوابها وشرفها ودرجها منها يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وله فيها حوراً من الحور العين وألف جارية وألف غلام من الولدان المخلّدين الّذين وصفهم الله**»[2].

التفسير: ختم اللّه سورة السجدة بذكر القرآن وافتتح هذه السورة بذكره أيضاً فقال:

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٣٥، ومستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٤٨.

٢ـ مجمع البيان، ج٩، ص ٣٥، و نور الثقلين، ج٤، ص٥٥٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ في «المعاني» عن الصادق عليه السلام: «معناه الحكيم المثيب العالم السميع القادر القوي»[١]. والقميّ عن الباقر عليه السلام: «هو حروف من اسم الله الأعظم المقطوع يؤلّفه الرسول أو الإمام بعلمه فيكون الاسم الأعظم الّذي إذا دعي الله به أجاب»[٢]. وعنه عليه السلام في عسق «عدد سني القائم عليه السلام، وقاف جبل يحيط بالدنيا من زمرّدة خضراء فخضر السماء من ذلك الجبل وعلم كلّ شيء في (عسق)»[٣].

نقل عن ابن عبّاس أنّه قال: لا نبيّ صاحب كتاب إلّا وقد أوحي إليه «حم عسق».

قيل: وإنّما فصّلت هذه السورة من الحواميم بعسق لأنّ جميعها استفتح بذكر الكتاب على التصريح إلّا هذه فذكر عسق ليكون دلالة على الكتاب تضمينا لا تصريحا لأنها اسم للسورة والسورة هي القرآن. وقال عطا: هي حروف مقطّعة من حوادث آتية فالحاء من حرب والميم من تحويل ملك والعين من عدوّ مقهور والسين من الاستئصال بسنين كسني يوسف والقاف من قدرة الله وأمثال هذه البيانات مرّت في سورة البقرة.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ الكاف معناه المثل وذا للإشارة إلى شيء سبق

١ـ معاني الاخبار، ص٢٢، و الصافي، ج٤، ص٣٦٦.

٢ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٦٧، و تفسير الصافي، ج٤، ص٣٦٦.

٣ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٦٨، و بحار الانوار، ج٥٢، ص٢٧٩.

ذكره فيكون المعنى في مثل هذه السورة المسمّاة حم عسق اوحي إليك في سائر السور وإلى من قبلك من الرسل في كتبهم على أنّ المناط في المماثلة ما يتبيّن فيها من الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى المعاد وما فيه صلاح الخلائق والعدل.

فحاصل المعنى أنّ مثل الكتاب والسورة المسمّاة حم عسق يوحي اللّه إليك وإلى كلّ من قبلك من الأنبياء. قال الزمخشريّ: أتى بلفظ المضارع ليدلّ على أنّ إيحاء مثله عادته[1].

وقرئ «يوحي» بفتح الحاء على ما لم يسمّ فاعله وقرئ بالنون على التكلّم والأكثر قرءوا بكسر الحاء فعلى القراءة الاولى الرافع لاسم اللّه ما دلّ عليه يوحي كأنّ قائلا قال: من الموحي؟ فقيل: اللّه فإن قيل: فما رافعه إذا كان بالنون؟ فحينئذ الرفع بالابتداء والعزيز وما بعده إخبار والعزيز الحكيم صفتان والخبر الجملة الظرفيّة، وعلى القراءة الكسر فالرفع على الفاعليّة.

وبالجملة كونه عزيزاً يدلّ على كونه قادراً على ما لا نهاية له وكونه حكيماً يدلّ على كونه عالماً بجميع المعلومات غنيّاً عن جميع الحاجات. نعم ما قيل:

الحمد للّه ذي الآلاء والنعم ... والفضل والجود والإحسان والكرم

منزّه الفعل عن عيب وعن عبث ... مقدّس الملك عن عزل وعن عدم

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ فهو سبحانه موصوف بقدرة نافذة في جميع أجزاء السماوات والأرض على عظمتها وسعتها بالإيجاد والإعدام والتكوين والإبطال ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ولا يجوز

١ـ الكشاف، ج٣، ص٤٥٩، و تفسير الرازي، ج٢٧، ص١٤٢.

أن يكون المراد علوّ المكان والجهة لمّا ثبتت الدلالة على فساده وكذلك لا يجوز أن يكون المراد من العظيم العظمة بالجثّة وكبر الجسم لأنّ ذلك يقتضي كونه مؤلّفا من الأجزاء والأبعاض وذلك ضدّ قول اللّه: «أَحَدٌ» فالمراد من العليّ المتعالي عن مشابهة الممكنات والمحدثات ومن العظيم العظمة بالقدرة والقهر بالاستعلاء والكمال.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ وقرئ بالياء في تكاد وبالتاء في ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي: قرب السماوات يتشقّقن من عظمة اللّه تعالى وقيل: من إدعاء الولد له كما في سورة مريم ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾[1] ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي: يبتدئ التفطّر من جهتهنّ الفوقانيّة فعلى كون الانشقاق من العظمة لما أنّ أعظم الآيات وأدلّها على العظمة والجلال من جهة الفوق والملأ الأعلى وعلى كون سبب التشقّق نسبة الولد للدلالة على التفطّر من تحتهنّ بالطريق الأولى لأنّ تلك كلمة الشنعاء الواقعة في الأرض حيث أثّرت في جهة الفوق فلأنّ تؤثّر في جهة التحت أولى. وقيل: الضمير في قوله: ﴿فَوْقِهِنَّ﴾ راجع إلى الأرضين أي من فوق الأرضين وهذا على طريق التمثيل والمعنى: لو كانت السماوات تتفطّر لشيء لانفطرت لهذه العظمة أو لهذا الكلام الفاسد.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ينزّهون اللّه عمّا لا يليق به ولا يجوز في صفاته وأفعاله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ من المؤمنين، «القمي» قال: للمؤمنين من الشيعة التوّابين خاصّة، ولفظ الآية لو كان عامّاً فالمعنى خاصّ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ثمّ قد ثبت بدليل منفصل أنّ الكفّار ليسوا قابلين للمغفرة وللشفاعة

١ـ سورة مريم: ٩١.

فاختصّ المعنى بالمؤمن لأنّه تعالى قال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾[1] فكيف يكونون لاعنين ومستغفرين لهم؟ ثمّ إنّ قوله تعالى: ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ لعلّه لا يفيد العموم لأنّه يصحّ أن يقال: أنّهم استغفروا لكلّ من في الأرض وأن يقال: إنّهم استغفروا لبعض من في الأرض دون البعض ولو كان قوله: ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ صريحا في العموم لما صحّ ذلك التقسيم.

وتأمّل أيّها المتأمّل في هذا الترتيب الشريف العالي في نظم القرآن فإنّ الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثّر لا يقبل الأثر وهو اللّه سبحانه وهو أشرف الأقسام ومتأثّر لا يؤثّر وهو القابل وهو الجسم وهو أخسّ الأقسام وموجود يقبل الأثر من القسم الأوّل ويؤثّر في القسم الثاني وهو الجواهر الروحانيّات المقدّسة وهو المرتبة المتوسّطة فهذه الجواهر الروحانيّة لها تعلّقان تعلّق بعالم الجلال والكبرياء وهو تعلّق القبول والاستفاضة لأنّ الأضواء الصمدانيّة إذا أشرقت على الجواهر الروحانيّة استضاءت جواهرها فلمّا استفادت تلك القوى الروحانيّة قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيّات فقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى الوجه الّذي يدل إلى عالم الكبرياء وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى الإفاضة وإيصال الخير إلى عالم الأجسام. فالجهة العلويّة اشتملت على أمرين: أحدهما: التسبيح والتنزيه وثانيهما: التحميد والتسبيح مقدّم على التحميد لأنّه جهة التخلية والتحلية مقدّمة على التجلية لأنّ كونه تعالى منزّهاً في ذاته عمّا لا ينبغي مقدّم في الرتبة على كونه فيّاضا للخيرات والسعادات لأنّ وجود الشيء مقدّم على إيجاد غيره وحصوله في نفسه مقدّم على تأثيره في حصول غيره فلهذا السبب كان التسبيح مقدّماً على التحميد.

١ـ سورة البقرة: ١٦١.

وأمّا الجهة الثانية فالإشارة إليها بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ والمراد إفاضتها وتأثيراتها الخيريّة في عالم الجسمانيّات من الفيّاض المطلق وذلك الفيض الّذي يصدر منهم أيضاً لشفقة اللّه على خلقه لأنّه سبحانه خلق الداعية في قلوبهم بطلب المغفرة للمؤمنين فكلّ الخير منسوب إليه تعالى شأنه ولو لا اللّه خلق تلك الداعية في قلوبهم لما أقدموا على الطلب فالغفور المطلق والرحيم المطلق هو اللّه كما شهد لنفسه بذلك بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ والمعنى ظاهر.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ
﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ
يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن
وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ
ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى
ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن إمهاله الكفّار بعد تقديم الإنذار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: آلهة عبدوها من كفّار مكّة وغيرهم أي إنّ الّذين آمنوا باللّه يستغفرون لهم الملائكة وإنّه تعالى يعطي المغفرة الّتي طلبوها لهم ويضمّ إليها الرحمة التامّة وأمّا الّذين جعلوا له شريكا وأنداداً ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ ورقيب على أحوالهم لا يفوته منها شيء ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمّد بمفوّض إليك أمرهم ولا مقتسرهم على الإيمان إنّما أنت منذر فحسب. قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ﴾ أي: مثل ما أوحينا إلى من تقدّمك من الأنبياء

بالكتب الّتي أنزلناها عليهم بلغة قومهم وبلسانهم أوحينا إليك قرآناً بلغتهم لتنذر أهل مكّة ومن حولها من الخلق. وقرئ الأرض، وسمّيت مكّة أمّ القرى وكنّيت بهذه الكنية إجلالاً لها لأنّ فيها البيت و أمّ الأرض لأنّها دحيت من تحت موضعها والعرب تسمّي أصل كلّ شيء امّه مثل أن يقال: هذه القصيدة من امّهات القصائد.

فإن قيل: إنّ ظاهر الآية يقتضي أنّ الله إنّما أوحى إليه لينذر أهل مكّة وأهل القرى المحيطة بمكّة وهذا يقتضي أن يكونﷺ رسولا إليهم فقط وأن لا يكون رسولا إلى كلّ العالمين.

فالجواب أنّ التخصيص بالذكر لا يدلّ على نفي الحكم عمّا سواه نعم سلّمنا أنّ هذه الآية تدلّ على كونه رسولا إلى هؤلاء خاصّة فقوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ يدلّ صريحاً على كونه رسولا إلى كلّ العالمين.

وأيضا دليل آخر وهو أنّه لمّا ثبت كونه رسولا إلى أهل مكّة وجب كونه صادقا فلمّا ثبت بالتواتر أنّه كان يدّعي الرسالة إلى العالمين وجب تصديقه لأنّ الرسول صادق فيما أخبر به وإلّا لم يكن رسولا ووجب تصديقه فثبت أنّه رسول إلى كلّ العالمين. ثمّ قال سبحانه: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ أي: تنذرهم بيوم القيامة فيجمع الله فيه الأوّلين والآخرين وأهل السماوات والأرضين، ويوم الجمع مفعول ثان لتنذر ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ ولا شكّ في كونه وحصوله.

ثمّ قسّم سبحانه أهل الجمع فقال: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ بطاعتهم وقبولهم الأوامر ﴿وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ بمعصيتهم ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: ولو شاء الله لحملهم على دين واحد وهو الإسلام بأن يضطرّهم ويلجئهم إليه لفعله ولكنّه لم يفعل لأنّه يؤدّي إلى إبطال التكليف والتكليف إنّما يتحقّق مع الاختيار. وقيل: معناه ولو شاء الله لسوّى بين الناس في المنزلة بأن يخلقهم في

الجنّة ولكنّه اختار لهم أعلى الدرجتين وهو استحقاق الثواب والجنّة.

﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ بسبب قبولهم الإيمان والطاعة ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ بسبب ظلمهم وكفرهم وليسوا قابلين لنصرة الله وولايته وما أدخلهم في رحمته.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ استفهام إنكاريّ وجملة مفسّرة من أن يكون للظالمين وليّ أو نصير والمراد نفي الولاية للّذين اتّخذوهم لهم أولياء ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ جواب شرط مقدّر محذوف كأنّه قيل بعد إبطال ولاية ما اتّخذوه أولياء: إن أرادوا وليّا في الحقيقة فالله هو الوليّ لا وليّ سواه لأنّه المالك للنفع والضرّ ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنّه يحيي الموتى فهو الحقيق بأن يتّخذ وليّا دون من لا يقدر على شيء، ثمّ قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي وما اختلفتم فيه شيء في أموركم وتنازعتم فتحاكموا فيه إلى رسول الله ولا تؤثروا حكومة غيره على حكومته وقيل: المعنى: وما وقع بينكم فيه خلاف من الأمور الّتي لا مدخليّة لها بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه كحقيقة الروح فقولوا: الله أعلم. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم العظيم الشأن ﴿ٱللَّهُ رَبِّي﴾ ومالكي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجامع أموري خاصّة دون غيره ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في مهمّات اموري وحيث كان التوكّل أمرا واحدا مستمرّا والإنابة متعدّدة متجدّدة حسب تجدّد موادّها عبّر في الأوّل بصيغة الماضي وفي الثاني بصيغة المستقبل.

واحتجّ نفاة القياس بهذه الآية. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ معترضة بين الصفة والموصوف. ثمّ وصف سبحانه نفسه بقوله:

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ

مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ
وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ
عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ
مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ
وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن
كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قرئ بالرفع على أنه خبر ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أو خبر مبتدء محذوف وبالجرّ على أنه بدل من قوله: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: الله خالق السماوات والأرض ومبتدعها.

و﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم من الناس ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: ذكوراً وإناثاً وأشكالاً يأنس بعضهم ببعض ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ ذكورا وإناثا لتكمل منافعكم بها أي وخلق أيضاً للأنعام من أنفسها أزواجاً. ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ أي: يكثركم يقال: ذرأ الله الخلق أي كثّرهم. وقوله: ﴿فِيهِ﴾ أي في هذا التدبير في الخلقة من الزوجيّة توجب التكاثر والتناسل والضمير في ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يرجع إلى المخاطبين غلب جانب العقلاء على غيرهم ولم يقل: يذرؤكم به، وقال: فيه، كأنّه جعل هذا التدبير كالمعدن لهذا التكثير كما قال:

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[1]. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

أي: مثله شيء والكاف زائدة مؤكّدة لمعنى النفي. قال أوس بن حجر:

وقتلى كمثل جذوع النخيـ ـل يغشاهم سبل منهمر

وقيل: الكاف ليست بزائدة فالمعنى حينئذ أنّه لو قدّر للّه تعالى مثل لم يكن لذلك المثل مثل والصحيح هو الأوّل.

واحتجّ علماء التوحيد قديماً وحديثاً بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسماً مركّباً من الأعضاء والجوارح والأجزاء وحاصلاً في المكان والجهة فضلاً عن البراهين القاطعة عن نفي جسميّته وتحيّزه قالوا: لو كان تعالى جسماً لكان مثلا لسائر الأجسام فيلزم حصول الأمثال والأشباه له وذلكِ باطل بصريح قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ والمراد بالمماثلة المساواة في حقيقة الذات والمعنى أنّ شيئا من الذوات لا يساوي اللّه في الذاتيّة ولا يماثله فلو كان اللّه جسماً لكان كونه جسماً ذاتا لا صفة والأجسام متماثلة في كونها متحيّزة مثلا أو طويلة أو عريضة وعميقة فحينئذ تكون سائر الأجسام مماثلة لذات اللّه في كونه ذاتاً والنصّ ينفي ذلك فوجب بالنصّ أن لا يكون جسماً.

هذا تمام الكلام في نفي الجسميّة عنه سمعا ولو أنّ في صفاته أيضاً لا يماثله ولا يساويه شيء قطعا لكن لعلّ بعض الجهلة يناقشون في بعض الصفات بأن يقولوا: إنّ العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما أنّ اللّه يوصف بذلك مثل أنّه تعالى قال في هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وقال في حقّ الإنسان: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ وأمثال ذلك لكن هذا قياس مع الفارق فالمثليّة في الذات غير منقول وغير معقول بالكلّيّة لأنّ المثلين هما اللّذان يقوم كلّ واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيّته.

١ـ البقرة: ١٧٩.

والفرق بين المثل والمثل أنّ المثل هو الّذي يكون مساوياً للشيء في تمام الماهيّة والمثل هو الّذي يكون مساوياً له في بعض الصفات الخارجة عن الذات والماهيّة وإن كان مخالفاً في تمام الماهيّة واختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات البتّة لأنّا نرى الجسم الواحد كان ساكنا ثمّ يصير متحرّكا ثمّ يسكن بعد ذلك فالذوات باقية في الأحوال كلّها على نهج واحد ونسق واحد والصفات متعاقبة متزايلة فاختلاف الصفات والأعراض لا يوجب اختلاف الذوات وأنّ علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام في الذوات والحقيقة وعلى هذا ظهر أنّه لو كان إله العالم جسماً لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام إلّا أنّ هذا باطل بالعقل والنقل أمّا العقل فلأنّ ذاته إذا كانت مساوية لذوات الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصحّ على سائر الأجسام من القبول للتفرّق والتمزّق والفناء والعدم ويلزم كونه محدثا وأمّا النقل فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾

ولمّا ثبت أنّ الأجسام متماثلة في تمام الماهيّة فلو كانت ذاته جسماً لكان ذلك الجسم متماثلاً ومساويا لسائر الأجسام ويلزم أن يكون كلّ جسم مثلا له لما بيّنّا أنّ المعتبر في حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هي هي لا اختلاف الصفات القائمة بها.

ثمّ هاهنا بحث وهو أنّ ظاهر قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ يقتضي إثبات المثل ويقتضي نفي المثل عن مثله لا عنه وذلك يوجب إثبات المثل له تعالى.

والجواب أنّ العرب تقول: مثلك لا يبخل أي أنت لا تبخل، فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عنه ويقال: لا يقال لمثلي هكذا أي لا يقال لي هكذا، أو المراد بهذه العبارة المبالغة لأنّه إذا كان ذلك الحكم منتفيا عن من كان مشابهاً بسبب كونه مشابهاً له فلان يكون منتفيا عنه كان ذلك أولى

فحينئذ فالمعنى ليس كهو شيء على سبيل المبالغة بطريق الوجه المذكور ولم يكن هذا اللفظ ساقطا عديم الأثر بل أبلغ.

وفي الآية بيان آخر وهو أن يقال: إنّ المراد من الجمع بين حرفي التشبيه الدلالة على كونه منزّها عن المثل لأنّه لو كان له مثل مثل نفسه لكان مساوياً لمثله في تلك الماهيّة ومبايناً له في نفسه وما به المشاركة غير ما به المباينة فيكون ذات كلّ واحد منهما مركّباً فلمّا حصل لواجب الوجود مثل حصل التركيب وانتفى الواجبيّة.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ سامعاً للمسموعات مبصراً للمرئيّات ولكن رؤيته تعالى وسماعه لا يحصل بالقرع في الصماخ والتموّج في الهواء وتأثّر الحدقة بصورة المرئيّ لأنّ ذلك على الله محال.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيح أرزاق السماوات والأرض وأسبابها وموجباتها فتمطر السماء بأمره وتنبت الأرض بإذنه. وقيل: المعنى: له خزائن السماوات والأرض والمراد أنّ الأصنام الّتي تعبدونها ليست موصوفة بهذه الصفات ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسّع ويقتر لمن يشاء على ما يعلمه من المصالح للعباد ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيفعل ذلك على وجه الحكمة.

ثمّ خاطب سبحانه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ أي: بيّن لكم ونهج وأوضح من التوحيد والدين والبراءة من الشرك ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ والخطاب إلى أمّة محمّدﷺ أي شرع الله لكم يا أصحاب محمّد من الدّين ما وصىّ به نوحا ومحمّدا وإبراهيم وموسى وعيسى.

وإنّما خص هؤلاء الخمسة بالذكر لأنّهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة. والمراد من الدين الأخذ بالشريعة المتّفق عليها بين

الكلّ من التوحيد والمعاد والإلهيّات غير التكاليف والأحكام المتعلّقة بالأنبياء لأنّها مختلفة متفاوتة كما قال سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1] فيجب أن يكون المراد منه الأمور الّتي لا يختلف باختلاف الشرائع ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمّد [وَ] هو ﴿مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾.

ثمّ شرح ذلك بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ والمراد من إقامة الدين التمسّك به والعمل بموجبه والدوام عليه والدعوة به للخلق ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ أي: ائتلفوا فيه ولا تختلفوا وكونوا عباد الله إخواناً متّفقين في الدّين كما قال [على لسان] يوسف عليه السلام: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[3].

واحتجّ بعضهم بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله في أوّل الأمر كان مبعوثاً بشريعة نوح والجواب ما بيّنّاه. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من توحيد الله والإخلاص له خاصّة ورفض الأوثان لأنّهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ فثقل هذا الأمر عليهم ولذلك عظم اختيارنا لك في النبوّة وتخصيصك بالوحي من دونهم. فبيّن سبحانه أنّه ليس لهم الاختيار ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ لرسالته على حسب ما يعلم من قيامه بأعباء الرسالة، واشتقاق لفظ الاجتباء يدلّ على الضمّ والجمع ومنه جبى الخراج وجبى الماء في الحوض فقوله: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ أي: يضمّه إليه ويقرّ به منه تقريب الشرف والرحمة وهو كما روي في الخبر: من تقرّب منّي شبراً

١ـ سورة المائدة: ٤٨.

٢ـ سورة يوسف: ٣٩.

٣ـ سورة يوسف: ١٠٩، سورة الأنبياء: ٢٥، سورة الحج: ٥٢.

تقرّبت منه ذراعا ومن أتاني بمشي أتيته هرولة ﴿وَيَهْدِيَ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: من أقبل إليّ بطاعته أقبلت إليه بهدايتي بأن أشرح له صدره ولمّا بيّن أنّه سبحانه أمّ كلّ الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين كان لقائل أن يقول: فما السبب أن نجد الأمم متفرّقين؟

فأجاب الله عنهم بقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ لأنّهم فعلوا ذلك التفرّق للبغي وطلب الرياسة فحملتهم الحميّة النفسانيّة على أن ذهب كلّ طائفة إلى مذهب ودعا الناس إليه فصار ذلك سببا لوقوع الاختلاف.

ثمّ أخبر سبحانه أنّهم استحقّوا العذاب بسبب هذا الفعل إلّا أنّه أخّر عذابهم لأنّ لكلّ عذاب عنده أجل مسمّى ووقتاً معلوماً فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ والأجل المسمّى قد يكون في الدنيا وقد يكون في القيامة. واختلفوا في الّذين اريدوا بهذه الصفة من هم؟

فقال الأكثرون: هم اليهود والنصارى والدليل عليه قوله في آل عمران: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ وقال سبحانه أيضاً في سورة لم يكن: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ وهو لائق بأهل الكتاب.

وقال آخرون: إنّهم هم العرب وهذا القول باطل لأنّه سبحانه بعده قال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ فهم أهل الكتاب الّذين كانوا في عهد رسول اللهﷺ ففي شكّ من كتابك وكتابهم لا يؤمنون به حقّ الإيمان لأنّ كتابهم أنت منعوت فيه.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: فلأجل ذلك التفرّق ولأجل ما حدث من الاختلاف الكثيرة فادع إلى الاتّفاق على الملّة الحنيفة

واستقم عليها كما أمرك الله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة المختلفة. ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي: بأيّ كتاب صحّ أنّه منزّل من عنده لأنّ كلّها يدلّ على وجوب الإيمان بالله ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحكم إذا تخاصمتم قال القفّال المروزيّ: معناه إنّ ربّي أمرني أن لا افرّق بين نفسي وأنفسكم بأن آمركم بما لا أعمله أو أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه واسويّ بينكم من الأكابر والأصاغر فيما يتعلّق بحكم الله. ثمّ قال: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إنّ إله الكلّ واحد وكلّ واحد مرهون بعمل نفسه فإنّ الله يجمع الكلّ في يوم القيامة ولا جدال ولا خصومة بيننا فقد ظهر الحقّ والباطل لأنّ أمركم قد ظهر فيه البغي والعداوة علينا ولستم تطلبون المعرفة بالدليل حتّى يظهر المحقّ من المبطل فإذا عاند الإنسان في البغي والعداوة سقط الحجاج بينه وبين أهل الحقّ.

واعلم أنّ هذه الآية قبل أن يؤمر ﷺ بقتالهم وكانت المتاركة محدودة إلى أن نزلت آية السيف. وقيل: هذا البيان محاجرة في مواقف المجاوبة لا متاركة في مواطن المحاربة حتّى يصار إلى النسخ بآية القتال وليس المراد تحريم المحاجّة بل المراد أنّ المحاجّة وإتيان الدليل ليس بنافع لكم لأنّ قوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ وقوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1] وأمثال تلك الآيات دالّة على وجود إقامة الدليل في الحقّ بل الغرض من قوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أنّكم عرفتم بالحجّة صدق قولي ولكنّكم تركتم التصديق بغياً وعناداً.

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ

١ـ سورة النحل: ١٢٥.

وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ
وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ
وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن
كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

لمّا تقدّم ظهور الحجّة وانقطاع المحاجّة لأنّها من غير فائدة ذكر حال من يحاجّ بالباطل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الآية أي: الّذين يخاصمون رسول الله في إثبات دينه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا﴾ دخل الناس في الإسلام وأجابوه ﷺ إلى ما دعاهم إليه ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ وباطلة حيث زعموا أنّ دينهم أفضل من الإسلام وذلك أنّ اليهود قالوا: ألستم تقولون أنّ الأخذ بالمتّفق أولى من الأخذ بالمختلف؟ فنبوّة موسى عليه السلام وحقيّة التوراة معلومة بالاتّفاق ونبوّة محمّد ﷺ ليست متّفقة عليها فإذا كان الأخذ بالمتّفق أولى فوجب أن يكون الأخذ باليهوديّة أولى فبيّن سبحانه أنّ هذه الحجّة فاسدة وذلك أنّ اليهود أطبقوا على أنّه إنّما وجب الإيمان بموسى لأجل ظهور المعجزات على وفق قوله وهاهنا أيضاً ظهرت المعجزات على وفق قول محمّد ﷺ واليهود شاهدوا تلك المعجزات فإن كان المناط ظهور المعجزة ويدلّ على الصدق فههنا أيضاً يجب الاعتراف بنبوّة محمّد وإن كان لا يدلّ على الصدق وجب في حقّ موسى أن لا يقرّوا بنبوّته وأمّا الإقرار بنبوّة موسى والإصرار على إنكار نبوّة محمّد مع استوائهما في ظهور المعجزة يكون متناقضا.

وقيل: معنى الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ بنصرة مذهبهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ﴾ للنبيّ ﷺ دعاؤه في كفّار بدر حتّى قتلهم الله بأيدي المؤمنين

واستجيب أيضاً دعاؤه على أهل مكّة حتّى قحطوا، ودعاؤه للمستضعفين حتّى خلصهم اللّه من أيدي قريش وغير ذلك ممّا يطول شرحه وتعداده ومن بعد ما استجيب لمحمّدﷺ دعاؤه في إظهار المعجزات وإقامتها. ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ أي: غضب اللّه عليهم لأجل كفرهم ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ دائم يوم القيامة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ أي: أنزل القرآن بالحقّ والصدق فيما أخبر به من ماض ومستقبل وأمر ونهي وفرائض وأحكام كلّه حقّ من اللّه. والميزان عبارة عن العدل كنّي به عن العدل لأنّ الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الحقّ. وقيل: أراد به الميزان المعروف وأنزله اللّه من السماء وعرّفهم كيف يعملون به بالحقّ وكيف يزنون به وقيل: الميزان محمّد يقتضي بينهم بالقرآن ويكون المعنى على التوسّع والتشبيه. ثمّ خوّفهم بعذاب القيامة فقال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ أي: متى تفاجئهم؟ وإنّهم لا يعلمون وقتها، ومتى كان الأمر كذلك وجب على العاقل أن يتحرّز ضرر المظنون فضلاً عن المقطوع وما يعلّمك يا محمّد ولا غيرك لعلّ مجيء الساعة قريب، وخفي وقت مجيئها على العباد ليكونوا على خوف وليبادروا على التوبة ولو عرفهم مجيئها لكانوا مغرين بالقبائح قبل ذلك تعويلاً على التلافي بالتوبة.

ولمّا كان الرسولﷺ يهدّدهم بمجيء القيامة وأكثر القول في ذلك وأنّهم ما رأوا منه أثراً قالوا على سبيل السخريّة: فمتى يقوم القيامة وليتها قامت حتّى يظهر لنا أنّ الحقّ ما نحن عليه أو الّذي عليه محمّد وأصحابه فقال سبحانه: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ وإنّما يشفقون ويخافون لعلمهم أنّ عندها تمتنع التوبة وأمّا منكروا البعث فلأنّه لا يحصل لهم هذا الخوف. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ فنبّه سبحانه الّذين يدخلهم المرية والشكّ في وقوع الساعة

ويمارون فيها ويجحدون في نهاية من الضلالة لأنّ استيفاء حقّ المظلوم من الظالم أمر واجب في العدل فلو لم يحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله وهذا من المحالات فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالاً بعيداً. ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: كثير الإحسان بهم لأنّه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على ما ينفعهم وما يضرّهم فكان ذلك لطفا لهم. وقيل: المراد من اللطيف العالم بخفيّات الأمور. والمراد هاهنا الموصل إلى العباد المنافع على وجه يدقّ إدراكه وذلك في الأرزاق الّتي قسّمها لعباده وصرف الآفات عنهم وإيصال الملاذّ إليهم. ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يوسّع الرزق على من يشاء ويجعله في خفض ودعة ومن يشاء في كدّ ومشقّة وكلّ من رزقه الله من ذي روح فهو ممّن شاء الله أن يرزقه ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ أي القادر الّذي لا يعجز ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الّذي لا يغالب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ ولمّا بيّن أنّه تعالى كثير الإحسان بعباده أمرهم بالكسب والسعي في طلب الخيرات وفي الاحتراز عن القبائح فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ كسب الآخرة نضاعف له ثواب عمله ونعطيه على الواحد عشرة ونزيد على ذلك ما نشاء ويسمّى الكسب وما يعمله العامل من امور يطلب بها الفائدة حرثاً على سبيل المجاز. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي: ومن كان يعمل عملاً يكون قصده فائدة في الدنيا ونفع منها نعطه نصيباً من الدنيا لا جميع ما يريده بل على حسب ما تقتضيه الحكمة وليس له في الآخرة نصيب وحظّ. وقيل: معناه من قصد بالجهاد وجه الله فله سهم الغانمين والثواب في الآخرة ومن قصد به الغنيمة لم يحرم ذلك وحصل له سهم الغنيمة ولكن ليس له نصيب من الثواب في الآخرة.

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام في معنى قوله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ قال: «ولاية أمير المؤمنين» وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ قال: معرفة أمير المؤمنين والأئمة و﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي: نزيده منها ونستوفي نصيبه من دولتهم ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ قال عليه السلام: «ليس له في دولة الحقّ مع الإمام نصيب وله النار»[1].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من كانت نيّته الدنيا فرّق الله عليه أمره وجعل الفقر بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلّا ما كتب له ومن كانت نيّته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»[2] وقيل: من كان يعمل للآخرة نال الدنيا والآخرة ومن عمل للدنيا فلا حظّ له من ثواب الآخرة لأنّ الأعلى لا يجعل تبعا للأدون.

وكلمة ﴿مِنْ﴾ في الآية للتبعيض تدلّ على أنّ من طلب كسب الدنيا لا يعطى إلّا الشيء القليل، وكذلك الآية مشعرة بأنّ منافع الآخرة والدنيا ليست حاضرة بل لا بدّ في البابين من الحرث والحرث لا يتأتى إلّا بتحمّل المشاقّ في البذر ثمّ التسقية وإصلاح الأرض والتنمية ثمّ الحصد ثمّ التنقية فلمّا سمّى الله كلا القسمين حرثاً علمنا أنّ كلّ واحد منهما لا يحصل إلّا بتحمّل المتاعب والمشاقّ.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ

١ـ الكافي، ج ١، ص٤٣٦، و بحار الانوار، ج٢٤، ص٣٤٩، و تفسير الصافي، ج ٤، ص ٣٧١.
٢ـ بحار الانوار، ج٦٧، ص٢٢٥، و مجمع البيان، ج٩، ص٢٧، و تفسير الصافي، ج ٤، ص ٣٧١.

عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾

ولمّا بيّن سبحانه القانون الأعظم والقسطاس الأقوم في أعمال الآخرة والدنيا أردفه في هذه الآية على ما هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ الاستفهام للتقريع أي بل لهم شركاء من الشياطين شرعوا لهم بالتسويل من الدين ما لم يأذن به الله كالشرك وإنكار البعث وشركاؤهم شياطينهم الّذين زيّنوا لهم الشرك والعمل للدنيا، وقيل: الشركاء أوثانهم وإنّما أضيفت إليهم لأنّهم هم الّذين اتّخذوها شركاء لله ولمّا كانت سببا لضلالتهم جعلت شارعة لدين الضلالة كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] والمراد من قوله: ﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يعني: أنّ تلك الشرائع بأسرها على ضدّ دين الله. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: القضاء السابق بتأخير الجزاء، أو ولولا الوعد بأنّ الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين في الدنيا وحاصل المعنى أنّه لولا حكم الله بتأخير العذاب لهذه الامّة إلى الآخرة لعذّبهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الّذين يكذّبونك في الدنيا ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١ـ سورة ابراهيم: ٣٦.

ثمّ ذكر سبحانه أحوال أهل العقاب وأهل الثواب أمّا الأول فهو قوله: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ من المعاصي وهو العقاب الواقع بهم لا محالة ولا ينفعهم خوفهم والإشفاق الخوف من جهة الرقّة على المخوف عليه من وقوع الأمر يريد سبحانه أنّ وباله واقع بهم سواء أشفقوا أو لم يشفقوا وأمّا الجزء الثاني فهو أحوال أهل الثواب.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ لأنّ روضات الجنّة أطيب بقعة فيها، قال الرازيّ في «المفاتيح» في الآية تنبيه على أنّ الفسّاق من أهل الصلاة كلّهم في الجنّة إلّا أنّه خصّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات في البقاع الشريفة من الجنّة فالأمكنة الّتي دون الروضات لا بدّ وأن تكون مخصوصة بمن كان دون أولئك الّذين آمنوا وعملوا الصالحات[1].

ثمّ قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ وهذا يدلّ على أنّ كلّ الأشياء حاضرة مهيّاة لهم ثمّ عظّم هذه الدرجة وقال ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ والأشاعرة استدلّوا بهذه الآية على أنّ الثواب غير واجب على الله وإنّما يحصل بطريق الفضل من الله قالوا: وهذا تصريح بأنّ الجزاء المرتّب على العمل إنّما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق. ثمّ أعاد البشارة[2] فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ أي: ذلك الثواب والفضل الكبير الّذي يبشّر

١ـ تفسير الرازي، ج٢٧، ص١٦٣.

٢ـ بل البشارة أنما هي باعتبار ما بعدها من أجر الرسالة ولذلك قال في أول السورة من الآية وما بعدها إلى أربع آيات نزلت بالمدينة فالبشارة للمؤمنين المصاحبين لأجل انه لم يسأل على أداء رسالته أجراً بل ألزمهم المودة في القربى فقط وهي عبادة وحسنة وأما ما قيل من أن المراد من القربى قرابته من قريش فهذا غلط فان المخاطبين بذلك القول المسلمون وهم يحبونه صلّى الله عليه لمقام الرسالة والهداية لا لقرابة النسب، والنسب في جنب الرسالة والهداية شيء لا يعبأ به مع أن محبة المسلمين له ﷺ أمر ثابت لا يحتاج إلى أي تشويق.

اللّه به عباده المؤمنين العاملين بالأعمال الصالحة ليستعجلوا بذلك السرور في الدنيا وكيف لا يكون ذلك الثواب فضلاً كبيراً إذ نالوا نعيما لا ينقطع بعمل قليل منقطع؟

قوله تعالى: يا محمّد ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ روي أنّه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض: أترون أنّ محمّدا يسأل على ما يتعاطاه أجراً فنزلت الآية أي لا أطلب منكم على ما أنا عليه من التبليغ نفعا وأجرا إلّا المودّة في القربى. وقيل: الاستثناء منقطع أي لا أطلب الأجر لكن أسألكم المودّة. واختلف في معناه على أقوال:

أحدها: لا أسألكم على التبليغ وتبليغ الشريعة أجراً إلّا التوادّ والتحابّ فيما يقرّب إلى اللّه من العمل الصالح عن الحسن والجبّائيّ وأبي مسلم قالوا: المراد هو التقرّب إلى اللّه والتودّد إليه بالطاعة.

وثانيها: أنّ معناه إلّا أن تودّوني في قرابتي منكم وتحفظوني لها، عن ابن عبّاس وقتادة ومجاهد وجماعة، قال الشعبيّ: سألنا ابن عبّاس عن الآية قال: إنّ رسول اللّه ﷺ كان واسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم إلّا وقد ولّده، فقال اللّه: قل لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً إلّا أن تودّوني لقرابتي منكم فيصير المعنى: إنّكم قومي وأحقّ من إجابتي وإطاعتي فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حقّ النسب ولا تؤذوني ولا تهيّجوا عليّ[1].

القول الثالث: روى الكلبيّ عن ابن عبّاس قال: إنّ النبيّ ﷺ لمّا قدم المدينة كانت تعروه نوائب وحقوق وليس في يده سعة فقال الأنصار: إنّ هذا الرجل ﷺ قد هداكم اللّه على يده وهو ابن أختكم وجاركم في بلدكم فأجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوه ثمّ أتوه به فردّه عليهم فنزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ الآية أي: إنّي على الإيمان لست أطلب منكم أجراً إلّا أن

١ـ تفسير الرازي، ج٢٧، ص١٦٤، و انظر: الدر المنثور، ج٦، ص٦.

تودّوا أقاربي وحثّهم على مودّة أقاربه.

وفي «الكافي»[1] عن الصادق عليه السلام ما يقرب هذا المعنى قال عليه السلام: «لمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من حجّة الوداع وقدم المدينة أتته الأنصار فقالوا: يا رسول الله إن الله عزّ وجلّ قد أحسن إلينا وشرّفنا بك وبنزولك بين ظهرانينا فقد فرّح الله صديقنا وكبّت عدوّنا وقد يأتيك وفود فلا تجد ما تعطيهم فيشمت بك العدو فنحبّ أن تأخذ ثلث أموالنا حتّى إذا قدم عليك وفد مكّة وجدت ما تعطيهم فلم يردّ رسول الله عليهم شيئا وكان صلى الله عليه وآله ينتظر ما يأتيه من ربّه فنزل عليه جبرئيل ونزلت الآية ولم يقبل أموالهم فقال المنافقون: ما أنزل الله هذا على محمّد وما يريد إلّا أن يرفع ابن عمّه ويحمل علينا أهل بيته يقول أمس من كنت مولاه فعليّ مولاه واليوم[2] ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ الآية. ولمّا قال المنافقون هذا الكلام وهو إنكارهم أنّ هذه الآية نزلت من الله، نزلت ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾[3] فأرسل صلى الله عليه وآله إليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتدّ عليهم فنزلت ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ الآية.

وعنه عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: «لمّا نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله قام رسول الله فقال: إنّ الله تعالى قد فرض لي عليكم فرضا فهل أنتم مؤدّوه؟ فلم يجبه أحد منهم فانصرف فلمّا كان من الغد قام فقال مثل ذلك فلم يجبه أحد، وكذلك في الثالث فلم يتكلّم أحد فقال: أيّها الناس إنّه ليس من ذهب ولا فضّة ولا مطعم ولا مشرب، قالوا: فألقه إذن، قال: إنّ الله تبارك وتعالى أنزل عليّ ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ فقالوا: أمّا هذه فنعم». قال الصادق عليه السلام: «فو الله ما وفي بها إلّا سبعة نفر سلمان وأبو ذرّ وعمّار والمقداد بن الأسود الكنديّ وجابر بن عبد الله الأنصاري ومولى

١ـ الكافي، ج ١، ص٢٩٦، و تفسير الصافي، ج ٤، ص٣٧٢.

٢ـ وذلك لأنه صلى الله عليه وآله قد قال ذلك القول مراراً قبل يوم الغدير.

٣ـ سورة الشوري: ٢٤.

لرسول الله يقال له الثبيت وزيد بن أرقم»[١].

وفي «العيون» عن الرضا عليه السلام ما يقرب من هذا الحديث[٢].

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام أنه قال: «ما يقول أهل البصرة في هذه الآية؟» قيل: إنّهم يقولون إنّها لأقارب رسول الله قال: «كذبوا إنّما نزلت فينا خاصّة في أهل البيت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين أصحاب الكساء عليهم السلام»[٣].

وفي كتاب «شواهد التنزيل لقواعد التفضيل» مرفوعاً إلى أبي أمامة الباهليّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله خلق الأنبياء من أشجار شتّى وخلقت أنا وعليّ من شجرة واحدة فأنا أصلها وعليّ فرعها وفاطمة لقاحها والحسن والحسين ثمارها وأشياعنا أوراقها فمن تعلّق بغصن من أغصانها نجى ومن زاغ عنها هوى ولو أنّ عبدا عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام ثمّ ألف عام ثمّ ألف عام حتّى يصير كالشنّ البالي ثمّ لم يدرك محبتنا أكبه الله على منخريه في النار ثمّ تلا هذه الآية»[٤].

وروى زاذان عن عليّ عليه السلام قال: «فينا في آل حم آية لا يحفظ مودّتنا إلّا كلّ مؤمن» ثمّ قرأ هذه الآية[٥] وإلى هذا أشار الكميت في شعره حيث يقول:

وجدنا لكم في آل حم آية ... تأوّلها منّا تقيّ ومعرب

فإن قيل: إنّ طلب الأجرة على تبليغ الوحي والرسالة لا يجوز لأنّه كان واجباً عليه صلى الله عليه وآله وطلب الأجرة على الأمر الواجب غير جائز كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على أنّ طلب الأجر

١ـ الاختصاص، ص٦٣، قرب الأسناد، ص٧٨.

٢ـ عيون الاخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٢١٢.

٣ـ الكافي، ج٨، ص٩٣، و وسائل الشيعة، ج١١، ص٤٤٧، و بحار الانوار، ج٢٣، ص٢٣٧، و تفسير الصافي، ج٤، ص٣٧٣.

٤ـ شواهد التنزيل، ج١، ص٥٥٤، و بحار الانوار، ج٢٣، ص٢٣٠، و مجمع البيان، ج٩، ص٤٩.

٥ـ بحار الانوار، ج٢٣، ص٢٣٠، و ينابيع المودة، ج٣، ص١٣٧.

كان يوجب التهمة وذلك ينافي القطع بصحّة النبوّة وظاهر الآية أنّه جعل المودّة في القربى أجر التبليغ.

فالجواب من وجهين: الأول: أنّ الاستثناء منقطع فحينئذ «إلا» بمعنى بل والثاني: أنّ الاستثناء متّصل لكنّه لمّا كانت المودّة في القربى أمر واجب في الإسلام فلا يكون أجراً للنبوّة والتبليغ وهو من باب قول النابغة:

ولا عيب فيهم غيـر أنّ سـيوفهم   بها من قراع الدارعين فلول[1]

فيصير المعنى في الآية أنا لا أطلب منكم إلّا هذا، وهذا في الحقيقة ليس أجراً لأنّ حصول المودّة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[2] وقال ﷺ: **«المؤمنون كالبنيان يشدّ بعضهم بعضاً»**. فإذا كان حصول المودّة بين المسلمين واجبا فحصولها في حقّ أشرف المسلمين وأكابرهم أولى فحينئذ المودّة في القربى ليست أجراً فرجع الحاصل إلى أنه لا أجر[3].

ونقل صاحب «الكشّاف» عن النبي ﷺ أنّه قال: **«من مات على حبّ آل محمّد ﷺ بشّره ملك الموت بالجنة ثمّ منكر ونكير، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد يزفّ إلى الجنة كما تزفّ العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات على السنّة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمّد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله**

١ـ كذا في التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي من غير نسخة إلى النابغة والمشهور الصحيح في قول النابغة: بهن فلول من قراع الكتائب.

٢ـ سورة توبه: ٧٠.

٣ـ المجازات النبوية، ص٢٨٢، و تفسير الرازي، ج٢٧، ص١٦٥.

ألا ومن مات على بغض آل محمّد مات كافرا ألا ومن مات على بغض آل محمّد لم يشمّ رائحة الجنّة»[١].

قال الرازي: الآل هم الّذين يؤول أمرهم إليه ومعلوم أنّ كلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانوا هم الآل، ولا شكّ أنّ فاطمة وعليّا والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله أشدّ التعلّقات وهذا هو المعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل، وأيضا اختلف الناس في الآل فقيل: هم الأقارب وقيل: هم أمته فإن حملناه على القرابة فهم الآل وإن حملناه على الأمّة الّذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل فثبت أنّ على جميع التقادير هؤلاء هم الآل وأمّا غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه[٢].

وروى صاحب «الكشّاف» أنّه لمّا نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الّذين وجبت علينا مودّتهم فقال صلى الله عليه وآله: **«عليّ وفاطمة وإبناهما»**.[٣] فثبت بهذا أنّ هؤلاء الأربعة أقارب النبيّ وهم مخصوصون بمزيد التعظيم وقال صلى الله عليه وآله: **«فاطمة بضعة منّي يؤذيني ما يؤذيها»**[٤]. وثبت بالنقل المتواتر عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه كان يحبّ عليّا وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام[٥] ولمّا ثبت ذلك وجب على كلّ الامّة مثله لقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٦] ولقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ والدعاء منصب عظيم وفريضة ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهّد في الصلاة وهو قوله:

١ـ الكشاف، ج٣، ص٤٦٦.

٢ـ تفسير الرازي، ج٢٧، ص١٦٦.

٣ـ الكشاف، ج٣، شرح ص٤٦٦، و تفسير ابن ابي حاتم، ج١٠، ص٣٢٧٦.

٤ـ انظر: الايضاح، الفضل بن شاذان، ص٥٤١، و بحار الانوار، ج٢٣، ص٢٣٢.

٥ـ بحار الانوار، العلامة المجلسي، ج٢٣، ص٢٣٤، و تفسير الرازي، ج٢٧، ص١٦٦.

٦ـ سورة الأعراف: ١٥٨.

اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد وهذا التعظيم لم يوجد في حقّ غير الآل فثبت أنّ حبّ آل محمّد واجب قال الشافعيّ:

يا راكبا قف بالمحصّب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض
سحرا، إذا فاض الحجيج إلى منى فيضا كما نظم الفرات الفائض
إن كان رفضا حبّ آل محمّد فليشهد الثقلان أنّي رافضي

فإن قيل: لم قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ولم يقل: إلّا المودّة للقربى؟ لأنّ المعنى أنّهم جعلوا مكان محبّة الامّة ومحلّها.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: من فعل طاعة نزد له في تلك الطاعة حسنا بأن نوجب له الثواب وذكر أبو حمزة الثماليّ عن السديّ أنّه قال: إنّ اقتراف الحسنة المودّة لآل محمّد[1]. وصحّ عن الحسن بن عليّ أبي طالب عليه السلام أنّه خطب الناس يوما وقال في خطبته: **«أنا من أهل البيت الّذين افترض الله مودّتهم على كلّ مسلم فقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت»**[2] وروى إسماعيل بن عبد الخالق عن الصادق عليه السلام أنّه قال: **«إنّها نزلت فينا أهل البيت أصحاب الكساء»**[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للسيّئات ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعات يعامل عباده معاملة الشاكر في توفية الحقّ كأنّه ممّن وصل إليه النفع فشكره.

قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: بل يقولون افترى محمّد على الله كذباً في ادّعائه الرسالة عن الله أو إثبات المودّة للقربى، فرية افترى

١ـ تفسير أبي حمزة الثمالي، ص٢٩٣.
٢ـ بحار الانوار، ج٢٣، ص٢٥٦، و الذريّة الطاهرة النبوية، ج ١١٠.
٣ـ المناقب، ج٣، ص ١٧١، و بحار الانوار، ج٢٣، ص ٢٣٢.

محمّد على اللّه فنزلت ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ﴾ الآية، قال صاحب «الكشّاف»: «أم» منقطعة ومعنى الاستفهام فيه التوبيخ كأنّه قيل: أيجري في ألسنتهم أن نسبوا مثله إلى الافتراء على اللّه، والفرية أقبح أنواع الكذب وأفحشها.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ المعنى: استشهاد على بطلان ما نسبوا إليه من الافتراء أي كأنّه قيل: لو كان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك وإن يشأ ذلك يختم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنى من معاني القرآن ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث لم يكن الأمر كذلك بل تواتر الوحي حيناً بعد حين تبيّن أنّه من عند اللّه تعالى. وقيل: المعنى: فإن يشأ اللّه يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتّى لا يشقّ عليك قولهم وأباطيلهم من قبيل: إنّه ساحر ومفتر. ثمّ أخبر سبحانه أنّه يذهب ما يقولونه باطلاً فقال: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: يزيله ويرفعه بإقامة الدلائل على بطلانه وحذف الواو من يمحو في المصاحف كما حذف من قوله: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[1] على اللفظ في ذهابها دون المعنى لالتقاء الساكنين وليس بعطف على قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾ لأنّه مرفوع يدلّ عليه قوله ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي: ويثبت الحقّ بأقواله الّتي ينزّلها على نبيّه وهو هذا القرآن المعجز. وقيل: المراد من الكلمات الأئمّة والقائم من آل محمّد ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وبضمائر القلوب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ وقد ذكرت قبيل هذا شأن نزول الآية أي إنّ اللّه يقبل التوبة عنهم وإن جلّت معاصيهم لأنّهم نسبوا الافتراء إلى محمّد ﷺ ومع ذلك قبلت توبتهم وإن جلّت معاصيهم ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من خير وشرّ فيجازيهم على ذلك.

وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ

١ـ سورة العلق: ١٨.

شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ
إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ
رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ
فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَٰبَكُم مِّن
مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾

ولمّا تقدّم في الآيات السابقة وعيد أهل العصيان وأرجاهم بقبول التوبة ولو كانت معاصيهم عظيمة وبيان التوبة قد سبق في سورة البقرة ولا يحتاج إلى التكرار وأقلّ ما لا بدّ فيه الندم على الماضي والترك في الحال والعزم الراسخ على عدم العود في المستقبل كما يفصح عن هذا المعنى حديث رواه جابر من أنّ أعرابيّاً دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللّهمّ إنّي أستغفرك وأتوب إليك وكبّر فلمّا فرغ من صلاته قال له أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**يا هذا إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذّابين فتوبتك يحتاج إلى توبة**». فقال: يا أمير المؤمنين وما التوبة؟ فقال عليه السلام: «**التوبة اسم يقع على ستّة أشياء: على الماضي من الذنوب: الندامة، ولتضييع الفرائض: الإعادة، وردّ المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربّيتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كلّ ضحك ضحكته**»[1].

ومسألة التوبة بين الأشاعرة والمعتزلة في أنّ قبولها على الله من باب التفضّل أو الوجوب خلافيّة قالت المعتزلة: يجب على الله عقلا وقالت الأشاعرة: لا يجب على الله شيء وكلّما يفعله بالكرم والتفضّل.

١ـ الكشاف، ج٣، شرح ص٤٦٨، و تفسير الرازي، ج٢٧، ص١٦٨، و تفسير الثعلبي، ج٨، ص٣١٥، و تفسير النسفي، ج٤، ص١٠٢.

واحتجّت الأشاعرة على صحة قولهم بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾[1] وقالوا: إنّه تعالى يمدح بقبول التوبة ولو كان ذلك القبول واجبا لما حصل التمدّح العظيم ألا ترى أنّ من مدح نفسه بأن لا يضرب الناس ظلما ولا يقتلهم غضبا كان ذلك مدحا قليلاً أمّا إذا قال: إنّي أحسن إليهم مع أنّ ذلك لا يجب عليّ كان ذلك مدحا وثناء.

وبالجملة فقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ معناه يجيبهم إلى ما يسألونه وقيل: ويجيبهم الله في دعاء بعضهم لبعض عن معاذ بن جبل وقيل: المعنى إنّ الله يقبل طاعاتهم وعباداتهم ويزيدهم من فضله على ما يستحقّونه من الثواب وقيل: معنى ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أنّ يشفّعهم في إخوانهم.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: ويشفّعهم في إخوانهم عن ابن عبّاس روي عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله: في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ الشفاعة لمن وجبت له النار ممّن أحسن إليهم في الدنيا»[2] وقيل: إنّ قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ رفع على أنّه فاعل تقديره ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم الله إليه لكنّ الباقين قالوا: إنّ محلّه النصب والفاعل مضمر وهو الله وتقديره ويستجيب الله للمؤمنين إلّا أنّه حذف اللام كما حذف في قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ وهذا القول مطابق للمعاني المذكورة وأوجه لأنّ الخبر فيما قبل وبعد عن الله لأنّ ما قبل الآية قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ وما بعدها قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ فيزيد عطف على ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ فلو قيل: إنّه تعالى قد

١ـ سورة الشورى: ٢٥.

٢ـ مجمع البيان، ج٩، ص٥١، و بحار الانوار، ج٦٤، ص٤٩، و انظر: كتاب السنة، ص٣٩٤، و تفسير جامع، ج٣، ص٢٨٥.

يستجيب دعاء الكافر فما فائدة التخصيص للمؤمنين؟

فالجواب إنّ اجابة دعاء المؤمنين وذكر التخصيص على سبيل التشريف لكن إجابة دعاء الكافر في الدنيا دون الآخرة وهي على سبيل الاستدراج بل ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

ولمّا بيّن أنّه يزيد المؤمنين من فضله أخبر أنّ توسعة الأرزاق وتغيّرها تكون على حسب المصالح فقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لو وسع الرزق على حسب ما يطلبونه لبطروا وتغالبوا وظلموا في الأرض وخرجوا عن الاستقامة في دنياهم وتغلّب بعضهم على بعض قال ابن عبّاس: بغيهم في الأرض طلبهم منزلة بعد منزلة ودابّة بعد دابّة وملبساً بعد ملبس ولا يقفون على حدّ وهذه الآية كأنّها جواب عن قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ وهو أنّ المؤمن قد يكون في شدّة ومحنة وفقر ثمّ يدعو فلا يجاب ولا يشاهد أثر الإجابة فأجاب سبحانه ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ﴾

قال بطل الاعتزال الجبّائيّ: إنّ هذه الآية تدلّ على بطلان قول المجبّرة من وجهين:

الاول: أنّ حاصل الكلام أنّه تعالى لو بسط الرزق لعباده لبغوا في الأرض فالبغي في الأرض غير مراد فبسط الرزق لهذه الجهة غير حاصل وهذا الكلام يصحّ ويتمّ إذا قلنا إنّه لا يريد البغي في الأرض فثبت فساد قول المجبّرة.

الثاني: أنّه تعالى بيّن أنّه إنّما لم يرد بسط الرزق لأنّه يفضي إلى المفسدة فلمّا بيّن أنّه لا يريد ما يفضي إلى المفسدة فبأن لا يكون مريداً للمفسدة أولى وبالجملة فالعقل يحكم بحصول البغي في بسط الرزق وأقلّ ما فيه خراب العالم في انتظامه لأنّه لو بسط الرزق وسوّى في الرزق بين الكلّ

لامتنع كون البعض خادماً للبعض ولو صار الأمر كذلك لتعطلّت المصالح وانفصمت الأمور بالكلّيّة.

ثمّ إنّ النفوس إذا كانت شريرة فاقدة الآلات والأدوات كان الشرّ يصدر منه قليلاً كما أنّ العرب كانت كلّما اتّسع أرزاقهم ووجدوا من ماء المطر ما يرويهم ومن الكلاء والعشب ما يشبعهم أقدموا على الغارات والنهب والإنسان متكبّر بالطبع فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصليّة وهو التكبّر والتطاول وإذا وقع في الشدّة عاد إلى الطاعة والتواضع.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ أي: ينزّل من الرزق قدر صلاحهم ما يشاء نظراً منه تعالى لهم بالرأفة ويؤيّده الحديث الّذي رواه أنس عن النبيّ ﷺ عن جبرئيل عن الله تعالى: **«إنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا السقم ولو صحّحته لأفسده وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا الصحّة ولو أسقمته لأفسده، وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا الغنى ولو أفقرته لأفسده، وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا الفقر ولو أغنيته لأفسده وذلك أنّي ادبّر عبادي لعلمي بقلوبهم»**[1] والحديث طويل. فلو قيل: إنّا نرى كثيرا ممّن يوسّع عليه الرزق يبغي في الأرض.

قلنا: إنّا إذا علمنا على الجملة أنّه سبحانه يدبّر امور عباده بحسب ما يعلم مصالحهم يمكن أنّ هؤلاء يستوي حالهم في البغي وسّع عليهم أولم يوسّع عليهم ولو لم يوسّع عليهم لكانوا أسوأ حالا في البغي فلذلك وسّع عليهم.

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ عليم بأحوالهم بصير بما يصلحهم وما يفسدهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ ولمّا بيّن أنّه تعالى لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنّه علم أنّ تلك الزيادة تضرّهم في

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٥٢، و نور الثقلين، ج٤، ص٥٧٩، و انظر: مسند الرضا، ص١٤١، و انظر: الأمالي، ص١٦٦، و تفسير الثعلبي، ج٨، ص٣١٨.

دينهم بيّن أنّهم إذا احتاجوا إلى الرزق فإنّه لا يمنعهم منه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ الآية، وإنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر أي ينزّله عليهم من بعد ما يئسوا من نزوله والغيث ما كان نافعا في وقته والمطر قد يكون ضاراً في وقته وغير وقته ووجه إنزاله بعد القنوط لأنّه أدعى إلى المعرفة بموقع إحسانه. ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ ويفرّق نعمته ويبسطها بإخراج النبات والثمار الّتي يكون سببها المطر ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الّذي يتولّى تدبير عباده وتقدير أمورهم المالك لهم ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود على جميع أفعاله.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالّة على وحدانيّته وصفاته الّتي باين بها خلقه ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنّه لا يقدر على ذلك غيره لما فيهما من العجائب ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ والدابّة ما تدبّ فيدخل فيه جميع الحيوانات وقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: من حيّ وذي حيات فيصحّ الإطلاق على الملائكة ويمكن أن يكون للملائكة مشي مع الطيران. وقد روي أنّ النبيّ ﷺ قال: **«فوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثمّ فوق ذلك ثمانية أو عال بين ركبهنّ وأظلافهنّ كما بين السماء والأرض ثمّ فوق ذلك العرش العظيم»**[1]. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ أي إنّه تعالى على حشرهم إلى الموقف بعد إماتتهم قادر لا يتعذّر عليه ذلك وكلمة ﴿إِذَا﴾ عند كونها بمعنى الوقت تدخل على المستقبل كما تدخل على الماضي مثل ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾.

واحتجّ الجبّائي بقوله تعالى: ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ على أنّ مشيّته محدثة بأن قال إنّ كلمة ﴿إِذَا﴾ تفيد ظرف الزمان وكلمة ﴿يَشَآءُ﴾ صيغة المستقبل فلو كانت مشيّته قديمة لم يكن تخصيصها بذلك الوقت المعيّن من المستقبل فائدة ولمّا دلّ قوله: ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ على هذا التخصيص علمنا أنّ مشيّته

١ـ تفسير ابي السعود، ج٨، ص٣٢، و مسند أحمد، ج١، ص٢٠٧.

محدثة قال أبو السعود: قوله: ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ متعلّق بما قبله لا بقوله ﴿قَدِيرٌ﴾.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ معاشر الخلق ﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ من بلوى في نفس أو مال ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من المعاصي ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ منها فلا يعاقب بها قال أهل التحقيق: الآية مخصوصة بالمجرمين وإن خرج مخرج العموم لأنّ الأطفال والمجانين ومن لا ذنب له من المؤمنين قد يصابون بمصائب شديدة مع أنه لا ذنب لهم وإنّ الأنبياء والأئمة بمتحنون بالمصائب وليس ذلك لأجل الذنوب بل لأسباب أخر منها تعريض للثواب العظيم والدرجات العالية.

وروي عن عليّ عليه السلام أنه قال: **«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عليّ خير آية في كتاب الله هذه الآية ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلّا بذنب وما عفا الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثني على عبده»**[1].

وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)

قال الواحديّ في «البسيط»: إنّ قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أرجى آية في كتاب الله للمؤمنين المذنبين لأنّ الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين صنف كفّره عنهم بالمصائب في الدنيا، وصنف عفي عنه في الدنيا وهو كريم

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٥٣، و بحار الانوار، ج٧٠، ص٣١٦.

لا يرجع عن عفوه وهذه سنّته مع المؤمنين.

وأمّا الكافر فلأنّه لا يعجل عليه عقوبة ذنوبه حتّى يوافي يوم القيامة فقال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يا معاشر الكفّار أنتم لا تعجزونني حيث ما كنتم ولا تسبقونني بسبب هربكم في الأرض ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال الرازيّ: والمراد بهم من يعبد الأصنام وبيّن أنّه لا فائدة فيها البتّة والنصير هو الله فلا جرم هو الّذي تحسن عبادته[1].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ قرئ الجواري بالياء في الوقف والوصل وقرئ بإثبات الياء في الوصل والحذف، وإن كانت لاما قد كثر في كلامهم وذكر من آياته السفن الجواري (فحذف الموصوف لعدم الالتباس) وهي تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح. والغرض من الآية الاستدلال على وجود القادر، والمعرفة بأنّ هذه النعم العظيمة من الله للعباد، والمراد من ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ الجبال قالت الخنساء ترثي أخاها:

وإنّ صـخرا لتـأتمّ الهـداة بـه   كأنّـه علـم فـي رأسـه نـار

ونقل أنّ النبيّ ﷺ استنشد قصيدتها هذه فلمّا وصل الراوي إلى هذا البيت قال ﷺ: **«قاتلها الله[2] ما رضيت بتشبيهها له بالجبل حتّى جعلت على رأسه نارا»**[3].

والحاصل أنّ هذه السفن الّتي كالجبال تجري على وجه البحر عند الهبوب على أسرع الوجوه وعند سكون الرياح تقف ومحرك الرياح ومسكّنها هو الله إذ لا يقدر أحد على تحريكها من البشر ولا على تسكينها، وذلك يدلّ

١ـ تفسير الرازي، ج٢٧، ص١٧٣.

٢ـ ليس ذلك دعاء عليها فإن الخنساء أسلمت واستشهد لها أربعة بنين في القادسية، بل استعجاب واستحسان.

٣ـ تفسير الرازي، ج٢٧، ص١٧٥.

على وجود الإله القادر وإنّ اللّه تعالى خصّ كلّ جانب من الأرض بنوع من الأمتعة وبهذه الآلة تحصل المنافع العظيمة للناس وهذا الإنسان الّذي كان في مبدء أمره لا يميّز التبر من التبن جعله ذا قوّة عاقلة بحيث يصدر منه هذه الصناعة وأمثالها وليس ذلك إلّا بحكمته الوافية. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: في ذلك الّذي ذكر من الدلائل والآيات آيات دالّة لكلّ صبّار على بلاء اللّه شكور على آلائه، والمقصود أنّ المؤمن يجب أن لا يكون غافلا على التقديرين.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ المعنى: إن يشأ إسكان الريح يسكن أو إن يشأ يجعل الريح عاصفة يهلك أهل السفن بالغرق عقوبة لهم بما كسبوا من المعاصي ويعف عن كثير من أهلها فلا يغرقهم ولا يعاجلهم بالعقوبة. وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ عطف على قوله: ﴿يُسْكِنِ﴾ أي إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو منهم ومن قرأ ﴿وَيَعْفُوا﴾ بالواو فقد استأنف الكلام.

ثمّ قال: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ قرئ يعلم بالرفع على الاستيناف وبالنصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره: لينتقم منهم ويعلم الّذين يجادلون في آياتنا والعطف على التعليل المحذوف كثير في القرآن مثل قوله: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: ليعلم الّذين يجادلون في إبطال آياتنا ما لهم ملجأ يلجئون إليه. وقرئ بالجزم عطفا على يعف والمعنى: وإن يشأ يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير قوم.

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا

هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ
سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾

ثمّ خاطب سبحانه من تقدّم وصفهم فقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ ممّا يرغبون ويتنافسون فيه فهو متاع تتمتّعون به مدّة حياتكم ثمّ تموتون فيبقى عنكم أو يهلك المال قبل موتكم ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ ذاتاً ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ زماناً حيث لا يزول كهذه المنافع الفانية ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وصدّقوا بتوحيد الله وبما يجب التصديق به ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وهم متوكّلون ومفوّضون أمرهم إلى الله والتوكّل على الله تفويض الأمور إليه بأنّها جارية من قبله على أحسن التدبير. وهذه الخيريّة المذكورة في الآية بقوله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ لا تحصل إلّا بشرائط:

الاول: أن يكون العبد من المؤمنين لقوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الثاني: أن يكون من المتوكّلين على فضل الله لقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الثالث: أن يكون مجتنباً لكبائر الإثم والفواحش، عن ابن عبّاس: كبير الإثم هو الشرك وقيل: المراد بكبائر الإثم ما يتعلّق بالبدع واستخراج الشبهات وبالفواحش ما يتعلّق بالقوّة الشهويّة وبقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ما يتعلّق بالقوّة الغضبيّة.

الرابع: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ والمراد تمام الانقياد والرضاء بقضاء الله من صميم القلب وأن لا يكون في قلبه معارضة ومنازعة في أمر من الأمور ويجيبون ما أمر الله إيّاهم.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وأداموا عليها في أوقاتها وشرائطها ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: إذا وقعت بينهم واقعة تشاوروا ولا يتفرّدوا برأي والشورى مصدر

كالفتيا بمعنى التشاور ومعنى قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ﴾ أي: ذو شورى وهي المفاوضة في الكلام ليظهر الحقّ وقيل: المعنى والمقصود بالآية: الأنصار كانوا إذا أرادوا أمرا تشاوروا قبل الإسلام وكان ذلك قبل قدوم النبيّ اجتمعوا وتشاوروا ثمّ عملوا عليه فأثنى الله عليهم بذلك. وقيل: هو تشاورهم حين سمعوا بظهور النبيﷺ وورود النقباء حتّى اجتمعوا في دار أبي أيّوب على الإيمان بهﷺ والنصرة له وقد روي أنّه قال: «ما من رجل يشاور أحدا إلّا هدي إلى الرشد».[١] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله وسبيل الخير.

الخامس: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ من غيرهم ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ ممّن بغى عليهم من غير أن يعتدوا أي يقتصرون في الانتصار على ما يجعله الله لهم ولا يتعدّونه.

وقيل: ينتصرون أي يتناصرون وينصر بعضهم بعضاً نحو يختصمون ويتخاصمون. وقيل: المعنيّ في الآية المؤمنون الّذين أخرجهم الكفّار من مكّة وبغوا عليهم ثمّ مكّنهم الله في الأرض حتّى انتصروا من ظلمهم.

وقيل: جعل الله المؤمنين صنفين صنفاً يعفون عمّن ظلمهم وهم الّذين ذكروا قبل هذه الآية وهو قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ وصنفاً ينتصرون ممّن ظلمهم وهم الّذين ذكروا في هذه الآية والّذي أخذ بحقّه ولم يجاوز في ذلك ما حدّ الله فهو مطيع لله ومن أطاع الله فهو محمود ولا منافاة وتناقض بين الآيات مثل قوله: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٢] وقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٥٧، و الصافي، ج٦، ص٣٧٤.

٢ـ سورة البقرة: ٢٣٧.

٣ـ سورة الأعراف: ١٩٩.

عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾[1].

وبيّن هذه الآية من قوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾[2] أنّ العفو على قسمين قسم يصير سببا لتسكين الفتنة ورجوع الجاني عن جنايته وقسم يصير سببا لمزيد الجاني جرءته على الجناية وتلك الآيات في العفو محمولة على القسم الأوّل وهذه الآية محمولة على القسم الثاني فلا منافاة. وعن النخعيّ أنّه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن يذلّوا أنفسهم فيجترئ عليهم السفهاء. قال الشاعر:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللّئيم تمرّدا

فوضع الندى في موضع السيف بالعلى مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

ألا ترى أنّ العفو عن المصرّ يكون كالإغراء له.

روي أنّ زينب أقبلت على عائشة فشتمتها فنهاها النبيّ ﷺ عنها؛ فلم تنته، فقال النبيّ ﷺ لعائشة: «دونك فانتصري»[3].

ثمّ إنّه تعالى لم يرغب في الانتصار بل بيّن أنّه مشروع فقط ثمّ بيّن بعده أنّ شرعه مشروط برعاية المماثلة ثمّ بيّن أنّ العفو أولى بقوله: فمن عفى.

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ أي: إنّ جزاء سيّئة مثلها فإنّ الأفعال مستتبعة بأجزيتها حتما نحن زوّجنا الفعال بالجزاء فقيّد سبحانه إنّ الانتصار لا بدّ وأن يكون مقيّدا بالمثل فإنّ النقصان حيف والزيادة ظلم والتساوي عدل وبه قامت السماوات والأرض. فإن قيل: إنّ جزاء السيّئة مشروع مأذون فيه فكيف سمّي بالسيّئة؟

١ـ سورة النحل: ١٢٦.

٢ـ سورة الشورى: ٣٩.

٣ـ تفسير الرازي، ج٢٧، ص١٧٧، و انظر: الكشاف، ج٣، شرح ص٤٣٧.

أجاب: صاحب «الكشّاف» عنه أنّ كلتا الفعلتين الاولى وجزاؤها سيّئة لأنها تسوء من ينزل به قال اللّه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾[١] يريد ما يسوؤهم من المصائب والبلايا. وأجاب غيره بأنّه لمّا جعل أحدهما في مقابلة الاخرى أطلق اسم أحدهما على الآخر على سبيل المجاز.

وهذه الآية أصل كبير في علم الفقه فإنّ مقتضاها أن يقابل كلّ جناية بمثلها وقد تأكّد هذا النصّ بنصوص أخر مثل قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾[٢] وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾[٤]. والقصاص عبارة عن المساواة والمماثلة وقوله: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ فوجب رعاية المماثلة مطلقاً إلّا فيما لا يمكن المماثلة أو خصّه الدليل المنفصل: والتخصيص يقع في صور كثيرة مثلا إذا قال له: أخزاك اللّه فليقل مثله أخزاك اللّه أمّا إذا قذفه قذفا يوجب الحدّ فليس له مثل ذلك بل الحدّ الّذي أمر اللّه به.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فإذا عفا بشرط القربة للّه فيقع أجره على اللّه وقد روي عن النبي ﷺ أنّه قال: **«إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان أجره على الله فليدخل الجنة فيقال: من ذا الّذي أجره على الله؟ فيقال: العافون عن الناس فيدخلون الجنة بغير حساب»**[٥].

﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ

١ـ سورة النساء: ٧٨.

٢ـ سورة النحل: ١٢٦.

٣ـ سورة المؤمنون: ٤٠.

٤ـ سورة البقرة: ١٧٨.

٥ـ مجمع البيان، ج٩، ص٥٨، و بحار الانوار، ج٦٤، ص٢٢٦، و جوامع الجامع، ج٣، ص٢٩٠، و تفسير القرطبي، ج٤، ص٢٠٨.

﴿يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

ثمّ ذكر سبحانه حال المنتصر فقال: من انتصر لنفسه وانتصف من ظالمه ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: بعد أن ظلم وتعدى عليه فأخذ لنفسه بحقّه فالمنتصرون ﴿مَا عَلَيْهِم﴾ من إثم وعقوبة وذمّ وهنا إضافة المصدر إلى المفعول.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ الإثم والعقاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: يبدءون بالإضرار أو يعتدون في الانتقام ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ويتكبّرون فيها علوًا وفسادا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مولم.

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ وتحمّل المشقّة في رضاء الله ﴿وَغَفَرَ﴾ فلم ينتصر ولم يعاقب ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتحمّل ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: الأمور الثابتة الّتي يحبّها الله وأمر بها فلم ينسخ.

وقيل: عزم الأمور الأخذ بأصوبها وأعلاها في باب نيل الثواب.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: ومن يظله عن رحمته وجنّته فما له معين سواه وقيل: من عذّبه الله عقوبة له على عناده ليس له وليّ يلي أمره ويدفع عذاب الله عنه. ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: تراهم يا محمّد إذا شاهدوا عذاب النار ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ ورجوع في الدنيا وذلك تمنّيا منهم.

﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ يا محمّد ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار قبل دخولهم

النار ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ ساكتين متواضعين في حال العرض ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي خفيّ النظر ويسارقون النظر إلى النار خوفاً منها وذلّة في نفوسهم كأنّهم ينظرون من عين لا تفتح كلّها وإنّما نظروا ببعضها إلى النار كالمصبور ينظر إلى السيف.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: المتّصفين بصفة الخسران في الحقيقة هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن فوّتوا عن أنفسهم الانتفاع بنعيم الجنّة وذلك القول من المؤمنين حين ما رأوا عظيم ما نزل بالظالمين ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ أي: خسروا أنفسهم وأولادهم وأزواجهم وأقاربهم.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ إمّا من تمام كلامهم أو تصديق من الله تعالى لهم، واستدلّ القاضي عبد الجبّار بهذه الآية على أنّ الكافر والفاسق يدوم عذابهما، وأجاب الرازيّ أنّ لفظ الظالم المطلق في القرآن مخصوص بالكافر قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن
سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ
مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ
أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا
رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ
إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ
مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

١ــ سورة البقرة: ٢٥٤.

ثمّ أخبر سبحانه عن الظالمين الّذين ذكرهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ما كان لهم من دون اللّه من أنصار يدفعون عنهم عقاب اللّه ومن يضلّله اللّه عن طريق الجنّة فليس له سبيل إليها.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ أي: أجيبوا داعي ربّكم يعني محمّدا فيما دعاكم إليه ورغّبكم فيه من المصير إلى طاعته والانقياد لأمره ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا رجوع بعده إلى الدنيا.

وقيل: معناه لا يقدر أحد على ردّه ودفعه وهو يوم القيامة عن الجبّائي.
وقيل: معناه لا يردّ ولا يؤخّر وقته وهو يوم الموت.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: معقل يعصمكم من العذاب ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: إنكار وتغيّر للعذاب أو نصير منكر ما يحلّ بكم ولا يردّه اللّه بعد ما حكم به ويجوز أن يكون المراد من قوله: ﴿نَّكِيرٍ﴾ الإنكار أي: لا تقدرون أن تنكروا شيئا ممّا اقترفتموه من الأعمال.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ هؤلاء الّذين أمرتهم بالاستجابة ولم يقبلوا هذا الأمر ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ بأن تحفظ أعمالهم وتحصيها ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وليس عليك إلّا الإيصال إلى أفهامهم والبيان لما فيه رشدهم.

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أي: إذا وجدوا في الدنيا سعادة وفوزا بنعيمها فرح واسترّ بها، ونعم اللّه في الدنيا وإن كانت عظيمة إلّا أنّها بالنسبة إلى السعادة المعدّة في الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سمّاها ذوقا والمراد أنّه إذا فاز بهذا القدر الحقير الّذي حصل في الدنيا فإنّه يعظم سروره ويقع في العجب والكبر ويظنّ أنّه فاز بكلّ المنى. ثمّ بيّن أنّه متى ما أصابته سيّئة وشيء يسوؤه كالمرض والفقر فقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ والكفور مبالغة في الكفران ولم يقل: فإنّه

كفور ليبيّن أنّ طبيعة الإنسان تقتضي هذه الحالة إلّا إذا أدّب نفسه بأدب اللّه.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمقصود منه أن لا يغترّ الإنسان بما ملكه من المال والجاه بل إذا علم أنّ الكلّ ملك اللّه وهو تعالى ملّكه وأنعم عليه فيصير ذلك حاملاً له على مزيد الطاعة والعبادة وأمّا إذا اعتقد أنّ تلك النعم إنّما حصلت بسبب عقله وجدّه بقي مغرورا بنفسه معرضاً عن طاعة اللّه.

ثمّ ذكر من أقسام تصرّفه تعالى في العالم وقال: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يخصّ البعض بالأولاد الإناث والبعض بالذكور فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ أي: يجمع لهم بين البنين والبنات تقول العرب: زوّجت إبلي أي جمعت بين صغارها وكبارها. قال مجاهد: وهو أن تلد المرأة غلاما ثمّ جارية. وقيل: هو أن تلد توأما ذكرا وأنثى أو ذكرا وذكرا أو أنثى وأنثى. وقيل: هو أن يجمع الرحم الذكر والأنثى عن محمّد بن الحنفيّة قوله: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ أي: يجعل البعض محروماً عن الكلّ من الرجال والنساء ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بما خلق ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يريد وعبّر سبحانه في الآية عن الإناث بلفظ التنكير. وعن الذكور بلفظ التعريف للتنبيه على أشرفيّة الذكور على الإناث.

قال ابن عبّاس: في قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ يريد لوطاً وشعيباً عليهما السلام ولم يهب لهما إلّا البنات ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ يريد إبراهيم لم يكن له إلّا الذكور. وقوله: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ يريد محمّداً صلى الله عليه وآله كان له من البنين أربعة: القاسم والطاهر وعبد اللّه وإبراهيم ومن البنات أربعة: زينب ورقيّة وامّ كلثوم وفاطمة عليها السلام ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ يريد عيسى ويحيى.

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

المعنى: لمّا ذكر نعمه السابقة على خلقه ذكر في هذه الآية أجلّ النعم وهي النبوّة فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أي ليس لأحد من البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا﴾ أن يوحي إليه ﴿وَحْيًا﴾ مثل داود أوحي في صدره فزبر الزبور أو يكون بطريق الإلهام والقذف في القلب أو المنام كما أوحى اللّه إلى امّ موسى وإبراهيم في ذبح ولده أو يسمعه كلامه تعالى ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ وهو موسى في الطور ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ وهو جبرئيل ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: إرسال ملائكته بكلامه وكتبه إلى أنبياءه.

والمراد من قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ هو: أن يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه إلّا من يريد أن يكلّمه به نحو كلامه لموسى لأنه حجبَ ذلك عن جميع الخلق إلّا عن موسى وحده وفي المرّة الثانية حجبه عن جميع الخلق إلّا عن موسى والسبعين نفراً الّذين كانوا معه ويمكن أن يقال: إنّه تعالى حجب عنهم موضع الكلام الّذين أقام الكلام فيه فلم يكونوا يدرون من أين يسمعونه لأنّ الكلام عرض لا يقوم إلّا في جسم ولا يجوز أن يكون أراد بقوله: ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ تكلّمه عباده لأنّ الحجاب لا يجوز إلّا على الأجسام. ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ عليّ عن الإدراك بالأبصار حكيم في أفعاله. قالت المعتزلة والإماميّة: إنّ هذه الآية تدلّ على أنه تعالى لا يرى وذلك لأنّه تعالى حصر أقسام وحيه في هذه الثلاثة ولو صحّت رؤية اللّه لصحّ من اللّه أن تتكلّم مع العبد حال ما يراه العبد فحينئذ يكون ذلك قسماً رابعاً زائداً على هذه الأقسام الثلاثة واللّه تعالى نفى القسم الرابع.

وأمّا الّذين يدّعون الرؤية يزيدون في الآية قيداً، ولعجزهم عن أوّله نفي الرؤية زادوا هذا القيد وقالوا: تقدير الكلام في الآية: وما كان اللّه لبشر أن يكلّمه اللّه في الدنيا. وهذا القول والتقدير خلاف الظاهر وهب أنّهم التزموا بهذا التقدير في الآية واثبتوا مدّعاهم فماذا يصنعون بتلك الدلائل المنفصلة في نفي الرؤية من وقوع التجسّم والتمكّن والتركيب وأمثالها المباينة لمعنى الألوهيّة؟ وبالجملة إنّه تعالى لا يرى لا في الدنيا ولا في القيامة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: مثل ما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ ومعنى الروح القرآن لأنّ فيه الحياة من موت الكفر والاهتداء بالحياة السليمة عن الآفات. وقيل: المراد من الروح هو روح القدس وهو ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله. عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه عليهما السلام قالا: «ولم يصعد إلى السماء وإنّه لفينا الأئمة»[1].

﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: ما كنت يا محمّد قبل الوحي وقبل أن نعلّمك بالوحي ما القرآن ولا الشرائع ومعالم الإيمان؟ وقيل: معناه ولا أهل الإيمان أي من الّذي يؤمن ومن الذي لا يؤمن وهذا من باب حذف المضاف. ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي: جعلنا الروح الّذي هو القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ لأنّ فيه معالم الدّين. وقيل: المعنى جعلنا الإيمان نوراً. القمّيّ عن الباقر عليه السلام في قوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ قال: «يعني: عليّاً عليه السلام وعليّ هو النور هدى به من هدى من خلقه»[2]. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: كما أنّ القرآن يهدي إلى الصراط المستقيم فأنت تهدي الخلق وعلي نفسك وصنوك فهو أيضاً؛ كذلك قال الصادق عليه السلام حين سئل عن معنى الآية:

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٦٤، و نور الثقلين، ج٤، ص٥٩٠.

٢ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٨٠.

«يعني: إنّك لتأمر بولاية عليّ وتدعو إليها وعليّ هو الصراط المستقيم»[١].

ثمّ فسّر ذلك الصراط بقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إنّ الصراط صراط الله ولا يجوز عبادة غيره. ثمّ قال: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ﴾ وترجع ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ دون غيره. توضيح لو قيل: إنّ الإجماع منعقد على أنه لا يجوز أن يقال: إنّ الرسل كانوا قبل الوحي على الكفر فكيف التطبيق مع قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾؟ والتطبيق ما ذكرنا في تفسير الآية إن كنت عرفت معناه وهو أنّ المراد من الكتاب القرآن ومن الإيمان الصلاة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم.

والجواب الثاني: ما بيّنّا من حذف المضاف أي ما كنت تدري ما الكتاب ومن أهل الإيمان يعني: من الّذي يؤمن ومن الّذي لا يؤمن.

والجواب الثالث: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان حتّى كنت طفلاً في المهد ومعلوم أنّ علم النبيﷺ ما كان قديماً بل علّمه الله.

والجواب الرابع: أنّ الإيمان عبارة عن الإقرار بجميع ما كلّف الله به وإنّه قبل النبوّة ما كان عارفاً بجميع جزئيّات الشريعة بل إنّه كان عارفاً بالله تعالى. تمّت السورة.

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٨٠، و بصائر الدرجات، ص٩٨، و بحار الانوار، ج٣٥، ص٣٦٧.

سورة الزخرف

مكية كلها، وقيل: إلّا آية منها ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا....﴾، نزلت في بيت المقدس. عن النبي صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الزخرف كان ممّن يقال له: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ادخلوا الجنة بغير حساب»[1].

وعن أبي بصير عن الباقر عليه السلام: «من أدمن قراءة الزخرف آمنه الله في قبره من هو امّ الأرض ومن ضغطة القبر حتّى يقف بين يدي الله ثمّ جاءت حتّى تكون هي الّتي تدخله الجنة بأمر الله»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾

﴿حمٓ﴾ أي هذه السورة مسمّاة بحم أو أنّ حم هو القرآن وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ بالجرّ على أنّه مقسم به إمّا ابتداء أو بإضمار باء القسم، أقسم سبحانه بالكتاب المبين ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾

١ـ جوامع الجامع، ج٣، ص٢٩٥، و نور الثقلين، ج٤، ص٥٩١.

٢ـ ثواب الاعمال، ص١١٣، و مجمع البيان، ج٩، ص٦٦.

فيكون المقسم عليه هو قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا﴾ وعلى تقدير: هذه سورة حم، فيكون القسم واقعا على أنّ هذه السورة هي سورة حم وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ ابتداء لكلام آخر.

وفي وصف الكتاب بكونه مبيناً لأنّه المبين للذين أنزل إليهم لأنّه بلغتهم ولسانهم أو لأنّه مبين طريق الهدى من طريق الضلالة وأبان كلّ باب عمّا سواء ووصف الكتاب بكونه مبيناً مجاز لأنّ المبين هو اللّه وسمّي القرآن بذلك توسّعاً من حيث إنّه حصل البيان عنده وهو إنّما سمّي قرآناً لأنّه جعل بعضه مقروناً ببعض ويصدّق بعضه بعضاً. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتتدبّرون وكلمة لعلّ للتمنّي والترجّي وهو لا يليق بمن كان عالماً بالعواقب فكان المراد منها هنا «كي» أي أنزلناه قرآناً عربيّاً لكي تعقلوا معناه وتحيطوا بفحواه.

قالت المعتزلة: وكلمة ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ تدلّ على حدوث القرآن لأنّ المجعول هو المصنوع المخلوق. فإن قيل: إنّ المراد من قوله: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: سمّيناه عربيّاً فهذا الكلام مدفوع لأنّه لو كان المراد بالجعل هذا لوجب أنّ من سمّاه عجمياً أن يصير عجمياً وإن كان بلغة العرب ومعلوم أنّ هذا باطل. ثمّ إن كان المراد من الجعل التسمية وصرف إلى هذا المعنى لزم كون التسمية مجعولة والتسمية أيضاً من كلام اللّه وذلك يوجب أنّ بعض كلامه مجعول وإذا صحّ ذلك في البعض صحّ في الكلّ على أنّه سمّي قرآناً لأنّ بعضه مقرون ببعض وما كان كذلك كان مصنوعاً معمولا وكونه عربيّاً أي اختصّت بمسمّياتها بوضع العرب واصطلاحاتهم وذلك أيضاً يدلّ على كونه مصنوعاً. وأيضا يستنبط دليل آخر على حدوث الكلام وهو أنّ القسم بغير اللّه لا يجوز كما روي عن النبي ﷺ إنّه كان يقول: «يا ربّ طه ويس ويا ربّ القرآن العظيم»[1]

١ـ تفسير الرازي، ج٢٧، ص١٩٣.

فحينئذ صار القرآن مربوبا مخلوقا فتمّ الدليل.

وأيضا قالت المعتزلة: إنّ حاصل معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ على ما فسّرتم وفسّرنا هو أنّا جعلناه قرآناً عربياً لكي تعقلوا وهذا يفيد أمرين: أحدهما: أنّ أفعال الله معلّلة بالأغراض والدواعي. والثاني: أنّه تعالى إنّما أنزل القرآن ليهتدي به الناس وذلك يدلّ على أنّه تعالى أراد من الكلّ الهداية والمعرفة خلاف قول من يقول: إنّه تعالى أراد من البعض الكفر والإعراض، والقائلين بالجبر هم الأشاعرة.

﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلسان العرب ومذاهبها في الحروف والمفهوم ومع ذلك لا يتمكّن أحد منهم من إنشاء مثله وما يقاربه من علوّ طبقته في الفصاحة والبلاغة إمّا لعدم علمهم بذلك أو لأنّهم صرفوا عنه قهراً على الخلاف بين العلماء كالمرتضى وأمثاله.

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: إنّ القرآن في اللوح المحفوظ وإنّما سمّي باللوح المحفوظ لأنّ سائر الكتب ينسخ منه أو أنّ أصل كلّ شيء امّه والقرآن مثبت في اللوح المحفوظ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[1] وهو الكتاب الّذي كتب الله ما يكون إلى يوم القيامة لما رأى في ذلك صلاح ملائكته بالنظر فيه وعلم فيه من لطف المكلّفين بالإخبار عنه.

﴿لَدَيْنَا﴾ أي: الّذي عندنا ﴿لَعَلِىٌّ﴾ أي: عال في البلاغة أو يعلو كلّ كتاب بما اختصّ به من كونه ناسخاً للكتب ويوجب العمل به وبإدامته وبما تضمّنه من الفوائد عظيم الشأن تعظمه الملائكة والمؤمنون ﴿حَكِيمٌ﴾ مظهر للحكمة فهو بمنزلة الحكم الّذي لا ينطق إلّا بالحقّ والصواب.

وقد وصف الله تعالى القرآن بهاتين الصفتين لأنّهما من صفات الحيّ،

١ـ سورة البروج: ٢١، ٢٢.

وفي المعاني عن الصادق عليه السلام: «هو أمير المؤمنين عليه السلام»[١] كما قيل في سورة الفاتحة في قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو أمير المؤمنين ومعرفته[٢] ثمّ خاطب سبحانه من لم يعتبر بالقرآن وجحد ما فيه من الحكمة فقال: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ والمراد بالذكر القرآن أي أفنترك عنكم الوحي (وذكر الانتقام) صفحاً وإعراضاً إذا كنتم متجاوزين عن الحدّ. و﴿إِن ﴾ قيل: بمعنى «إذ» مثل قوله: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٣] وتقدير الآية على كون إنّ بمعناها لا بمعنى «إذ»: إن كنتم مسرفين لا نضرب عنكم الذكر صفحا وعفوا وقرئ أن بفتح الألف على التعليل أي لأن كنتم مسرفين.

وحاصل معنى الآية أفنمسك عن إنزال الوحي والقرآن ونهملكم فلا نعرّفكم ما يجب عليكم من أجل سرفكم في كفركم والتعبير في الآية بالضرب لأنّ الدابّة إذا أرادوا أن يصرفوا وجهها عن طريق إلى طريق تضرب بالسوط فوضع الضرب موضع الصرف والعدل. وقيل: إنّ الذكر بمعنى العذاب فالمعنى أحسبتم أنّا لا نعذّبكم أبدا؟ قال صاحب الكشّاف: الفاء في قوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ ﴾ للعطف على محذوف تقديره: أنهملكم فنضرب عنكم الذكر.

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

ثمّ عزّى نبيّه بقوله: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ أي: في الأمم

١ــ انظر: تفسير مجمع البيان، ج٢٩، ص٦٨.

٢ــ نور الثقلين، ج ١، ص ٢١، و تفسير كنز الدقائق، ج ١، ص ٦٠.

٣ــ سورة البقرة: ٢٧٨.

الماضية ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. يعني: إنّ الأمم الخالية الّتي ذكرناها كفرت بالأنبياء وسخرت منهم لفرط جهالتهم وغباوتهم واستهزئت بهم كما استهزأ قومك بك فلم نضرب عنهم صفحاً بسبب استهزائهم بالرسل بل كرّرنا الحجج وأعدنا الرسل ﴿فَأَهْلَكْنَا﴾ من اولئكم الأمم بأنواع العذاب من كان أشدّ قوّة ومنعة من قومك فلا يغترّ هؤلاء بالقوّة والنجدة. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سلف في القرآن غير مرّة ذكر قصّتهم الّتي حقّها أن تسير مسير المثل وحاصل المعنى أنّ كفّار مكّة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم فليحذروا أن ينزّل بهم من الخزي مثل ما نزل بهم فقد ضربنا لهم مثلهم كما قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: إن سألت قومك يا محمّد ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأنشأهما واخترعهما ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: لم يكن جوابهم في ذلك إلّا أن يقولوا: خلقهنّ يعني السماوات والأرض القادر الّذي لا يقهر ولا يغلب العليم بمصالح الخلق وهو الله لأنّهم لا يمكنهم أن يحيلوا في ذلك على الأصنام والأوثان وهذا إخبار عن جهلهم إذ اعترفوا بأنّ الله خلقهنّ ثمّ عبدوا معه غيره وأنكروا قدرته على البعث.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وقرئ مهادا أي: مقرّاً ومسكناً ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ لتسلكوها ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي تهتدوا إلى مقاصدكم في أسفاركم. وقيل: معناه لتهتدوا إلى الحقّ في الدين باعتبار النظر والتدبّر فيها. وقال سبحانه: ﴿مَهْدًا﴾ لأجل كونها واقفة ساكنة يمكن الانتفاع بها في الزراعة وبناء الأبنية ولمّا كان المهد موضع الراحة للصبيّ وهي موضع الراحة للخلق عبّر بالمهد.

١ـ سورة الفرقان: ٣٩.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ
(١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢)
لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)
وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥)﴾

ثمّ أكّد سبحانه بقوله: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: غيثاً ومطراً بقدر الحاجة لا زائداً عليها فيفسد، ولا ناقصاً عنها فيضرّ وفي ذلك دلالة على أنّه واقع من حكيم قادر مختار قد قدّره على ما يقتضيه الحكمة لعلمه بذلك. ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ أي: فأحيينا ﴿بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَيْتًا﴾ والنشر الحياة. قال الأعشى:

لو أسندت ميتا إلى نحرها ... عاش ولم ينقل إلى قابر

حتّى يقول الناس ممّا رأوا ... يا عجبا للميّت الناشر

والمراد من البلد الميّت أي جافّة يابسة وإحياؤها بإخراج النبات والأشجار والثمار. ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي مثل ما أخرج النبات من الأرض اليابسة تخرجون من قبوركم يوم البعث.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ يعني: أزواج الحيوان من ذكر وأنثى. وقيل: معناه خلق الأشكال جميعها من الحيوان والجماد فمن الحيوان الذكر والأنثى ومن غير الحيوان ممّا هو كالمقابل مثل الحلو والمرّ والرطب واليابس والشتاء والصيف واللّيل والنهار والشمس والقمر والسماء والأرض والجنّة والنار.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: السفن والبقر والإبل. وقيل: المراد في هذه الآية من الأنعام خصوص الإبل أي ما تركبون في البرّ والبحر ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ هي الغرض في خلق ما ذكر: لأن تستووا

وتستقيموا بركوبكم على ظهوره فالضمير في ظهوره يعود إلى لفظ «ما» ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فتشكروا على تلك النعمة الّتي هي تسخير ذلك المركب وتعترفوا بنعمته منزّهين عن شبه المخلوقين ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ المركب وذلّله لنا حتّى ركبناه ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين ومقاومين في القوّة به وتقولوا ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي: ولتقولوا أيضاً ذلك ومعناه وإنّا إلى الله راجعون في آخر عمرنا على مركب آخر وهو الجنازة.

وكان رسول اللهﷺ إذا استوى على بعيره خارجا في سفر كبّر ثلاثاً وقال: «﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ **اللّهمّ إنّا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوى والعمل بما ترضى اللّهمّ هوّن علينا سفرنا واطوعنا بعده اللّهمّ أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والمال اللّهمّ إنّي أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال**» وكانﷺ إذا رجع قال: «**آئبون تائبون لربّنا حامدون**»، أورده مسلم في الصحيح[1].

وروى العيّاشيّ بإسناده عن الصادقعليه السلام قال: «**ذكر النعمة أن تقول: الحمد لله الّذي هدانا للإسلام وعلّمنا القرآن ومنّ علينا بمحمّدﷺ وتقول بعده: سبحان الّذي سخّر لنا هذا إلى آخره**»[2].

ثمّ رجع سبحانه إلى ذكر الكفّار الّذين تقدّم ذكرهم فقال: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ومعنى الجعل في الآية الحكم بأنّ بعض عباده وهم الملائكة له أولاد-قال ابن عبّاس: زعموا أنّ الملائكة بنات الله. وقيل: إنّ معناه وجعلوا لله من مال عباده نصيباً وهو كقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ

١ـ صحيح ابن خزيمه، ج ٤، ص ١٤١، و كتاب الدعاء، الطبراني، ص ٢٥٧.

٢ـ انظر: تفسير العياشي، ج ١، ص ٦٧.

مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾[1] فحذف المضاف وعلى المعنى الأوّل أثبتوا التركيب له سبحانه حيث جعلوا الله ذا أجزاء وأبعاض كما قالﷺ: «فاطمة بضعة مني».[2] والولد أصله ينفصل من الوالد فجزؤه وبعض منه ومتى كان الأمر كذلك فإنّه يقبل الاتّصال والانفصال والاجتماع والافتراق ولازم هذه الأمور الحدوث وتباين القديميّة والأزليّة. ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ أي: جاحد لنعم الله مظهر لكفره غير مستتر.

أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

ثمّ أنكر سبحانه عليهم قال: على سبيل التوبيخ بل ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ لنفسه سبحانه ﴿وَأَصْفَاكُم﴾ أي: أخلصكم بالبنين.

ثمّ زاد في الاحتجاج عليهم بأن قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي: بما جعل لله شبها وذلك أنّ ولد كلّ شيء شبهه وجنسه فالمعنى إنّه إذا اخبر أحدهم بولادة ابنة له ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ بما يلحقه من الغمّ والحزن ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوّ من الكرب والغيظ.

ثمّ وبّخهم بما افتروه فقال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ أي: أو جعلوا من ينشأ في زينة النساء يعني البنات ومن شأنه أن يربّى في الزينة وهو عاجز

١ـ سورة الأنعام: ١٣٦.

٢ـ كفاية الاثر، ص٦٥، و علل الشرايع، ج١، ص ١٨٦.

عن أن يتولّى لأمره بنفسه فجعلوا ينسبون شيئا هم يستنكفون منه إلى اللّه وحاصل المعنى أنّهم ينسبون البنات إلى اللّه والّذي يربّى في الحلية وهو ناقص الذات لأنّه لو لا نقص في ذاتها لما احتاجت تزيّن نفسها بالحلية.

ثمّ بيّن نقص حالها بطريق آخر وهو قوله: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني: إنّها إذا احتاجت المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبين وذلك لضعف لسانها وقلّة عقلها وبلادة طبعها، ويقال: قلّما تكلّمت امرأة فأرادت أن تكلّم بحجّتها إلّا تكلّمت بما كانت حجّة عليها فهذه الوجوه دالّة على نقصها فكيف يجوز إضافتهنّ بالولديّة إليه سبحانه؟ قال الرازيّ[1]: والآية تدلّ على أنّ التحلّي مباح للنساء وأنّه حرام للرجال لأنّه تعالى جعل ذلك من المعائب وموجبات النقصان وإقدام الرجل عليه يكون إلقاء لنفسه في الذلّ وذلك حرام لقوله ﷺ: «ليس للمؤمن أن يذلّ نفسه»، وإنّما زينة الرجل الصبر على طاعة اللّه والتزيّن بزينة التقوى وإنّما قال: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ ولم يقل: وهي، لأنّه حمله على لفظ ﴿مَنْ﴾.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ بأن زعموا أنّهم بنات اللّه ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ هذا أي أحضروا حتّى علموا أنّهم إناث، وهذا كقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾[2] والمراد أنّ هذا الأمر الّذي يزعمون ليس له طريق إلى ثبوته بالدلائل العقليّة وأما الدلالة النقليّة فكلّها متفرّعة على إثبات النبوّة وهم منكرون للنبوّة فلا سبيل إلى إثبات هذا المطلوب إلّا بالعيان فأنكر سبحانه عيانهم فثبت أنّ دعواهم غير محقّقة لا بضرورة ولا بدليل وقرئ «عند الرحمن».

١ـ تفسير الرازي، ج٢٧، ص٢٠٢.

٢ـ سورة الصافات: ١٥٠.

واستدلّ الّذي قال بتفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية على قراءة النون فقال: إنّ العنديّة لا شكّ أنّها عنديّة القرب والفضل ولفظة ﴿هُمْ﴾ يوجب الحصر فالمعنى أنّهم هم الموصوفون بهذه العنديّة لا غيرهم.

ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ بذلك ويسألون عنها يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ ثمّ حكى سبحانه نوعاً آخر من كفرهم وشبهاتهم وهو أنّهم نسبوا هذه العبادة إلى إرادة الله وإشائته والآية تدلّ على فساد قول المجبّرة في أنّ كفر الكافر يقع بإرادة الله فأبطل سبحانه وزيّف هذا الاعتقاد بقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: لا يعلمون صحّة ما يقولونه لأنّه دعوى من غير دليل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما هم إلّا كاذبون وكذّبهم الله لأنّهم أشركوا بالله بإضافة الولد إليه وفارقوا العدل ونسبوا الظلم إلى الله بإضافتهم الكفر إلى مشيّة الله، قاله أبو حامد.

أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

لمّا حكى سبحانه تخرّص من أضاف عبادة الأصنام والملائكة إلى مشيّة الله قال على سبيل الاستفهام الإنكاريّ وقرّر خطاءهم بقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ والتقدير، هذا الّذي ذكروه شيء تخرّصوه وافتعلوه أم آتيناهم كتاباً ﴿مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي بذلك الكتاب المؤتى عليهم فإذا لم

يمكنهم ادّعاء أنّ الله أنزل بذلك كتابا علم أنّ ذلك من تخرّصهم.

ثمّ أعلم سبحانه أنّهم اتّبعوا الضلالة. فقال: ليس الأمر كذلك ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ أي: على ملّة وطريقة، عن ابن عبّاس وجماعة وقيل: أي على جماعة أي: كانوا مجتمعين على هذه الطريقة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ نهتدي بهداهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي: مثل ما قال هؤلاء في الحوالة على تقليد آبائهم في الكفر ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ يا محمّد صلّى الله عليك ﴿فِى قَرْيَةٍ﴾. ومجمع من الناس ﴿مِّن نَّذِيرٍ ﴾ ومن زائدة ومؤكّدة ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ ﴾ هم المتمتّعون الّذين آثروا الترفه على طلب الحجّة يريد الرؤساء ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ فلا نخالفهم فأحال سبحانه حال جميعهم على التقليد للآباء فقط دون الحجّة والتقليد قبيح في العقول إذ لو كان جائزا لكان يلزم أن يكون الحقّ في الشيء وفي نقيضه فكلّ فريق يقلّد أسلافه مع أنّ كلا منهم يعتقد أن من سواه على خطأ وضلال وهذا باطل ولا بدّ من الرجوع إلى حجّة عقليّة أو سمعيّة.

ثمّ خاطب سبحانه للنذير ﴿قَٰلَ﴾ قل لهم ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ تتّبعون ما وجدتم عليه آباءكم ولا تقبلون ما جئتكم به أي أتقبلون ما جئتكم به أم لا تقبلون وتبقون على ضلالتكم وتقليدكم أيضاً وفي هذا البيان حسن التلطّف في الاستدعاء إلى الحقّ لأنّ ما جئتكم به من الحقّ إذا كان أهدى ممّا تزعمون أنّه الهداية كان أوجب أن يتّبع ويرجع إليه.

ثمّ اخبر سبحانه أنّهم أبوا أن يقبلوا ذلك و﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أيها الرسل ﴿كَٰفِرُونَ ﴾.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فلمّا تمّت الحجّة وما نفعت أهلكناهم وعجّلنا

عقوبتهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لأنبياء الله والجاحدين لهم فدلّت الآية على أنّ العاقبة المحمودة للمصدّقين بحججه ورسله والعاقبة المذمومة للمكذّبين بالرسل والآيات.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾

واذكر يا محمّد لهم وقت قول ﴿إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ والمراد من الأب العمّ والتعبير بالأب عن العمّ مرّ ذكره قبل قال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ أي: تبرأ عليه السلام منهم ومن مسلكهم و﴿بَرَاءٌ﴾ مصدر عبّر به مبالغة ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث أي إنّني بريء من عبادتكم أو معبودكم.

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وابتدأني وأظهرني من العدم إلى الوجود ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً أو متّصلاً لأنّهم كانوا يعبدون الله والأصنام أي أنا بريء من آلهة تعبدونها غير الّذي فطرني ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ أي سيثبتني على الهداية إلى طريق الجنّة بلطفه، وفيه بيان ثقته عليه السلام بالله تعالى والمعنى أنّه كان هداني قبل ذلك فسيهديني بعد ذلك والأقرب أنّ السين للتّأكيد دون التّسويف وصيغة المضارع للدّلالة على الاستمرار.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد الّتي عبّر بها كلمة باقية في ذرّيّته حيث وصّاهم بها كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ﴾ الآية فلا يزال فيهم من يوحّد الله إلى يوم القيامة وقيل: المراد بالكلمة الباقية الإمامة عن أبي عبد الله عليه السلام واختلف في عقبه من هم؟ فقيل: ذرّيّته وولده وقيل: هم آل محمّد صلى الله عليه وآله لأنّهم من نسله وذرّيّته. ﴿لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ﴾ ويتوبون ويرجعون عمّا هم عليه إلى الاقتداء بأبيهم إبراهيم في توحيد الله كما اقتدى الكفّار بآبائهم.

ثمّ ذكر سبحانه نعمه على قريش فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ المعنى: إضراب عن محذوف ينساق إليه الكلام كأنّه قيل جعلها كلمة باقية في عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعوته فلم يحصل ما رجاه بل متّعت قومك هؤلاء وآباءهم فامهلوا ومتّعوا حتّى جاءهم القرآن والآيات الدالّة على الصدق وبعثنا رسولا مبيناً يبيّن الحقّ وهو محمّد ﷺ ولمّا جاءهم الحقّ أي القرآن قابلوا هذه النعم بالتكذيب و﴿قَالُوا هَٰذَا﴾ القرآن ﴿سِحْرٌ﴾ وحيلة خفيّة وتمويه ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ جاحدون أنّه من قبل الله.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ
رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ
بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ
بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾
وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا
مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

المعنى: هذا نوع آخر من كفريّاتهم وهو أنّهم قالوا: إنّ رسالة الله منصب عظيم شريف فلا يليق إلّا برجل شريف وقد صدقوا في ذلك إلّا أنّهم ضمّوا إليه مقدّمة فاسدة وهي أنّ الرجل الشريف هو الّذي يكون كثير المال والجاه ومحمّد ليس كذلك فلا يليق رسالة الله به وإنّما يليق هذا المنصب

برجل عظيم الجاه كثير المال في إحدى القريتين وهي مكّة والطائف قال المفسّرون: والّذي بمكّة هو الوليد بن المغيرة والّذي بالطائف هو عروة ابن مسعود الثقفيّ. فأبطل الله شبهتهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ تعجيب من تحكّمهم والمراد من الرحمة النبوّة أي إنّه سبحانه يقسّم النبوّة وليس بأيديهم مفاتيح النبوّة فيضعونها حيث شاءوا. ثمّ قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ على حسب ما علمناه من المصلحة وليس لأحد أن يتحكّم في شيء من ذلك فكما فضّلنا بعضهم على بعض في الرزق فكذلك اصطفينا للرسالة من نشاء ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أفقرنا البعض وأغنينا البعض فتلقى ضعيف الحيلة عيّ اللسان وهو مبسوط له وتلقى شديد الحيلة بسيط اللّسان وهو مقتر عليه، يقال الشاعر:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه	كم جاهل جاهل تلقاه مرزوقا

وحاصل المعنى أنّ رزق الدنيا مع قلّة خطره لم يفوّض إليهم بل جعلناه على وفق ما توجبه الحكمة والمصلحة فكيف نفوّض اختيار النبوّة إليهم مع عظم محلّها وشرف قدرها؟ ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: إنّ الحكمة في اختلاف الرزق بين العباد زيادة على ما فيه من المصالح فيه تسخير من بعض العباد لبعض بإحواجهم إليه ليستخدم بعضهم بعضاً فينتفع أحدهم بعمل الآخر له فينتظم قوام أمر العالم وقد جعلنا هذا التفاوت بين العباد في القوّة والضعف والعلم والجهل والحذاقة والبلاهة والشهرة والخمول وإنّما فعلنا ذلك لأنّا لو سوّينا بينهم في كلّ هذه الأحوال لم يخدم أحد أحدا ولم يصر أحد منهم مسخّراً لغيره وحينئذ يقضي ذلك إلى خراب العالم ثمّ إنّ أحدا من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على خروج من قضائنا فإن عجزوا عن الاعتراض على حكمنا في أحوال الدنيا مع قلّتها ودناءتها فكيف

يمكنهم الاعتراض على حكمنا وقضائنا في أمر النبوّة ومنصب الرسالة؟ وما ظنّهم بأنفسهم في تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط العيّوق وأعزّ من بيض الأنوق فمن أين لهم البحث عن التعيين في شخص الرسول؟ ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي النبوّة وما يتبعها من سعادة الدارين خير ممّا يجمعون من حطام الدنيا الدنيّة الفانية فهذه الرحمة الخاصّة وهي النبوّة خير من الأموال الّتي يجمعونها لأنّ الدنيا فانية ورحمته باقية أبد الآباد.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ولو لا أن يجتمع الناس على الكفر فيكونوا كلّهم كفّارا على دين واحد لميلهم إلى الدنيا وحرصهم عليها ولو لا أن يجتمع الناس على اختيار الدنيا على الدين ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي كنّا جعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن سقفاً من فضّة، السقف جمع السقيفة مثل السفن جمع السفينة. وقيل: اللام الثانية بمعنى «على» فحينئذ المعنى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن على بيوتهم سقفا من فضّة ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: وجعلنا سلاليم ودرجاً من فضّة عليها يعلون ويصعدون. ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ من فضّة على تلك السرر يتّكئون ﴿وَزُخْرُفًا﴾ قال ابن عبّاس وجماعة: الزخرف الذهب وهو عطف على محلّ من فضّة. وقيل: الزخرف النقوش وقيل: الفرش ومتاع البيت وتكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير والتأكيد. وبالجملة لو لا وقوع كثرة الكفر لكنّا نعطي الكافر غاية ما يتمنّاه في الدنيا لقلّتها وحقارتها لكنّه لم يفعل سبحانه لما فيه من المفسدة. ثمّ أخبر أنّ جميع ذلك إنّما يتمتّع به في الدنيا فقال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وما كلّ ما ذكر من البيوت المفصّلة والزخارف إلّا شيء يتمتّع به في الدنيا ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي: الجنّة الباقية ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ خاصّة لهم.

قال بعض أهل التحقق: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها إلى الكفر وما فعل سبحانه ذلك فكيف لو فعله؟

وفي الآية دلالة على اللطف وإنّه تعالى لا يفعل المفسدة وما يدعو إلى الكفر وإذا لم يفعل ما يؤدّي إلى الكفر فلأن لا يفعل الكفر ولا يريده أولى تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا فثبت بطلان مذهب الجبر.

وعلى قراءة من خفّف «لما» قال الواحديّ: ما زائدة والتقدير لمتاع الحياة الدنيا وصحّح قراءة التخفيف الكسائي[1].

فإن قيل: إنّ الله لم يفعل بالكافرين الفعل المذكور وبيّن السبب أنّ المانع لذلك اجتماع الناس على الكفر فلم لم يفعل ذلك بالمسلمين حتّى يصير ذلك سببا لاجتماع الناس على الإسلام؟

فالجواب أنّ الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الإسلام لطلب الدنيا وهذا الإيمان لا ينفع وهو إيمان المنافقين.

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ
لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ
يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ
ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ
تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾

لمّا تقدّم ذكر الوعد للمتّقين بيّن الوعيد لمن هو على ضدّ صفتهم فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: يعرض عنه ويعم، شبّههم بالأعشى لمّا لم يبصروا الحقّ والقرآن والذكر القرآن أو الآيات والأدلّة ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ

١ـ لأنه أنكر مجيء لما بمعنى اللافحكم بأن قراءة التخفيف صحيح لا غير.

شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ أي: نخلّ بينه وبين الشيطان الّذي يغويه ويدعوه إلى الضلالة فيصير قرينه عوضا عن ذكر الله وهو الخذلان عقوبة له عن الإعراض. وقيل: معناه نقرن به شيطانا في الآخرة يلازمه فيذهب به إلى النار كما أنّ المؤمن يقرن به ملك فلا يفارقه حتّى يصير به إلى الجنّة. وقيل: أراد به شياطين الإنس نحو علماء السوء ورؤساء الضلالة يصدّونهم عن سبيل الله فيتّبعونهم.

﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ يعني: وإنّ الشياطين، وإنّما جمع لأنّ الكلام في معرض الجمع (لأنّ المغوين كثيرون) وإن كان اللفظ على الواحد ﴿لَيَصُدُّونَهُمۡ﴾ أي: يصرفون هؤلاء الكفّار ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن طريق الهداية والجنّة ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ ويحسب الكفّار أنّهم على الهدى فيطيعونهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ وقرئ «جاآنا» على التثنية فالمعنى: الشيطان المغوي والمغتوي الضالّ، ومن قرأ على التوحيد فالمعنى: حتّى إذا جاءنا الكافرون يوم القيامة الّذي يتولّى سبحانه حساب الخلق فيه قال الكافر حينئذ لقرينه الّذي أغواه: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ يعني: بعد ما بين المشرق والمغرب فغلب أحدهما على الآخر، كما قال الشاعر الفرزدق:

أخذنا بآفاق السماء عليكم ... لنا قمراها والنجوم الطوالع

يعني: الشمس والقمر، وقيل: يعني: محمّدا وإبراهيم، وقيل: أراد بالمشرقين مشرق الشتاء ومشرق الصيف أي هذا البعد مسافة حتّى لم أرك ولا اغتررت بك.

روي أنّ الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطانه بيده فلم يفارقه حتّى يصيّر هما الله إلى النار.

قال الرازيّ في وجوه تفسير المشرقين: إنّ الحسّ يدلّ على أنّ الحركة اليوميّة إنّما تحصل بطلوع الشمس من المشرق إلى المغرب وأمّا القمر فإنّه يظهر في أوّل الشهر في جانب المغرب من الشمس ثمّ لا يزال يتقدّم إلى

جانب المشرق وذلك يدلّ على أنّ مشرق حركة القمر هو المغرب فالجانب المسمّى بالمشرق هو مشرق الشمس ولكنّه مغرب القمر والجانب المسمّى بالمغرب هو مشرق القمر ومغرب الشمس وبهذا التقدير يصحّ تسمية المشرق والمغرب بالمشرقين وهذا مبالغة كاملة في بعد المسافة. ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أنت اليوم لي، لأنّهما يكونان مشدودين في سلسلة واحدة زيادة عقوبة وغمّ.

ثمّ يقول الله في ذلك اليوم ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي لا يخفّف الاشتراك عنكم شيئا من العذاب وذلك لأنّ الإنسان قد يتسلّى عن العذاب والمحنة إذا رأى أنّ عدوّه في مثلها أو أنّ المصيبة إذا عمّت طابت وسهلت أي ليس الأمر كذلك وبيّن سبحانه أنّ حصول الاشتراك بينهما لا يفيد التخفيف مثل أحوال أهل الدنيا وذلك لشدّة العذاب فاشتغال كلّ واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر حتّى يفرح بعذاب عدوّه فيكون التسلية له أو لأنّ القوم إذا اشتركوا في العذاب أعان كلّ واحد منهم صاحبه.

ثمّ خاطب سبحانه نبيّه ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ شبّه الكفّار في عدم انتفاعهم بما يسمعونه ويرونه بالصمّ والعمى ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر أي فلا يضيقنّ صدرك فإنّك لا تقدر على إكراههم على الإيمان وكانﷺ يجتهد في دعوة قومه وهم لا يزيدون إلّا تصميماً على الكفر، تأمّل في دقائق القرآن فإنّه سبحانه وصفهم في أوّل الأمر إلى العشى ثمّ لمّا تمادى كفرهم انتقلوا من العشى إلى العمى ولمّا بلغوا في النفرة عن استماع القرآن نسبهم إلى الصمم، وإنّما أضاف هذه الأوصاف إليهم بسبب كونهم في الضلالة. ثمّ سلّى نبيّه بعد أن ظهر منهم عدم الأثر في قبول الدعوة فقال:

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن
قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

المعنى: يسلّي سبحانه نبيّه بأنّه إن قبضناك وتوفّيناك ومتّ قبل أن نبصرك عذابهم ونشفّي بذلك صدرك ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ لا محالة له في الآخرة وما في قوله: ﴿فَإِمَّا﴾ زائدة مؤكّدة بمنزلة لام القسم في أنّها لا تفارق النون المؤكّدة مثل والله لأفعلنّ.

﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ أي: أو أردنا أن نريك العذاب الّذي أوعدناهم ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ بحيث لا مناص لهم من قهرنا ولقد أراه سبحانه يوم بدر قال الحسن وقتادة: إنّ الله ألزم نبيّه بأن لم يره تلك النقمة ولم يره في أمته إلّا ما قرّت به عينه وقد كان بعده نقمة شديدة وقد روي أنّه أري ما تلقى أمته بعده فما زال منقبضاً ولم ينبسط ضاحكاً حتّى لقي الله.

وروى جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال: إنّي لأدناهم من رسول الله ﷺ في حجّة الوداع حتّى قال ﷺ: «لا ألفينكم ترجعون بعدي كفّارا يضرب بعضكم». رقاب بعض وأيم الله لئن فعلتموها لتعرفنّي في الكتيبة الّتي تضاربكم ثمّ التفت ﷺ إلى خلفه فقال: «أو عليّ أو عليّ ثلاث مرّات» فرأينا أنّ جبرئيل غمزه فأنزل الله على أثر ذلك: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بعليّ بن أبي طالب[1].

قال الفيض ﷺ: إنّما يكون ذلك في الرجعة[2] والقميّ عن الصادق عليه السلام قال: «فإمّا نذهبنّ بك يا محمّد من مكّة إلى المدينة فإنّا رادّوك إليها ومنتقمون منهم بعليّ بن أبي طالب»[3].

١ـ تفسير الصافي، ج٤، ص٣٩٣، و تفسير الصافي، ج٦، ص٣٩٧، و شرح إحقاق الحق، ج٣، ص٤٤٦.
٢ـ تفسير الأصفي، ج٤، ص٣٩٣، و التفسير القمي، ج٢، ص٢٨٤.
٣ـ التفسير القمي، ج٢، ص٢٨٤، و تفسير الأصفي، ج٤، ص٣٩٣.

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ القميّ عن الباقر عليه السلام: **«إنّك على ولاية عليّ وعليّ هو الصراط المستقيم»**[1]. وقيل: فاستمسك بالقرآن بأن تتلوه حقّ تلاوته وتتبّع أوامره ونواهيه، إنّك على صراط مستقيم. على دين الحقّ والصواب وهو دين الإسلام وهذا المعنى يؤول إلى ما رواه القميّ معنى لأنّهما لا يفترقان حتّى يردا عليّ الحوض.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي وإنّ القرآن الّذي أوحي إليك لشرف لك ولقومك لقريش أو العرب لأنّه نزل بلغتهم ثمّ يختصّ بذلك الأخصّ فالأخصّ من العرب حتّى يكون الشرف لقريش أكثر من غيرهم ثمّ لبني هاشم أكثر ممّا يكون لقريش ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عن شكر ما جعله اللّه لكم من الشرف وقيل: تسألون عن القرآن وعمّا يلزمكم من القيام بحقّه.

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي: اسأل مؤمني أهل الكتاب الّذين أرسلنا إليهم الرسل هل جاءتهم الرسل إلّا بالتوحيد والتقدير سل امم من أرسلنا فحذف المضاف، وقيل: إنّ المراد سل أهل الكتابين التوراة والإنجيل وإن كانوا كفّارا فإنّ الحجّة تقوم بتواتر أخبارهم والخطاب وإن توجّه إلى النبيّ فالمراد به الامّة. ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي هل جعلنا فيما مضى معبوداً سوى اللّه يعبده قوم فإنّهم يقولون إنّا لم نأمرهم بذلك. وقيل: معنى الآية سل الأنبياء وهم الّذين جمعوا له ليلة الأسرى في بيت المقدس وكانوا تسعين نبيّا أو أكثر منهم موسى وعيسى ولم يسألهم لأنّه صلى الله عليه وآله كان أعلم بشرائع اللّه منهم.

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام: **«نحن قومه ونحن المسئولون»**. وعن الصادق عليه السلام: **«إيّانا عنى ونحن أهل الذكر ونحن المسئولون»**. وعنه عليه السلام: **«الذكر القرآن**

١ـ مناقب آل أبي طالب، ج٢، ص٢٧٢، و الكافي، ج١، ص٤١٧.

ونحن قومه ونحن المسئولون»[1]. وفي «البصائر» عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: **«رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته أهل الذكر وهم المسئولون»**[2].

وفي «الكافي» والقميّ عن الباقر عليه السلام إنّه سئل عن هذه الآية وهي ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ من ذا الّذي سأل محمّد صلى الله عليه وآله وكان بينه وبين عيسى خمسمائة سنة فتلا هذه الآية ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ قال: «فكان من الآيات الّتي أراها الله محمّداً صلى الله عليه وآله حين أسري به إلى البيت المقدّس أن حشر الله له من الأوّلين والآخرين من النبيّين والمرسلين ثمّ أمر جبرئيل فأذّن شفعاً ثمّ أقام شفعاً ثمّ قال في إقامته حيّ على خير العمل ثمّ تقدّم محمّد صلى الله عليه وآله فصلّى بالقوم فأنزل الله ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا....﴾ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله على ما تشهدون وما تعبدون؟ فقالوا: نشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأنّك رسول الله أخذت على ذلك مواثيقنا وعهودنا»[3].

وفي «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث وأمّا قوله: «﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ الآية **فهذا من براهين نبيّنا الّذي آتاه الله وأراه من الآيات وأوجب به الحجّة على سائر خلقه لأنّه لمّا جعله الله رسولا إلى جميع الخلق خصّه بالارتقاء إلى السماء عند المعراج وجمع له يومئذ الأنبياء فعلم منهم ما أرسلوا به وحملوا من عزائم الله وآياته فأقرّوا أجمعين بفضله وفضل أوصيائه في الأرض من بعده وفضل شيعة وصيّه من الخلق من المؤمنين والمؤمنات الّذين لم يستكبروا عن أمرهم وعرف من أطاعهم وعصاهم من أممهم وسائر من مضى ومن غبر أو تقدّم أو تأخّر»**[4].

١ـ الكافي، ج ١، ص ٢١٠، و شرح أصول كافي، ج ٥، ص ٢٧٠.

٢ـ بصائر الدرجات، ص ٥٧.

٣ـ الكافي، ج ٨، ص ١٢١، و تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٨٥، و تفسير القمي، ج ١، ص ٢٣٣.

٤ـ تفسير الصافي، ج ٤، ص ٣٩٤، و الاحتجاج، ج ١، ص ٣٧٠.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ
آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾
وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾
فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ
قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾
فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ
﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾

المقصود من إعادة قصّة موسى وفرعون في هذا المقام أنّ كفّار قريش لمّا طعنوا في نبوّة محمّدﷺ بسبب كونه فقيراً عديم المال والجاه بيّن الله أنّ موسى بعد أن أورد المعجزات القاهرات الباهرات الّتي لا يشكّ فيها عاقل أورد فرعون عليه هذه الشبهة الّتي ذكرها كفّار قريش فقال: إنّي غنيّ كثير المال وأمّا موسى فإنّه فقير مهين وهذه الشبهة مثل شبهة قريش وكفّار مكّة حيث قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(1).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحججنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وأشراف قومه وخصّ الملأ بالذكر وإن كان أيضاً مرسلاً إلى غيرهم لأنّ من عداهم تبع لهم ﴿فَقَالَ﴾ موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلني إليكم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: فلمّا أظهر المعجزات الّتي هي اليد البيضاء والعصاء ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي فاجأوا وقت ضحكهم من الآيات

١ـ سورة الزخرف: ٣١.

واستهزءوا بها أول ما رأوها ولم يتأمّلوا فيها استخفافاً وجهلا منهم.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ والمراد بذلك: ما ترادف عليهم من الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم والطمس وكانت كلّ آية من هذه الآيات أكبر من الّتي قبلها ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ وهي العذاب المذكور ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يتوبوا ويرجعوا عمّا هم عليه لأنّهم عذّبوا بهذه الآيات فكانت الآيات عذاباً لهم ومعجزات لموسىعليه السلام.

فغلب عليهم الشقاء ولم يؤمنوا ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ يعنون: بذلك يا أيّها العالم وكان الساحر عندهم عظيماً يعظّمونه ولم تكن عندهم صفة ذمّ وقيل: إنّما قالوا: يا أيّها الساحر استهزاء بموسى وأرادوا أيّها الّذي غلبنا بسحره ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما زعمت أنّه عهد عندك وهو أنّه ضمن لنا أنّا إذا آمنّا بك أن يكشف العذاب عنّا ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: راجعون إلى الحقّ الّذي تدعونا إليه متى كشف العذاب عنّا وفي الكلام حذف والتقدير فدعا موسى وسأل ربّه أن يكشف العذاب عنهم فكشف الله عنهم ذلك ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ وينقضون العهد.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ ولمّا رأى فرعون أمر موسى يزيد على الأيّام ظهورا واعتلاء خاف على ملكه وأظهر الخداع فخطب الناس بعد ما اجتمعوا وقال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فأظهر اللّعين بسطته في الملك والمال وهذه الأنهار والمراد الأنهار الّتي فصلوها من النيل ومعظمها كانت أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس كانت الأنهار تجري تحت قصره.

فلمّا احتجّ بقوّة جاهه قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ والغرض بأنّ موسى فقير ضعيف الحال ومهين ولا يعتنى به لضعف حاله

وعنى بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حبسة ورتّة كانت في لسانه عليه السلام ولا يكاد يفصح بكلامه وقيل: كانت الرتّة والعقدة لكن زالت عن لسانه حين أرسله اللّه كما قال: مخبراً عن نفسه ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾[1] ثمّ قال اللّه تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ﴾[2] وإنّما عيّره اللّعين بما كان في لسانه قبل ذلك والمهين الفقير الّذي يمتهن نفسه في جميع ما يحتاج إليه ليس له من يكفيه أمره وقيل. كان في لسانه لثغة فرفعه اللّه وبقي فيه ثقل.

﴿أَمۡ أَنَا۠﴾ اختلفوا في معنى ﴿أَمۡ﴾ قال أبو عبيدة منقطعة معناها بل أنا خير وعلى هذا فقد تمّ الكلام عند قوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ ثمّ ابتدأ فقال: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ بمعنى: بل أنا خير وقال الأكثرون: أم هذه متّصلة وأنّ المعنى أفلا تبصرون أم تبصرون. إلّا أنّه وضع قوله: أنا خير موضع تبصرون وقالوا في الآية: إنّ تمام الكلام عند قوله: ﴿أَمۡ﴾ وقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ ابتداء كلام والتقدير أفلا تبصرون أم تبصرون لكنّه اكتفى فيه بذكر أم كما تقول لغيرك أتاكل أم أي أتاكل أم لا تاكل. تقتصر على ذكر أم إيثاراً للاختصار فكذا ههنا.

﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي هلّا طرح عليه أسورة من ذهب إن كان صادقا في نبوّته وهلّا القي إليه مقاليد الملك لما أنّهم كانوا إذا سوّدوا رجلا سوّروه بسوار من ذهب. قال أمير المؤمنين عليه السلام: ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصا فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه فقال: ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام الملك وهما بما ترون فهلّا القي عليها أسورة وطوقا بطوق من ذهب[3].

١ـ سورة طه: ٢٧.

٢ـ سورة طه: ٣٦.

٣ـ نهج البلاغه، ص١٤٤، الخطبة القاصعة، و بحار الانوار، ج١٣، ص١٤١.

وأسورة جمع سوار وقرئ أساورة جمع أسوار بمعنى السوار على تعويض التاء من ياء أساوير، وقرئ ألقى على البناء للفاعل وهو الله.

وحاصل المعنى أنّ فرعون كان يقول: أنا أكثر منه مالاً وجاهاً فوجب أن أكون أفضل منه فيمتنع أن يكون رسولا لأنّ منصب النبوّة يقتضي المخدوميّة والأخسّ لا يكون مخدوماً للأشرف وهي عين المقدّمة الّتي تمسّك بها كفّار قريش في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.[1]

ثمّ قال: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ متتابعين يعينونه على أمره الّذي بعث له ويشهدون له بصدقه متناصرين متعاضدين قال الزجّاج معناه: يمشون معه ويدلّون ويشهدون بصحّة نبوّته. ثمّ قال: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي إنّ فرعون استخفّ عقول قومه فأطاعوه فيما دعاهم إليه لأنّه احتجّ عليهم بما ليس بدليل وهو ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ إلى آخره، لأنّ الدليل الّذي يدلّ على النبوّة وصدق الرسل هو المعجز ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله حيث أطاعوا ذلك الجاهل الفاسق.

فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن انتقامه من فرعون وقومه فقال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا عن ابن عبّاس وجماعة وغضب الله على العصاة إرادة عقوبتهم،

١ـ سورة الزخرف: ٣١.

ورضاه عن المطيعين إرادة ثوابهم الّذي يستحقّونه وقيل: آسفوا رسلنا لأنّ الأسف لا يجوز على الله ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: انتقمنا لأوليائنا منهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ما نجا منهم أحد.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ أي متقدّمين إلى النار والسلف كلّ شيء قدّمته من عمل أو قرض أو المتقدّم على غيره قبل مجيء وقته ومنه السلف في البيع والسلف نقيض الخلف ﴿وَمَثَلًا﴾ أي جعلناهم مثلا يتمثّلون بهم وعبرة وموعظة ﴿لِلْآخِرِينَ﴾ أي لمن جاء بعدهم والمعنى أنّ حال غيرهمْ يشبه حالهم إذا أقاموا على العصيان.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ قال أبو عليّ الفارسيّ: المثل واحد يراد به الجمع ويطلق على أكثر من واحد لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ﴾(١) فأريد بالمثل مثلين.

وبالجملة اختلف في وجوه معنى الآية:

الاول: أنّه لمّا ضرب الله المسيح مثلا بآدم في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾(٢) أي كما أنّه تعالى أنشأ آدم من تراب وجعله إنساناً من غير أب وامّ كذلك أنشأ المسيح من غير أب فهو مخلوق مربوب مثل آدم ولا ينبغي أن يعبد. وبعد أن نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾(٣) جادل ابن الزبعرى رسول الله ﷺ في هذه الآية وقال: أهذا لنا ولآلهتنا أو لجميع الأمم فقال ﷺ: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم». فقال: خصمتك وربّ الكعبة أليس النصارى يعبدون

١ـ سورة النحل: ٧٥.

٢ـ سورة آل عمران: ٥٩.

٣ـ سورة الأنبياء: ٩٨.

المسيح واليهود عزير وبنو مليح الملائكة فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرح المشركون وضحكوا وارتفعت أصواتهم[1] وذلك معنى قوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي: قومك قريش من هذا المثل يرتفع لهم ضجيج وجلبة جدلاً وضحكاً بسبب ما رأوا من سكوت رسول الله.

وقرئ بضمّ الصاد وهو قراءة عليّ عليه السلام[2] وبكسر الصاد وهو قراءة الباقين أمّا الضمّ فمن الصدود أي من أجل هذا المثل يصدّون عن الحقّ ويعرضون عنه وأمّا بالكسر فمن الضجيج والصياح.

﴿وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون أنّ آلهتنا عندك ليست خيرا من عيسى فإذا كان عيسى من حصب جهنّم كان أمر آلهتنا أهون وسكوته صلى الله عليه وآله ليس من باب الإفحام وغلبتهم في الحجّة ولكن كان ينتظر الحجّة من الوحي وقد روي أنّه لمّا قال ابن الزبعرى: خصمتك وربّ الكعبة، قال صلى الله عليه وآله: «ما أجهلك بلغة قومك؟ أما فهمت أنّ «ما» لما لا يعقل»[3].

ثمّ بعد هذه المجادلة أنزل الله قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[4] ونزلت هذه الآية.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي: ما بيّنوا هذا العنوان والمثل لك إلّا ليخاصموك ويدفعوك به عن الحقّ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: جدلون في دفع الحقّ بالباطل.

الوجه الثاني: في بيان الآية أنّ الكفّار لمّا سمعوا أنّ النصارى يعبدون عيسى قالوا: إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى وإنّما قالوا ذلك لأنّهم كانوا يعبدون الملائكة.

١ـ تفسير أبي السعود، ج٨، ص٥١، و انظر: تفسير الآلوسي، ج٢٥، ص٩٢.

٢ـ تفسير الرازي، ج٢٧، ص٢٢١، و الكشاف عن الحقايق، ج٣، شرح ص٤٩٣.

٣ـ تفسير الآلوسي، ج٢٥، ص٩٤.

٤ـ سورة الأنبياء: ١٠١.

الوجه الثالث: في تفسير الآية وهو أنّ النبيﷺ لمّا حكى أنّ النصارى عبدوا المسيح إلها لأنفسهم قال كفّار مكّة: إنّ محمّداﷺ يريد أن يجعل لنا إلها كما جعل النصارى عيسى إلها لأنفسهم ثمّ عند هذا قالوا: أآلهتنا خير أم هو يعني آلهتنا خير أم محمّد وإنّما ذكروا ذلك لأجل أنّهم قالوا: إنّ محمّدا يدعونا إلى عبادة نفسه وآباؤنا زعموا أنّ عبادة الأصنام واجبة فعبادة هذه الأصنام متطابقة لقول آبائنا فقبول هذه العبادة من الأصنام أولى من قبول قول محمّد.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ الاشتغال بعبادة المسيح باطل مثل عبادة الأصنام فإنّ عيسى﵇ عبد أنعمنا عليه فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: وما عيسى إلّا كعبد من العبيد فصار من أمره أنّه ممّن أنعمنا عليه بالنبوّة وخصّصناه ببعض الخواصّ البديعة بأن خلقناه بوجه بديع وقد خلقنا آدم بوجه أبدع منه فأين هو من رتبة الربوبيّة ومن أين يتوهّم صحّة مذهب عبدته حتّى تفتخر عبدة الملائكة بكونهم أهدى منهم.

وفي خلقة عيسى آية لهم ودلالة يعرفون بها قدرة الله فقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: جعلنا عيسى آية لهم حتّى يرون من أعاجيب صنع الله.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أي: لو أردنا لجعلنا بدلا منكم معاشر بني آدم ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ بني آدم أي كنّا نجعل الملائكة بدلا من بني آدم في الأرض أي نهلككم يا بني آدم وجعلنا الملائكة سكّان الأرض يعمرونها ويعبدون الله ومثل قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ ما في قول الشاعر:

فليت لنا من ماء زمـزم شـربة مبـرّدة باتـت علـى الطهيـان

وقيل: معنى الآية ولو نشاء لجعلناكم أيّها البشر ملائكة إشارة إلى قدرته تعالى على تغيير بنية البشر إلى بنية الملائكة، يخلفون أي بعضهم بعضاً.

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا

يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ
جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ
ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾

يعني: أنّ نزول عيسى من السماء لعلم وتصديق وموجب ليقين وقوع الساعة، وتسميته علما لحصول العلم به أو بحدوثه بغير أب أو بإحيائه الموتى وآثاره الّتي صدرت منه عليه السلام يستدلّ على صحّة البعث الّذي ينكره الكفّار وقرئ «لعلم» أي علامة وفي الحديث إنّ عيسى ينزل على ثنيّة في الأرض المقدّسة يقال لها أفيق وبيده حربة وبها يقتل الدجّال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤمّ بهم فيتأخّر الإمام فيقدّمه عيسى ويصلّي خلفه على شريعة محمّد صلى الله عليه وآله ثمّ يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلّا من آمن بشريعة أحمد والقرآن. وقيل: إنّ الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعود إلى القرآن ومعناه أنّ القرآن لدلالة على قيام الساعة والبعث لأنّه آخر الكتب أنزل على آخر الأنبياء ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾ أي: لا تشكّوا في وقوعها ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ هداي أو شريعتي أو رسولي ﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن وما أدعوكم به ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الّذي أنا عليه طريق واضح قيّم.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ولا يصرفنّكم بوساوسه عن دين الله ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بيّن العداوة يدعوكم إلى ما فيه هلاككم.

ثمّ أخبر سبحانه عن حال عيسى حين بعثه الله رسولا فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والمعجزات الدالّة على نبوّته أو المراد منها الإنجيل ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنبوّة والعدل والتوحيد والشرائع ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ

﴿الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: قد جئتكم لابيّن مختلفاتكم. والمراد من البعض في الآية الكلّ، كقول لبيد: (أو يخترم بعض النفوس حمامها) أي: كلّ النفوس وذلك إنّ قوم موسى كانوا قد اختلفوا في أشياء من أحكام التكاليف واتّفقوا على أشياء فجاء عيسى ليبيّن لهم الحقّ في الخلافيّات وبالجملة فالحكمة معناها اصول الدين وبعض الّذي يختلفون فيه فروع الدّين. فإن قيل: لم يقل ولم بيّن لهم كلّ الّذي يختلفون فيه؟ فالجواب أنّ الناس قد يختلفون في أشياء لا حاجة لهم إلى معرفتها فلا يجب على الرسول بيانها قال الزجّاج: والصحيح أنّ البعض لا يكون في معنى الكلّ والّذي جاء به عيسى في الإنجيل إنّما هو بعض الّذي اختلفوا فيه وبيّن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه وقول لبيد إنّما عنى نفسه أو المراد من البعض مختلفات امور الدين دون امور الدنيا.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بأن تجتنبوا معاصيه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في ما أدعوكم إليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ الّذي يحقّ له العبادة ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ خالصا ولا تشركوا به معبوداً ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يفضي بكم إلى الجنّة وثواب اللّه.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي: الفرق المتحزّبة بعد عيسى عليه السلام وهم الملكانيّة واليعقوبيّة والنسطوريّة بعد عيسى وقيل: اليهود والنصارى اختلفوا في أمر عيسى والضمير في ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ يرجع إلى الّذين خاطبهم عيسى في قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ المبعوث عليهم. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ مرّ تفسيره هو يوم القيامة ويجوز أن يكون وعيدا بيوم الأحزاب.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ

بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾

ثمّ وبّخ سبحانه الكفّار بقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي هل ينتظرون هؤلاء الكفّار بعد ورود الرسل والقرآن ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فجاءة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يدرون وقت مجيئها.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي إنّ الّذين تواصلوا وتحابّوا في الدنيا يكون بعضهم أعداء بعض ذلك يوم القيامة وهم الّذين تخالّوا في الكفر والمعصية واتّحدوا في مخالفة الرسول لما يرى كلّ منهم من العذاب بسبب تلك المصادقة.

ثمّ استثنى من جملة الأخلّاء المتّقين فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الموحّدين الّذين خالّ بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى فإنّ تلك الخلّة تتأكّد بينهم ولا تنقلب عداوة ومن المعلوم أنّ المحبّة أمر لا يحصل إلّا عند حصول خير أو دفع شرّ وضرر فمتى حصل هذا الأمر حصلت المحبّة لا محالة ومتى حصل اعتقاد أنّه يوجب ضررا حصل البغض والنفرة إذا عرفت هذا فذلك الخير الّذي كان اعتقاد حصوله له يوجب حصول المحبّة إمّا أن يكون قابلا للتغيّر والتبدّل أو لا يكون كذلك فإن كان القسم الأوّل وجب أن تبدّل تلك المحبّة إلى النفرة لأنّ تبدّل العلّة يوجب تبدّل المعلول لأنّ حصول المودّة بسبب الخير والراحة فإذا زال ذلك الاعتقاد وتحقّق عقيبه الضرر والألم وجب أن تتبدّل المحبّة بالبغضة أمّا إذا كان الخير الموجب للمحبّة أبديّاً باقياً غير قابل للتغيّر كانت المحبّة باقية كمحبّة المؤمنين بعضهم بعضاً وليست لغرض فان

بل هي نافعة وثابتة ولا توجب البغضة لأنّ خيرها ونفعها باق فحينئذ الأخلّاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلّا المتّقين.

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ومن أحكام يوم القيامة قوله: ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ الآية، وقد جرى عادة القرآن بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين كأنّ الله يخاطبهم ويقول لهم: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا حزن. وفي هذا الخطاب أنواع كثيرة ممّا يوجب الفرح:

أولها: أنّه تعالى خاطبهم وميّزهم عن غيرهم من غير واسطة

والثاني: أنّه وصفهم بالعبوديّة وهذا تشريف عظيم لأنّه لمّا أراد سبحانه أن يشرف محمّداً ﷺ ليلة المعراج قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾.

والثالث: نفي الخوف والحزن عنهم بقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾. ثمّ قال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ أي: أعني الّذين صدّقوا بحججنا ودلائلنا واتّبعوها وقوله: ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ حكاية لما ينادى به المتّقون المتحابّون في الله، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ منصوب المحلّ صفة لعبادي لأنّه منادى مضاف، أي العباد الموصوفين بالتصديق بآياتنا وجاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا وقبول حججنا وقيل: إذا بعث الله الناس فزع كلّ واحد فينادي مناد يا عباد فيرجوها الناس كلّهم ثمّ يتبعها بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فييأس الناس غير المسلمين المتّقين وينكس أهل الأديان الباطلة رءوسهم.

ويمرّ حساب المتّقين على أسهل الوجوه ويحاسب حساباً يسيراً ثمّ يقال لهم: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ أي: أزواجكم اللّاتي كنّ مؤمنات مثلكم وقيل: المراد من الأزواج أزواج الجنّة من الحور العين ﴿تُحْبَرُونَ ﴾ أي تسرّون وتكرمون والحبرة المبالغة في الإكرام بحيث يظهر

حباره وأثره على وجوههم كقوله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾[١].

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: يدور عليهم بقصاع من ذهب فيها ألوان الأطعمة وأكواب لا عروة لها مستديرة الرأس ليس لها خرطوم والكوب بحكم الكأس للشراب واكتفى سبحانه بذكر الصحاف والأكواب عن ذكر الطعام والشراب. ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ وقرئ بحذف الهاء من تشتهيه وحسن الحذف في أمثاله كقوله: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾[٢]. وقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾[٣] أي وفي الجنّة المدخولة ما يميل النفس إليه من أنواع النعيم من المأكول والمشروب والملبوس والمشموم وما تلذّ الأعين بالنظر إليه وأضاف الالتذاذ إلى الأعين مع أنّ المتلذّذ هو الإنسان لأنّ التذاذ الأعين سبب التذاذ الإنسان. وقد جمع الله سبحانه بقوله: ﴿تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ما لو اجتمع الخلائق كلّهم على أن يصفوا ما في الجنّة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمه هاتان الصفتان.

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنّة وهذه النعم دائمون ﴿خَالِدُونَ﴾. ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ وتلك الجنّة مبتدء وخبر أو مبتدء وخبره ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ وأعطيتموها، أو الّتي أورثتموها صفة وبما كنتم تعملون خبره قال ابن عبّاس: الكافر يرث نار المؤمن والمؤمن يرث جنّة الكافر لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾[٤].

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فجمع سبحانه في الوصف بين

١ـ سورة المطففين: ٢٤.

٢ـ سورة الفرقان: ٤١.

٣ـ سورة النمل: ٥٩.

٤ـ سورة المؤمنون: ١٠.

الطعام والشراب والفواكه والدوام فهذه غاية الأمنيّة.

ثمّ أخبر عن أحوال أهل النار فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ ودائمون ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ولا يخفّف ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي: في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من كلّ خير ويجعل المجرم في تابوت من النار ثمّ يقفل عليه فبقي خالدا لا يرى ولا يرى وهذه الترغيبات والترهيبات تكميلاً لرغباتهم ودواعيهم في الطاعات وتحذيرا عن الشرك والمعاصي.

وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

لمّا بيّن سبحانه ما يفعل بالمجرمين بيّن سبحانه أنّه لم يظلمهم بذلك فقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لنفوسهم بما جنوا عليها من العذاب.

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ أي: ويدعون خازن جهنّم فيقولون يا مالك وقرئ يا مال بالترخيم على قراءة ابن مسعود فقيل لابن عبّاس: إنّ ابن مسعود كذلك يقرء فقال ابن عبّاس: ما أشغل أهل النار عن هذا الترخيم وأجيب بأنّ غاية العذاب والضعف سبب ترخيمهم بحيث لا يمكنهم أن يذكروا من الكلمة إلّا بعضها لا من باب العربيّة قال ابن جنّي: إنّ قولهم: يا مال في هذا الموضع سرّ

وهو أنّه لعظيم عذابهم فنيت قواهم وقصر كلامهم. ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي ليمتنا ربّك حتّى نتخلّص ونستريح من هذا العذاب قال ابن عبّاس وجماعة: إنّما يجيبهم مالك بذلك بعد ألف سنة وقيل: بعد أربعين عاما وما يدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة فقول مالك مجيباً لهم: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ أي لابثون دائما وقوله: ﴿لِيَقْضِ﴾ من قضى عليه إذا أماته كقوله: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[1] والمراد سل ربّك أن يقضي علينا.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ بعد ما وصفهم بالإبلاس؟[2]

فالجواب تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدّة فيختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس وعلمهم بعدم الفرج ويغوثون تارة لشدّة ما بهم وقوله: ﴿مَّاكِثُونَ﴾ استهزاء وإلّا فالمكث يستعمل في الزمان القليل.

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أي: يقول اللّه: لقد أرسلنا إليكم الرسل بالحقّ، وأضافه سبحانه إلى نفسه لأنّه كان بأمره. وقيل: يقول المالك: وإنّما قال: ﴿جِئْنَاكُم﴾ لأنه من الملائكة وهم من جنس الرسل والمراد من الحقّ القرآن والإسلام أي ولكنّكم معاشر الخلق أكثركم للحقّ كارهون لأنّ الحقّ خلاف مشتهياتكم فكرهتموه والباطل موافق لها فألفتموها وكرهتم مفارقته.

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ أم منقطعة كلام مبتدء ناع على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول اللّهﷺ معناها بل للانتقال في توبيخ المشركين أي بل أحكموا أمراً في كيد محمّد والمكر بهﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ محكمون أمراً في مجازاتهم وكيدهم لأنّهم كانوا يتشاورون في إهلاكهﷺ وإيذائه في دار الندوة وهو

١ـ سورة القصص: ١٥.

٢ـ أي في قوله مبلسون.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.[1]

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ والنجوى ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال والمعنى بل يظنّ هؤلاء الكفّار أنّا لا نسمع ما يسرّون ومعنى السرّ ما يضمره الإنسان في نفسه ولا يظهره لغيره والنجوى ما يحدث به المحدث غيره في الخفية ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ذلك وندركه. ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما يقولونه ويفعلونه يعني الحفظة من الملائكة قال: يحيى ابن معاذ: من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للّذي لا يخفى عليه شيء في السماوات فقد جعله أهون الناظرين وهو من علامات النفاق.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ وقرئ «ولد» بضمّ الواو وسكون اللام واختلف في معناه:

أحدها: أنّ معناه ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ في زعمكم ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي الموحّدين للّه المكذّبين بين لقولكم بإضافة الولد إليه.

وثانيها: أن معناه لو كان له ولد لكنت أنا أول الآنفين من عبادته لأنّ من كان له ولد لا يكون إلّا جسماً محدثاً ومن كان كذلك لا يستحقّ العبادة معنى العابد في الأنف مأخوذ من قولهم: عبدت من الأمر أي أنفت منه. قال الفرزدق:

أولئك قومي إن هجوني هجوتهم ... وأعبد أن تهجى كليب بدارم

ولكن نصفا إن سببت وسبّني ... بنو عبد شمس من قريش وهاشم

وثالثها: أنّ ﴿إِن﴾ بمعنى ما النفي والمعنى ما كان للرحمن ولد فأنا أوّل العابدين للّه المقرّين بذلك.

ورابعها: أنّه يقول: كما إنّي كنت أول من عبد اللّه كذلك ليس للّه ولد

١ـ سورة الأنفال: ٣٠.

وهذا كما تقول: إن كنت كاتبا فأنا حاسب تريد لست كاتبا ولا حاسباً.

وخامسها: أنّ معناه لو كان له ولد لكنت أوّل من يعبده بسبب أنّ له ولد ولكن لا ولد له وحاصل المعنى لو دلّ الدليل على أنّ له ولدا لقلت به ولكنّه لا يدلّ فيكون المعنى تحقيقا لنفي الولد وتبعيدا له لأنّه تعليق محال بمحال.

قال الزمخشريّ: معنى الآية: إن صحّ وثبت ذلك بالبرهان وبحجّة واضحة توردونها فأنا أوّل من يعظّم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته كما يعظّم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه والكلام وارد على سبيل الفرض والغرض المبالغة في نفي الولد وذلك أنّه علّق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلّق بها محالاً مثلها فالبيان في صورة إثبات الكينونيّة والعبادة وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها وهذا المعنى هو الوجه الخامس من الوجوه المذكورة[1].

قال الرازيّ في «المفاتيح»: إنّهم ظنّوا أنّ قوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لو أجريناه على ظاهره فإنّه يقتضي وقوع الشكّ في إثبات الولد للّه لا جرم عدلوا إلى التأويل لكن لا يحتاج البيان عن العدول عن الظاهر لأنّ القضيّة الشرطيّة لا تفيد إلّا كون الشرط مستلزماً للجزاء وليس فيها إشعار بكون الشرط حقّا أو باطلا أو يكون الجزاء واقعاً أو غير واقع بل القضيّة الشرطيّة مركّبة من قضيّتين سواء كانتا حقّتين أو باطلتين أو من شرط باطل وجزاء حقّ أو من شرط حقّ وجزاء باطل فهذا التركيب في الآية لا يدلّ بإثبات الولد والعبادة مثل قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2].

فالشرط في الكلام قوله: ﴿فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾ والجزاء هو قوله: ﴿لَفَسَدَتَا﴾

١ـ الكشاف، ج٣، شرح ص٤٩٧.

٢ـ سورة الأنبياء: ٢٢.

فالشرط في نفسه باطل وغير واقع والجزاء أيضاً باطل وغير واقع لأنّه ليس فيهما آلهة فحينئذ الشرط والجزاء غير واقع وباطل فكذلك في هذه الآية فلم يحصل الشكّ للنبيﷺ لأنّ حصول الشكّ في هذا الأمر مع معرفته باللّه سبحانه غير ممكن. ومحال وبالجملة فأجرى الآية على ظاهرها وأيّد المعنى الآخر.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ العظيم ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ثمّ نزّه نفسه عن ذلك فقال: ﴿سُبْحَٰنَ....﴾ أي تنزيها عن الوالديّة وإله العالم هو الواجب الوجود لذاته وكلّ ما كان كذلك فهو فرد مطلق لا يقبل التجزي بوجه من الوجوه والولد عبارة عن أن ينفصل عن الشيء جزء من أجزائه فيصير ذلك الجزء شخصاً مثله وهذا إنّما يعقل فيما يكون ذاته قابلة للتجزّي والتبعّض وإذا كان ذلك محالاً في حقّ إله العالم فامتنع إثبات الولد له.

ولمّا بيّن هذا البرهان قال: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي فاتركهم يغمروا في باطلهم ويلعبوا حتّى يضلّوا ويروا العذاب الأبد وهو عذاب القيامة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي: هو تعالى في السماء والأرض على سبيل الإلهيّة والربوبيّة لا على معنى الاستقرار وفي الكلام نفي الآلهة الّتي كانت تعبد فيحقّ له العبادة خاصّة وتكرار لفظ ﴿إِلَٰهٌ﴾ للتأكيد وتمكّن المعنى في النفس وإفادة أنّ العبادة يجب على الملائكة وعلى أهل الأرض من الجنّ والإنس ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح خلقه.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: دامت بركته فمنه البركات والسعادات، مأخوذ من بروك الإبل ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي علم يوم القيامة ولا يعلم وقته على التعيين غيره ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي كلّا على عمله.

وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

ولمّا كانوا يزعمون أنّ آلهتهم لأمورهم شفعاء فذكر سبحانه أنّه لا شفاعة ولا أثر لمعبودهم فقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي الّذي يدعوه المشركون إلها ويوجّهون عبادتهم إليه من الأصنام ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهم عيسى وعزير والملائكة استثناهم سبحانه ممّن عبد من دون اللّه فإنّ لهم منزلة الشفاعة وقيل: المعنى لا يملك أحد من الملائكة وغيرهم الشفاعة إلّا لمن شهد بالحقّ أي شهد أن لا إله إلّا اللّه وذلك لأنّ النضر بن الحرث ونفرا من قريش قالوا: إن كان ما يقوله محمّد حقّا فنحن نتولّى الملائكة وهم أحقّ بالشفاعة لنا منه فنزلت الآية فالمعنى أنّهم يشفعون للمؤمنين بإذن اللّه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما شهدوا بألسنتهم.

وفي الآية دلالة على أنّ حقيقة الإيمان هو الاعتقاد بالقلب لأنّ اللّه شرط مع الشهادة العلم بحيث لا يتشكّك إذا شكّك ولا يضطرب إذا حرّك واحتجّ القائلون بأنّ إيمان المقلّد لا ينفع بهذه الآية. والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ يمكن أن يكون منقطعاً أي لكن من شهد بالتوحيد والحقّ ويمكن أن يكون متّصلاً لأنّ في جملة الّذين يدعون من دون اللّه الملائكة والمسيح وعزير لكن يشفعون للّذين شهدوا بالتوحيد.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا محمّد ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ من أخرجهم من العدم إلى الوجود أي إذا سألت العابدين والمعبودين من أو جدهم ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لتعذّر الإنكار لغاية بطلانه ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع اعترافهم بكون الكلّ مخلوقاً له؟

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ قرئ بالحركات الثلاث قال

الأخفش: النصب عطف على ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ وقيله أي: قول الرسول والضمير راجع إلى النبيﷺ أي قول الرسول يا ربّ إلخ، فإنّ القول والقيل والقال كلّها مصادر. والرفع على الابتداء والخبر ما بعده. والجرّ على العطف بقوله: ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ على تقدير حذف المضاف والتقدير وعنده علم الساعة وعلم قيله. قال الزمخشريّ: والأقوى أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم، أو النصب على محلّ الساعة لأنّ قوله: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ معناه أنّه تعالى علم الساعة وقيله.

قال ابن عبّاس في تفسير الآية في قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ﴾ المراد: وقيل يا ربّ والهاء زائدة، عن أبي زيد: يقال ما أحسن قيلك وقالك وقولك ومقالك ومقالتك، خمسة أوجه. وبالجملة إنّ النبيﷺ لمّا ضجر من قومه وعرف إصرارهم على كفرهم أخبر عنهم أنّهم قوم لا يؤمنون وهذا القول قريب من قول نوح حيث قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾.

ثمّ إنّه تعالى قال لهﷺ ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي صفّح وجهك يا محمّد عنهم ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ ندبه سبحانه إلى الحلم أي المداراة والمتاركة. وقيل: هو سلام هجر ومجانبة لا سلام محبّة وكرامة كقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[1].

وقيل: معناه قل يا محمّد: سلام، تسلم من شرّهم وأذاهم وهذا منسوخ بآية السيف ولكن إذا كان المعنى واصفح عن سفههم ولا تقابلهم بمثله فذلك مما علّمه سبحانه من مكارم الأخلاق فلا يكون منسوخاً. قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هدّدهم بيوم القيامة إذا عاينوا ما يحلّ بهم من العذاب.

تمّت السورة بعونه.

١ـ سورة القصص: ٥٥.

سورة الدخان

مكية. عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ الدخان في ليلة الجمعة غفر له»[1].

قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك»[2].

وعنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأها في ليلة الجمعة أصبح مغفورا له»[3].

أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة الدخان ليلة الجمعة ويوم الجمعة بنى الله له بيتا في الجنة»[4].

وروى أبو حمزة الثماليّ عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ومن قرأ سورة الدخان في فرائضه ونوافله بعثه الله من الآمنين يوم القيامة وأظلّه تحت ظلّ عرشه وحاسبه حسابا يسيرا وأعطي كتابه بيمينه»[5].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٠١، و تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٦٢٠.

٢ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٠١، و تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٦٢٠، و تفسير الثعلبي، ج٨، ص٣٤٨.

٣ـ تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٦٢٠، و تفسير النسفي، ج٤، ص١٢٢.

٤ـ تفسير القرطبي، ج١٦، ص١٢٥، و تفسير الثعلبي، ج٨، ص٣٤٨، مجمع الزوائد، ج٢، ص١٦٨.

٥ـ بحار الانوار، ج٧، ص٢٩٥، ج٨، ص٢٩٩، و تفسير أبي حمزة الثمالي، ص٣٠٢.

مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ
﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ
تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

في ﴿حمٓ﴾ وجوه الاحتمال: أولها: أن يكون التقدير هذه حم ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ والواو واو القسم كقولك: هذا زيد والله. والثاني: أن يكون الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿حمٓ﴾ أي هذه سورة حم ثمّ قال: والكتاب المبين إنّا أنزلناه فيكون إنّا أنزلناه جوابا للقسم وأنكر الطبرسيّ هذا المعنى وقال: إنّ جواب القسم قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ قال: ولا يصحّ أن يكون جواب القسم قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ لأنّك لا تقسم بالشيء على نفسه والمنزل هو الكتاب.

والوجه الثالث: أن يكون التقدير: «وحم» بحذف حرف القسم والكتاب المبين فيكون قسمين متواليين على شيء واحد. وبالجملة أقسم سبحانه بالقرآن الدالّ على صحة نبوّة نبيّنا وهو مبين فيه بيان الأحكام والفصل بين الحلال والحرام.

إنا أنزلنا القرآن ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ والليلة المباركة هي ليلة القدر عن ابن عبّاس وجماعة وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[1]. قيل: ليلة القدر هي ليلة النصف من شعبان عن عكرمة قال الطبرسيّ: والأصحّ الأوّل ويدلّ عليه قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[2] وكذلك قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[3].

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٠٢، و تفسير الصافي، ج٤، ص٤٠٣.

٢ـ سورة القدر: ١.

٣ـ سورة البقرة: ١٨٥.

واختلف في كيفيّة إنزاله فقيل: أنزل إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ثمّ أنزل نجوماً إلى النبي ﷺ وقيل: إنّه كان ينزل جميع ما يحتاج في سنة في تلك الليلة ثمّ كان ينزله جبرئيل ﷺ شيئا فشيئا وقت وقوع الحاجة. وقيل: كان بدو نزوله في ليلة القدر. وروى ابن عبّاس وقال: قد كلّم اللّه جبرئيل في ليلة واحدة وهي ليلة القدر فسمعه جبرئيل وحفظه بقلبه وجاء به إلى السماء الدنيا إلى الكتبة وكتبوه ثمّ أنزل على محمّد بالنجوم في ثلاث وعشرين سنة وقيل: في عشرين سنة.

وإنّما وصف سبحانه هذه الليلة بالمباركة لأنّ فيها يقسّم نعمه على عباده من السنة إلى السنة فيدوم بركاتها والبركة نماء الخير وثبوته[1] وقيل: بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة ولها أربعة أسماء الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصلاة وليلة الرحمة ووجه التسمية بالبراءة لأنّ البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة كذلك يكتب اللّه لعباده المؤمنين البراءة والصكّ.

قال الزمخشري: وهي مختصّة بخصال: تفريق كلّ أمر حكيم وفضيلة العبادة فيها قال رسول اللّه ﷺ: **«من صلّى في هذه اللّيلة مائة ركعة أرسل اللّه إليه مائة ملك: ثلاثون يبشّرونه بالجنّة وثلاثون يؤمّنونه من عذاب النار وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان»**. ونزول الرحمة. قال ﷺ: **«إنّ اللّه يرحم أمّتي في هذه اللّيلة بعدد شعر أغنام بني كلب»** وحصول المغفرة. قال ﷺ: **«إنّ اللّه يغفر للمؤمنين جميعا في تلك اللّيلة إلّا لكاهن أو ساحر أو مشاحن صاحب البدعة التارك للجماعة أو مدمن خمر أو عاقّ للوالدين أو مصرّ على الزناء»**. وقد أعطي فيها رسول اللّه ﷺ من تمام الشفاعة وذلك أنّه ﷺ سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته فأعطي الثلاث منها وسأل ﷺ ليلة الرابع عشر

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٠٣.

فأعطي الثلاث ثمّ سأل ليلة الخامس عشر فأعطي الجميع إلّا من شرد عن اللّه شراد البعير ومن عادة اللّه في هذه اللّيلة أن يزيد في ماء زمزم زيادة ظاهرة ولا يخفى أنّ هذا الكلام ينطبق عند القائلين بأنّ ليلة القدر النصف من شعبان[1]. ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: مخوّفين بما أنزلناه من تعذيب العصاة ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في هذه اللّيلة يفصّل ويبيّن ويقضي كلّ أمر محكم لا يلحقه الزيادة والنقصان وهو أنّه يقسم فيها الآجال والأرزاق وغيرها من امور السنة إلى مثلها من العام القابل قال ابن عبّاس: إنّك ترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى.

في «الصافي» في قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي يقدّر اللّه في تلك اللّيلة من امور تلك السنة ولكن فيه البداء والمشيّة يقدّم ما يشاء ويؤخّر ما يشاء وينقص ويزيد ويلقيه إلى رسوله اللّه وهو ﷺ يلقيه إلى أمير المؤمنين وهو يلقيه إلى الأئمّة حتّى ينتهي إلى القائم ويشترط فيه البداء[2].

وفي «الكافي» عن الباقر عليه السلام قال: «قال الله عزّ وجلّ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي فيها ينزل كلّ أمر حكيم والحكيم والمحكم شيء واحد فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم الله ومن حكم أمرا فيه اختلاف فرأى أنّه مصيب فقد حكم بحكم الطاغوت إنّه سبحانه لينزل في ليلة القدر إلى وليّ الأمر تفسير الأمور يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا وكذا وفي أمر الناس بكذا وكذا وإنّه ليحدث لوليّ الأمر سوى ذلك كلّ يوم علم الله الخاصّ والمكنون المخزون مثل ما نزل في ليلة القدر من الأمر ثمّ قرأ عليه السلام: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ....﴾[3]»[4].

١ـ الكشاف، ج٣، ص٥٠٠.

٢ـ تفسير الصافي، ج٤، ص٤٠٣.

٣ـ سورة لقمان: ٢٧.

٤ـ الكافي، ج١، ص٢٤٨، و تفسير الصافي، ج٦، ص٤١٦، و تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٦٢٢.

وعنه: يا معشر الشيعة خاصموا بـ«حم والكتاب المبين إنّا أنزلناه. الآية. فإنّها لولاة الأمر خاصّة بعد رسول الله»[1].

قال الكاظم عليه السلام: «حم محمّد صلى الله عليه وآله والكتاب المبين أمير المؤمنين عليه السلام واللّيلة المباركة فاطمة عليها السلام فيها يفرق كلّ أمر حكيم يخرج منها خير كثير ورجل حكيم ورجل حكيم ورجل حكيم» الحديث[2].

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ يعني: أنّا نأمر ببيان ذلك ونسخه من اللّوح المحفوظ ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ محمّدا إلى عبادنا كمن كان قبله من الأنبياء ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: رأفة منّا بخلقنا ونعمة عليهم بما بعثنا إليهم من الرسل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمن دعاه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالح الخلق.

تذييل: في بيان اللّيلة المباركة: اعلم أنّه اختلفوا في اللّيلة المباركة فقال الأكثرون: إنّها ليلة القدر، وقال بعض: إنّ اللّيلة المباركة ليلة البراءة وهي ليلة النصف من شعبان. أمّا الأوّلون فقد احتجّوا على صحّة قولهم بوجوه:

الاول: أنّه تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وفي هذه الآية قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ فوجب أن يكون هذه اللّيلة المباركة هي تلك المسمّاة بليلة القدر لئلّا يلزم التناقض.

الثاني: أنّه تعالى قال في صفة ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ﴾[3] وقال: أيضاً ها هنا ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وهذا الكلام موافق ومناسب لقوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ وأيضا ها هنا قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ وقال في تلك الآية: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾

١ـ تفسير الصافي، ج٤، ص٤٠٤، و أنوار، شرح ص، ٤٨، و الكافي، ج١، ص٢٤٩، و نور الثقلين، ج٤، ص٣٥٨.

٢ـ تفسير كنز الدقائق، ج١٢، ص١١٧.

٣ـ سورة القدر: ٤ ـ ٥.

وقال هاهنا: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وقال في تلك السورة: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ وإذا تقاربت الأوصاف وتساوت وجب القول بأنّ إحدى اللّيلتين هي الاخرى.

الثالث: من الوجوه نقل محمّد بن جرير الطبريّ في تفسيره عن قتادة أنّه قال: نزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من رمضان والتوراة لستّ ليال منه والزبور لاثنتي عشرة ليلة مضت والإنجيل لثمان عشرة ليلة مضت منه والقرآن لأربع وعشرين ليلة مضت من رمضان واللّيلة المباركة هي ليلة القدر.

الرابع: أنّه إنّما سمّيت بالقدر لأنّ شرفها وقدرها عظيم ومعلوم أنّه ليس بسبب نفس ذلك الزمان لأنّ الزمان شيء واحد في الذات والصفات فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته بل إنّما شرفه بسبب أنّه حصل فيه أمور شريفة عالية ومعلوم أيضاً أنّ منصب الدين أعلى وأعظم من منصب الدنيا، وأعلا منصباً في الدين هو القرآن لأجل أنّ به ثبت النبوّة وبه ظهر الفرق بين الحقّ والباطل وبه ظهرت درجات أرباب السعادات ودركات أرباب الشقاوات فعلى هذا لا شيء إلّا والقرآن أعظم قدراً وأعلى شرفاً فلو كان نزوله وقع في ليلة اخرى سوى ليلة القدر لكانت ليلة القدر هي هذه الثانية لا الاولى وحيث أطبقوا على أنّ ليلة القدر هي الّتي وقعت في رمضان لأنّه سبحانه قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ علمنا أنّ القرآن إنّما أنزل في تلك اللّيلة.

وأمّا القائلون بأنّ المراد من اللّيلة المباركة المذكورة في الآية هي ليلة النصف من شعبان فبما نقلوه عن رسول اللّه بقوله وما أعطي فيها رسول اللّه من تمام الشفاعة فإن صحّ ذلك عن رسول اللّه فلا مزيد عليه وإلّا فالحقّ هو الأوّل لقوّة الدليل.

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: خالقهما

وخالق ما بينها إن كنتم موقنين بهذا الخبر محقّقين له إنّه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يستحقّ العبادة ولا يستحقّ غيره العبادة ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ أي يحيي بعد موتهم ويميتهم بعد إحيائهم ﴿رَبُّكُمۡ﴾ الّذي خلقكم ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الّذين سبقوكم. ثمّ ذكر سبحانه حال الكفّار فقال: ليس هؤلاء بموقنين بما قلناه ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ﴾ ممّا أخبرناك ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ مع ذلك ويستهزءون بك وبالقرآن إذا قرئ عليهم أن يشتغلوا بالدنيا وهو المراد من اللّعب.

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ فقال: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ أي فانتظر يا محمّد ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ فانتظر يا محمّد (صلّى اللّه عليك) اليوم الّذي تأتي السماء بالدخان وهو ظاهر ولا يشكّ أحد في أنّه دخان.

واختلف في الدخان فعن عليّ عليه السلام أمير المؤمنين وبه أخذ جماعة أنّه: دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة حتّى يكون الواحد منهم كالرأس الحنيذ ويعتري المؤمن منه كهيئة حال المزكوم وتأخذه الزكمة وتكون الأرض كلّها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص[1].

وعن رسول اللّه ﷺ: **«أوّل الآيات الدخان ونزول عيسى عليه السلام ونار تخرج من قعر عدن، أبين (اسم رجل ينسب إليه عدن) يسوق الناس إلى المحشر»**. قال حذيفة: يا رسول اللّه وما الدخان فتلا رسول اللّه ﷺ الآية، وقال: **«يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أمّا المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة وأمّا الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره»**[2]. وقيل: المراد بالدخان دخان المجاعة وذلك أنّ قريشا لمّا استعصت على رسول اللّه ﷺ وأصرّوا على تكذيبه قال:

١ـ تفسير جوامع الجامع، ج٣، ص٣٢٢، و الكشاف، ج٣، شرح، ص٥٠١، و ميزان الحكمة، ج٣، ص٢١٦٧، و بحار الانوار، ج٦، ص٣٠٢.

٢ـ تفسير الصافي، ج٤، ص٤٠٥، و تفسير الأصفي، ج٢، ص١١٥١، و تفسير الثعلبي، ج٨، ص٣٥١، و تفسير ابي السعود، ج٨، ص٦٠، و جامع البيان، ج٢٥، ص١٤٨.

ودعاﷺ عليهم: «اللهمّ سنينا كسني يوسف اللهمّ اشدد وطأتك على مضر». فأجدبت الأرض فأصابت قريشا المجاعة وكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان وأكلوا العظام والجيف والعلهز وكان يحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان فمشى إليهﷺ أبو سفيان ونفر من قريش معه وناشده الله والرحم وواعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا، فسأل الله لهم بالخصب والسعة فكشف عنهم فلمّا كشف عنهم رجعوا إلى شركهم ثمّ عادوا إلى الكفر.

﴿يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: أنّ الدخان يعمّ جميع الناس على القول الأوّل وأهل مكّة على القول الثاني وهم الّذين يقولون هذا عذاب أليم أي قائلين ذلك.

رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾

لمّا أخبر سبحانه أنّ الدخان يغشى الناس عذاباً لهم قالوا: أو يقولون ـ على ما فيه من الخلاف في الدخان ـ: هذا عذاب أليم ﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ بمحمّد والقرآن.

فأنكر سبحانه عليهم بقوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ أي: من أين لهم الاتّعاظ والتذكّر وكيف يتذكّرون؟ ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ والحالة أنّهم قد

جاءهم رسول ظاهر الصدق والدلالة ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ وأعرضوا ولم يقبلوا قوله: ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ أي: يعلّمه بشر وننسبوه إلى الجنون، «القمي» قال: قالوا ذلك لأنّه لمّا كان ينزل عليه الوحي يأخذه الغشي فقالوا مجنون وتولّوا عنه وبهتوه بأنّ عداس غلاما أعجميّاً لبعض ثقيف هو الّذي علّمه. ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ أي حيثما انكشف عنكم العذاب وأنتم تعودون إلى شرككم لا تلبثون بعد الكشف على ما أنتم عليه من التضرّع.

فإن قيل: كيف يستقيم على قول من جعل الدخان قبل يوم القيامة قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ ؟

فالجواب إذا أتت السماء بالدخان تضوّر المعذّبون به من الكفّار والمنافقين وتعولوا وقالوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ منيبون فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوما فحيثما يكشفه عنهم يرتدّون.

ثمّ قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ يريد يوم القيامة كقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾[1]. وقيل: البطشة الكبرى يوم بدر والبطش التناول والأخذ بصولة ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ منهم ذلك اليوم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ أقسم سبحانه أنّه فتن قبل كفّار قوم النبيّ ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ فاختبرهم وشدّد عليهم التكليف لأنّ الفتنة شدّة التعبّد وأصلها الإحراق بالنار لخلاص الذهب من الغشّ أي اختبرنا قوم فرعون بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين وكريم في نفسه لأنّ الله لا يبعث نبيّا إلّا من سراة قومه وكرامهم وكان موسى عليه السلام كذلك.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ﴾ هي أن المفسّرة أو المخفّفة من المثقّلة أي: جاءهم بأنّ

١ـ سورة النازعات: ٣٤.

الشأن والقصّة أدّوا إليّ ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ وهم بنو إسرائيل يقول: أرسلوهم معي. ويجوز أن يكون نداء لهم والتقدير: أدّوا إليّ يا عباد اللّه ما هو واجب عليكم من قبول دعوتي واتّباع سبيلي وعلّل ذلك بأنه ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد ائتمنه اللّه على وحيه ورسالته.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أن هذه مثل الأولى في كونها مفسّرة أو مخفّفة أي لا تتكبّروا على اللّه بإهانة وحيه ورسوله ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة بيّنة يعترف بها كلّ عاقل.

فلمّا قال‌عليه‌السلام هذا الكلام توعّدوه بالقتل والرجم فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ أي لذت بمالكي ومالككم والتجأت به من أن ترجموني بالحجارة أو المراد من الرجم الشتم كقولهم: هو ساحر كذّاب

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ فلا موالاة بيني وبينكم وتنحّوا عنّي أو المعنى فخلّوني ولا تتعرّضوا عليّ بشرّكم وأذاكم.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

ثمّ ذكر سبحانه قصّة موسى أي فلمّا يئس موسى أن يؤمنوا به دعا موسى ﴿رَبَّهُ﴾ فقال: ﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ مشركون لا يؤمنون فكأنّه قال‌عليه‌السلام: اللّهمّ عجّل لهم ممّا يستحقّون بكفرهم وما دعا عليهم إلّا بعد أن أذن له في ذلك وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ الفاء وقعت موقع الجواب فأجيب بأن قيل له: فأسر وقرئ بقطع الهمزة من أسرى ووصلها من سرى أي فاسر ببني إسرائيل أي أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ﴿لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي:

يتّبعكم فرعون وقومه ويصير ذلك سببا لهلاكهم.

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ وفي الرهو قولان: أحدهما: أنّه الساكن يقال: عيس راه إذا كان حافظاً ساكناً. قال الأعشى:

يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلـة ولا الصدور على الأعجاز تتّكـل

أي مشياً ساكنا على تؤدة وقرار، والثاني: أنّ الرهو هو الفرجة الواسعة أي: اترك الطريق كما كان حتّى يدخل قوم فرعون فيغرقوا وذلك لأنّه أراد موسى لمّا جاوز البحر أن يضربه بعصا لينطبق كما ضربه فانفلق فأمره اللّه بأن يتركه ساكنا على حاله ليدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه اللّه. وحاصل المعنى أن اتركه على حاله منفرجاً ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وقرئ أنّهم بالفتح بمعنى لأنّهم.

ثمّ قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ فأخبر أنّهم بعد غرقهم تركوا هذه النعم والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة وقيل: المنابر الّتي كانوا يمدحون فرعون عليها ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ والنعمة بالفتح من النون حسنه ونضارته وبالكسر من إنعام اللّه أي تركوا سعة في العيش ونعما كانوا بها متنعّمين ومتمتّعين كما يستلذّ الآكل بأنواع الفواكه.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ معناه كذلك أفعل بمن عصاني وإيراث النعمة تصييرها إلى الثاني بعد الأوّل بغير مشقّة فلمّا كانت نعمة قوم فرعون وصلت بعد إهلاكهم إلى غيرهم كان ذلك ميراثاً من اللّه لهم والمراد بقوم آخرين بني إسرائيل لأنّهم رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ اختلف في معناه على وجوه: أحدها: لم يبك عليهم أهل السماء والأرض لكونهم مسخوطاً عليهم، بحذف المضاف مثل

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾[1] أي أصحاب الحرب، قال ذو الرمّة:

لهم مجلس صهب السبال أذلّة	سواسية أحرارها وعبيدها

أي: لهم أهل مجلس. والثاني: المراد في البيان تصغير قدرهم فإنّ العرب إذا أخبرت عن عظم المصاب بالهالك قالت: بكاه السماء والأرض وأظلم لفقده الشمس والقمر قال جرير: يرثي عمر بن عبد العزيز:

الشمس طالعة ليست بكاسفة	تبكي عليك نجوم اللّيل والقمرا

وقالت الخارجيّة:

أيا شجر الخابور مالك مورقا	كأنّك لم تجزع على ابن طريف

وذلك على سبيل الاستعارة التخييليّة مبالغة في وجوه الجزع والبكاء وكذلك ما حكي عن ابن عبّاس أنّه سئل عن هذه الآية وقيل: وهل يبكيان على أحد؟ قال: نعم مصلّى المؤمن في الأرض ومصعد عمله في السماء وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: **«ما من مؤمن إلّا وله باب يصعد عمله وباب ينزل رزقه فإذا مات بكيا عليه»**. فعلى هذا يكون معنى البكاء في هذا المورد والإخبار عن الاختلال بعده[2] كما قال مزاحم العقيلي:

بكت دارهم من أجلهم فتهلّلت	دموعي فأيّ الجازعين ألوم

أمستعبرا يبكي من الهون والبلى	أم آخر يبكي شجوه ويهيم

وروى زرارة بن أعين عن الصادق عليه السلام أنّه قال: **«بكت السماء على يحيى بن زكريا وعلى الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أربعين صباحاً ولم تبك إلّا عليهما»**، قلت: وما بكاؤها؟ قال: **«كانت الشمس تطلع حمراء وتغيب حمراء»**. وقال السدّيّ:

١ـ سورة محمّد: ٤.

٢ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٠٩، و انظر: مستدرك الوسائل، ج٢، ص٤٦٩.

لمّا قتل الحسين بكت السماء عليه، وبكاؤها حمرة أطرافها. وبالجملة فالمراد من قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ﴾ التهكّم واستصغار القدر.

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي: لمّا جاء وقت هلاكهم لم ينظروا إلى وقت آخر التوبة وتدارك تقصير.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾

ثمّ أقسم سبحانه بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الّذين آمنوا بموسى ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ يعني: قتل الأبناء واستخدام النساء والاستعباد وتكليف المشاقّ ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبراً متغلباً ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدّ في الطغيان والغالي في الإساءة. ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أي: اخترنا موسى وبني إسرائيل وفضّلناهم بالتوراة وكثرة الأنبياء منهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على بصيرة منّا باستحقاقهم التفضّل ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على عالمي زمانهم. وقيل: الآية عامّ دخله التخصيص بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ مثل فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ

١ـ سورة آل عمران: ١١٠.

والسلوى وغيرها من الآيات القاهرة ﴿مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ اختبار ظاهر لتمييز الصديق عن الزنديق وهاهنا آخر الكلام في قصّة موسى.

ثمّ ذكر سبحانه كفّار مكّة ورجع الكلام فيهم حيث قال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ورجع إلى حديثهم حيث كانوا منكرين للبعث فقال: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾.

فإن قيل: القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية فكان من حقّهم أن يقولوا إن هي إلّا حياتنا الاولى وما نحن بمنشرين.

فالجواب أنّه قيل لهم: إنّكم تموتون موتة تعقّبها حياة كما تقدّمتكم موتة وتعقّبتها حياة وذلك قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[1]، فحينئذ قالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ما هذه الصفة الّتي تصفون بها الموتة من تعقيب الحياة إلّا الموتة الاولى خاصّة فلا فرق إذن بين هذا الكلام وبين قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أو المراد منهم في هذا الكلام أنّه لا تأتينا شيء من الأحوال إلّا الموتة الاولى أي لا تأتينا الحياة الثانية ثمّ صرّحوا فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ وقيل: المعنى ليست الموتة الّتي تعقّبها حياة إلّا هذه الموتة دون الموتة الّتي تعقّب حياة القبر وما نحن بمنشرين أي لا نحيا في القبر ولا نبعث في القيامة ونحيا كما تزعمون.

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول والمؤمنين قالوا: إن كان الأمر على ما تقولون فعجّلوا لنا إحياء من مات من آبائنا. قيل: طلبوا من النبيّ ﷺ أن يدعو اللّه حتّى ينشر قصيّ بن كلاب ليشاوروه في صحّة نبوّة محمّد وفي صحّة البعث. وقيل: إنّ المقترح بهذا القول كان أبو جهل ولمّا كانت المصلحة غير مقتضية لقبول اقتراحهم

١ــ سورة البقرة: ٢٨.

عدل سبحانه عن إجابتهم إلى الوعظ والوعيد فقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحميريّ، أي: أمشركو قريش أكثر أموالاً وأعزّ في القوّة والقدرة أم قوم تبّع الّذي حيّر الحيرة وسيّر بالجيوش من اليمن إلى سمرقند فهدمها ثمّ حفر خندقها وبناها قيل: اسمه شمر بن أفريقش وسمرقند معرب شمركند وقيل: اسمه أسعد أبو كرب وسمّي تبّعاً لكثرة أتباعه.

روى سهل بن سعد عن النبيﷺ أنه قال: «لا تسبّوا تبّعاً فإنّه كان قد أسلم»[1]. وقال كعب: نعم الرجل الصالح ذمّ اللّه قومه ولم يذمّه. وروى الوليد بن صبيح عن أبي عبد اللّهعليه السلام قال: «إنّ تبّعاً قال للأوس والخزرج: كونوا هاهنا لي في يثرب حتّى يخرج هذا النبيّ أمّا أنا لو أدركته لخدمته وخرجت معه»[2]. والتبّع ليس اسم وعلم الفرد بل لقب ملوك اليمن كما يقال لملك الترك خاقان ولملك الروم قيصر وكان تبّع إذا كتب كتابا كتب بسم الّذي ملك برّاً وبحراً. وقيل: هو الّذي كسا البيت ويقال لملوك اليمن التبابعة لأنّهم يتبعون كما يقال: الأقيال لأنّهم يتقيّلون وسمّي الظلّ تبّعا لأنّه يتبع الشمس.

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من تقدّمهم من قوم نوح وعاد وثمود ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي: ليسوا بأقوى وأفضل منهم وقد أهلكناهم بكفرهم وهؤلاء مثلهم بل أولئك كانوا أكثر قوّة وعددا فإهلاك هؤلاء أيسر ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: إنّهم كانوا كافرين فليحذر قومك أن ينالهم مثل ما نال أولئك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ أي: لم نخلق لغواً وعبثاً بل لأن ننفع المكلّفين بذلك بضروب المنافع واللّذات فذكر الدليل القاطع

١ـ بحار الانوار، ج١٤، ص٥١٣، و مجمع البيان، ج٩، ص١١١، و كنزالعمال، ج١٢، ص٨٠، و الكشاف، ج٣، شرح ص٥٠٥.

٢ـ كمال الدين، ص١٧٠، و الخرائج والجرائح، ج٣، ص١٠٧٤.

على صحة البعث والقيامة أي ولو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعبا وعبثا.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لغرض صحيح وعلى الحقّ الّذي يستحقّ به الحمد خلاف الباطل الّذي يستحقّ به الذمّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صحة ما قلناه لعدو لهم عن التدبير والنظر والطّاعة.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: ذلك اليوم يفصل فيه بين المبطل والمحقّ ويوم القيامة يوم الحكم بين الأقوام المذكورة من قوم فرعون وقوم تبّع ومن قبلهم وقومك أجمعين.

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

المعنى: شرح سبحانه يوم الفصل فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ والمولى الصاحب الّذي من شأنه أن يتولّى معاونة صاحبه على أموره فيدخل في ذلك ابن العمّ والقرابة والناصر والحليف وغيرهم ممّن يتّصف بهذه الصفة.

وحاصل المعنى أنّ ذلك اليوم لا يغني فيه وليّ عن وليّ شيئا ولا يقدر أن يدفع المكروه عنه ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وهذا المعنى لا ينافي الشفاعة وإثباتها للنبيّ ﷺ والأئمة والمؤمنين لأنّ الشفاعة لا تحصل إلّا بأمر اللّه وإذنه والآية تدلّ على أنّه ليس لهم من يدفع عن عذاب اللّه وينصرهم من غير إذن اللّه، وقد بيّن هذا بما أشير إليه باستثنائه بقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلّا الّذين رحمهم اللّه من المؤمنين فإنّه إمّا أن يسقط عذابهم ابتداء أو يأذن بالشفاعة فيهم لمن علت درجته عنده فيسقط عقاب المشفوع له بشفاعته

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

ثمّ أردف بالوعيد للكفّار والوعد للأبرار فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ وقد ذكرنا اشتقاق الزقّوم في سورة والصافّات. ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ قالت المعتزلة: الآية تدلّ على أنّ هذا الوعيد حاصل للأثيم والأثيم هو الّذي صدر عنه الإثم، قال الرازي: ليس كذلك لأنّا بيّنّا في اصول الفقه أنّ اللفظ المفرد الّذي دخل عليه حرف التعريف الأصل فيه أن ينصرف إلى المعهود والمذكور السابق ولا يفيد العموم وهاهنا المذكور السابق الكافر فينصرف إليه.

قيل: إنّ المراد من الأثيم في الآية أبو جهل روي أنّه أتى بتمر وزبد فجمع بينهما وأكل مع جماعة وقال هذا هو الزقّوم الّذي يخوّفكم به محمّد نحن نتزقّم به أي نملا أفواهنا منه وقد فعل اللعين ذلك بعد أن نزل ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ وكان أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر التزقّم فنزلت: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾.

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ قرئ بضمّ الميم وفتحها وهو درديّ من الزيت ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ مع قوله: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ وقيل: المهل مذاب النحاس وساير الفلزّات وهو ما يمهل في النار حتّى يذوب ﴿يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ﴾ الزقّوم ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ الماء الفائر الشديد الفور. ولا يجوز أن يحمل الغلي على المهل لأنّ المهل مشبّه به وإنّما يغلي ما يشبه بالمهل لا المهل وهو الزقّوم وقرئ تغلي بالتاء باعتبار الشجرة. روي أنّ أهل جهنّم لمّا أكلوا الزقّوم والضريع غليا فيطلبون الماء فيسقون من الأشربة ثمّ قال سبحانه: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: خذوا الأثيم، يأمر سبحانه الزبانية ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ والعتل أن تأخذ لمنكب الرّجل وتجرّه إليك وتذهب به إلى حبس أو محنة ولذلك القود العنيف تسمّى عتلاً وقيل: معناه جرّوه على وجهه ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: إلى وسطه.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ قال مقاتل: إنّ خازن النار يمرّ به على رأسه فيذهب دماغه عن رأسه ثمّ يصبّ فيه من الماء الّذي انتهى حرّه ويقوله له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ وذلك أنّ أبا جهل قال لرسول اللّه ﷺ: ما[1] بين جبليها أعزّ وأكرم منّي فو اللّه ما تستطيع أنت ولا ربّك أن تفعلا بي شيئا وأنا أعزّ أهل الوادي فيقول له الملك ذق العذاب أيّها المتعزّز المتكرّم وهذا على طريق التهكّم. ومعنى ﴿إِنَّكَ﴾ لأنك، قرأ به الحسن بن علي عليه السلام.

ثمّ قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ أي: هذا العذاب الّذي كنتم تشكّون فيه في دار الدنيا والجمع باعتبار المعنى لأنّ المراد نوع الأثيم.

ثمّ شرح سبحانه ما أعدّ للمتّقين بقوله:

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

بشّر عباده ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الّذين يجتنبون معاصي اللّه لكونها قبائح ويفعلون الطاعات لكونها طاعات ﴿فِى مَقَامٍ﴾ أي: مكان ﴿أَمِينٍ﴾ أمنوا فيه من الغير والموت والفناء والحوادث وقيل: أمنوا من الشيطان والأحزان والمقام بالفتح أقوى ومعناه موضع القيام أي المكان وبضمّ الميم موضع السّكون والإقامة ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: بساتين وعيون ماء نابعة فيها.

١ـ «ما» نافية، أي ليس بين جبلي مكة أعز مني.

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ والسندس ما رقّ من الديباج والإستبرق ما غلظ منه وهو تعريب سطبر بالفارسيّة أي غليظ.

فإن قلت: كيف ساغ أن يقع في القرآن العربيّ المبين لفظ عجمي؟

فالجواب: إذا عرّب خرج من أن يكون عجمياً لأنّ معنى التعريب تغييره عن منهاجه وإجراؤه على أوجه الأعراب. وقيل: السندس ما يلبسونه والإستبرق ما يفترشونه وبالجملة خاطب العرب فوعدهم بما عظم عندهم واشتهته أنفسهم وعلى هذا لا يقدح من أن يكون اللفظ أصلا عجمياً فعرّب.

﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ في المجالس لا ينظر بعضهم إلى بعض من القفا، بل يقابل بعضهم بعضاً. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ حال أهل الجنّة ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ وقرنّاهم بحور عين قيل: هنّ عجائز كم الدرد المؤمنات ينشئهنّ اللّه خلقاً آخر وقرئ بالإضافة والمعنى بالحور من العين لأنّ العين إمّا أن يكون حوراء أو غير حوراء فهؤلاء من الحور العين لا من شهلهنّ وفي قراءة عبد اللّه بن مسعود بعيس عين والعيساء البيضاء تعلوها حمرة والحور في العين أن يكون البياض في العين غاية البياض والسواد فيها غاية السواد والعين جمع العيناء وهي العظيمة العينين.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ أي: يستدعون فيها أيّ ثمرة شاءوه واشتهوه غير خائفين فوتها وآمنين من مضرّتها وأسقامها وأوجاعها.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ والاستثناء منقطع بمعنى لكن والتقدير: لا يذوقون فيها الموت لكنّ الموتة الاولى قد ذاقوها. وعلى كون الاستثناء متّصلاً وأنّهم ما ذاقوا الموتة الاولى في الجنّة فكيف حسن هذا الاستثناء؟ قال صاحب «الكشّاف»: أريد أن يقال: لا يذوقون فيها الموت البتّة فوضع قوله: إلّا الموتة الاولى موضع ذلك المعنى لأنّ الموتة

الماضية محال في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنّه قيل: إن كانت الموتة الاولى يمكن ذوقها في المستقبل فإنّهم يذوقونها.

فإن قيل: أليس أهل النار أيضاً لا يموتون ولا يذوقون الموت فلم بشّر أهل الجنّة بهذا مع أنّ أهل النار يشاركونهم في هذا الأمر؟

فالجواب أنّ البشارة ليست بدوام الحياة بل بدوام الحياة مع سابقة الخيرات واللذّات فظهر الفرق. ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ ربّهم ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وصرف عنهم العذاب على سبيل التأييد.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فعل الله ذلك بهم تفضّلاً منه لأنّه سبحانه خلقهم وأنعم عليهم وركب فيهم العقل وبيّن لهم من الآيات والرسل ما استدلّوا به على وحدانيّة الله وحسن الطاعات فكلّ هذه الأمور تفضّل منه تعالى إليهم فاستحقّوا النعم العظيمة بهذه الأمور ثمّ جزاهم بالحسنة عشر أمثالها فكان ذلك فضلاً أيضاً وإنّما سمّاها فضلاً وإن كانوا مستحقّين بالطّاعات لأنّ سبب الاستحقاق هذه الأمور الّتي ذكرت من امور التكليف وهو فضل منه ولولاها لما نالوا هذه الدرجة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: الظفر بالمطلوب العظيم الشأن.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: سهّلنا القرآن أي ذكّرهم بالكتاب المبين فإنّا هوّنّا عليك ذكره حيث أنزلناه عربيّاً بلغتك ولغة قومك إرادة أن تفهم ويفهم قومك فيذكّروا ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي: فانتظر إن أعرضوا عن قبوله وارتقب مجيء ما وعدناك ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ لأنّ المحسن يترقّب عاقبة الإحسان والمسيء ينتظر عاقبة الإساءة وقيل: المعنى انتظر لهم عذاب الله فإنّهم ينتظرون بك الدوائر أو انتظر نصرك عليهم فإنّهم منتظرون قهرك بزعمهم.

تمّت السورة بحمد الله.

سورة الجاثية

وتسمى سورة الشريعة. مكيّة، إلّا آية ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا....﴾.

فضلها أبيّ بن كعب قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «من قرأ الجاثية ستر الله عورته وسكّن روعته عند الحساب»[1]. وروى أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال: «من قرأ الجاثية كان ثوابها أن لا يرى النار أبدا ولا يسمع زفير جهنّم ولا شهيقها وهو مع محمد صلى الله عليه وآله»[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

ذكر في قوله: ﴿حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ وجوهاً: الأول: أنّ ﴿حمٓ﴾ مبتدء مخبر عنه وتنزيل الكتاب خبره ولا بدّ من حذف مضاف والتقدير: تنزيل حم تنزيل الكتاب و﴿مِنَ اللَّهِ﴾ متعلّق وصلة للتنزيل، الثاني: أن يكون التقدير: هذه

١ـ جوامع الجامع، ج٣، ص٣٣١، و الكشاف، ج٣، ص٥١٤، و المقنع، ص٢٩٩.

٢ـ ثواب الاعمال، ص١١٤، و وسائل الشيعة، ج٦، ص٢٥٥.

حم ثمّ يقول: تنزيل الكتاب واقع من الله. الثالث: أن يكون حم قسماً وجواب القسم ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والتقدير: وحم الّذي هو تنزيل الكتاب إنّ الأمر كذا وكذا والأولى أنّ حم اسم للسورة وخبر لمبتدء محذوف أي هذه السورة مسمّى بحم فيكون هذه حم وتنزيل الكتاب خبر بعد خبر ومصدر اطلق على المفعول.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يمكن أن يكون صفة لله ويمكن أن يكون صفة للكتاب وكونه صفة لله أولى لأنّ ذلك بالنسبة إلى الله على سبيل الحقيقة وإذا جعلناهما صفة الكتاب كان ذلك مجازاً والحقيقة أولى من المجاز على أنّ القرب يوجب الرجحان.

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الّذين يصدّقون بالله وبأنبيائه وهم المنتفعون من الآيات إذا نظروا في السماوات والأرض النظر الصحيح علموا أنّها مصنوعة ولا بدّ لها من صانع وكذلك إذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقّلها من حال إلى حال ومن هيئة إلى هيئة. ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ وكذلك إذا نظروا في خلق ما هو مبثوث على وجه الأرض من صنوف الحيوان وعجائب ما خلقه على اختلاف أنواعها وأجناسها ومنافعها المقصودة منها، دلالات وشواهد و﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ويطلبون اليقين بالتّدبّر والتعمّق. ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: وكذلك اختلافهما في القصر والطول وفي أنّ أحدهما نور والآخر ظلمة ومجيئها على وتيرة واحدة ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أراد به المطر الّذي ينبت به النبات الّذي هو رزق الخلائق سمّي رزقا لأنّه سبب الرزق ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وبسبب ذلك المطر أحيا الأرض بعد يبسها وجفافها ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ يجعلها سبحانه مرّة شمالاً ومرّة جنوباً ومرّة صبا واخرى دبورا وتارة رحمة وتارة عذاباً ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ـ قرئ آيات

بالرفع أي هي آيات، وقرأ حمزة والكسائيّ آيات بكسر التاء ـ أي يتدبّرونها فيعلمون أنّ لهذه الحوادث محدثاً مدبّراً حكيماً لا يشبهه شيء.

وكلّ هذه الأمور المذكورة دلالات على وجود الإله القادر لأنّها مركّبة من الأجزاء وتلك الأجزاء أجسام وقد ذكر غير مرّة أنّ الأجسام من حيث هي متماثلة ووقوع تلك الأجزاء والأجسام بعضها في العمق دون السطح وبعضها في السطح دون العمق لا بدّ لها من مخصّص ومرجّح لأنّك ترى أنّ الأفلاك والعناصر مع تماثلها في تمام الماهيّة الجسميّة اختصّ كلّ واحد منها بصفة معيّنة كالحرارة والبرودة واللّطافة والكثافة من الفلكيّة والعنصريّة وإنّ أجرام الكواكب مختلفة في الألوان مع تماثلها في الجسميّة مثل كمودة زحل وبياض المشتري وحمرة المرّيخ والضوء الباهر للشمس ودرّيّة الزهرة وصفرة عطارد وكون بعضها سعدة وبعضها نحسة وبعضها نهاريّاً ذكراً وبعضها ليليّاً أنثى فجعل هذه الاختلافات والخواصّ لا بدّ وأن يكون من أمرٍ خارج عنها فهي مسخّرة لذلك الأمر والوضع وذلك بتقدير العزيز العليم.

وكذلك كون كلّ فلك مختصاً بحركة من جهة إلى جهة وسرعة وبطوء مع أنّ الحركة مثلا من جهة المشرق إلى المغرب بالنسبة إلى ذلك الفلك أو ذلك الكوكب ليس بأولى من حركته من جانب المغرب إلى المشرق فهذا الاختصاص والتعيين في المدار من غير تخلّف دليل على الفاعل المدبّر المختار.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ
لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ
فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟
مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

أي ما ذكرناه أدلّة اللّه الّتي نصبها للمكلّفين نقرؤها عليك يا محمّد لتقرأها عليهم ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ دون الباطل والتلاوة الإتيان بالثاني في أثر الأوّل في القراءة وقوله: ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾ في محلّ الحال أي متلوة عليك ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: هؤلاء الكفّار إن لم يصدّقوا بما نتلوها عليك فبأيّ حديث وكلام بعد حديث اللّه وهو القرآن وآياته يصدّقون وينتفعون.

والفرق بين الحديث الّذي هو القرآن وبين الآيات أنّ الآيات هي الأدلّة الفاصلة بين الحقّ والباطل فقط أو أنّ الغرض من العطف عطف التفسيريّ ومناط العطف التغاير العنوانيّ يؤمنون ويصدّقون وقرئ تؤمنون على الخطاب.

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ الويل كلمة وعيد يتلقّى بها الكفّار وقيل: هو واد سائل من صديد جهنّم. والأفّاك يطلق على من يعظم كذبه أو يكثر كذبه وإن كان في خبر واحد ككذب مسيلمة في ادّعائه النبوّة والأثيم كثير الآثام يعني الويل لمثل هذا الموصوف.

﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ ويبقى ويقيم على كفره مستكبرا عن الإيمان بالآيات معجباً بما عنده قيل: نزلت في النضر بن الحرث كان يشتري من قصص الأعاجم مثل رستم وإسفنديار ويشغل الناس بها عن استماع القرآن والآية عامّة في كلّ من كان موصوفا بهذه الصفة ويشمل حال القصّاصين الباطل ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ أي: هذا الموصوف بالاستكبار بعد أن سمع الآيات مثل أن لم يسمعها ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ مؤلم.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أي: إذا بلغه شيء من آياتنا ينتقل من مقام الاستكبار إلى مقام الاستهزاء واتّخذ ذلك المعلوم هزؤا وخاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر بذلك المعلوم بل يستهزئ بالآيات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ إشارة إلى الموصوفين بهذه الصفات.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ الوراء اسم يقع على القدّام والخلف وما توارى عنك فهو وراك خلفك كان أو أمامك فالمعنى قدّامهم جهنّم وقيل: المعنى من وراء ما هم من التعزّز والمال والتلذّذ بالدنيا جهنّم.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ ما ملكوه في الدنيا لا ينفعهم فقال: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ وكذلك إنّ أصنامهم لا تنفعهم فقال: ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: إنّ الآلهة الّتي عبدوها ليكون لهم شفعاء ما نفعتهم ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

أي: ﴿هَٰذَا﴾ القرآن الّذي تلوناه والحديث الّذي ذكرناه ﴿هُدًى﴾ ودلالة موصولة إلى التميّز بين الحقّ والباطل من امور الدين والدنيا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا بالآيات لهم أشدّ العذاب والرجز هو أشدّ أنواع العذاب و﴿مِّن﴾ تبيينيّة للعذاب وتنوين عذاب في المواقع الثلاثة للتفخيم.

ثمّ نبّه سبحانه خلقه بالدلائل على توحيده فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: جعله على هيئة لتجري السفن فيه مثل أنّه وضعه أملس السطح يطفوا عليه ما فيه التخلخل كالأخشاب وغيره ولا يمنع الغوص والخرق لميعانه كذلك سخّره لكم لتركبوا في الفلك وتجري الفلك فيه ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ وتطلبوا التجارة والانتقال والرزق من الغوص والصيد وغيرها ﴿مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا النعم المرتّبة على ذلك.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: وسخّر وذلّل لكم معاشر الخلق ما في السماوات من الأمور العلويّة من الشمس والقمر والنجوم والأمطار والثلوج وما في الأرض من الدوابّ والأشجار والنبات والأثمار والأنهار ومعنى تسخيرها لنا بأن خلقها بوضع يمكن انتفاعنا منها على الوجه المضبوط ولو أنّه تعالى أوقف أجرام السماوات والأرض في مقارّها وأحيازها، أو كان يجعل الأرض من الذهب أو الفضّة أو الحديد ما كان يحصل منها الانتفاع لها وقوله: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ واقع موقع الحال أي كائنة هذه الأمور من عنده وحكمته وهو مسخّرها لخلقه أي كل ذلك منه تعالى. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من النعم العظيمة ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة الشأن ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في بدائع صنع اللّه تعالى.

ولمّا بيّن دلائل وحدته وقدرته أتبع ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة بقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أمرهم بالعفو عن الّذين لا يتوقّعون وقائع اللّه بأعدائه، من قولهم لوقائع العرب: أيّام العرب مثل قولهم يوم حليم ويوم ذي قار وهذا الاصطلاح شائع في لسان العرب قال ابن عبّاس: المراد من قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ﴾ أي: أيّام ثواب اللّه ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عقاب الأمم الماضية وقال أكثر المفسّرين: إنّ الآية منسوخة بآية السيف.

وحاصل المعنى العفو عن الّذين نالوكم بالأذى والمكروه ولا يرجون ثوابه بالكفّ عنكم ومعنى ﴿يَغْفِرُوا﴾ تركوا مجازاتهم ولا يكافئوهم ليتولّى اللّه مجازاتهم. القمّيّ: قال: يقول اللّه لأئمّة الحقّ: لا تدعوا على أئمّة الجور حتّى يكون اللّه هو الّذي يعاقبهم. وعن الصادق عليه السلام: «معنى الآية قل للذين آمنوا ومننّا عليهم بمعرفتنا أن يعرّفوا ويعلّموا الّذين لا يعلمون فإذا عرّفوهم فقد غفروا لهم»(١).

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص١١٥٩، و مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٢٤١، و تفسير الاصفي، ج٢، ص١١٥٩، و تفسير الصافي، ج٥، ص٥.

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: ليجزي الله الصابر بسبب صبره وتحمّله والكافر بسبب إساءته وبيان الجزاء في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: طاعة وبراً ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ ويعود ثواب عمله عليه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: وبال إساءته على نفسه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ويكون إليه رجوعكم يوم القيامة إلى حيث لا يملك أحد الإنفاع والإضرار والأمر والنهي غيره فيجازي كلاً على قدر عمله.

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

المقصود بيان أنّه حال قومك كحال من تقدّم فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ نعما كثيرة والنعم على قسمين: نعم الدين ونعم الدنيا ونعم الدّين أفضل من نعم الدنيا فبدأ بذكر نعم الدين بأن قال: آتيناهم ﴿الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ يجوز أن يكون المراد العلم بفصل الحكومات والمعرفة بأحكام الله ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ وهي معلومة. وأمّا نعم الدنيا فهي المراد بقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وذلك لأنّه تعالى وسّع عليهم في الدنيا فأورثهم أموال فرعون وقومه وديارهم ثمّ أنزل عليهم المنّ والسلوى وأعطاهم نصيباً وافراً.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: كانوا أرفع درجة ممّن سواهم في وقتهم وعالمي زمانهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ قال ابن عبّاس: يعني: بيّن لهم من أمر النبيّ أنّه يهاجر من تهامة إلى يثرب ويكون أنصاره أهل يثرب وقيل: المراد من البيّنات آتيناهم أدلّة على امور الدنيا وأعطيناهم حدسا وفهما في امور دنياهم يترتّبون بها أشغالهم وقيل: المراد وآتيناهم معجزات قاهرة على صحّة نبوّتهم.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: فما وقع بينهم الخلاف في الدّين إلّا من بعد ما جاءهم ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم بكتب الله وإنّما اختلفوا وحدث البغي بينهم للعداوة والحسد والأنفة وطلب الرياسة وقيل: المعنى ﴿بَغْيًا﴾ على محمّد وجحوداً لما في كتابهم من نبوّته وصفاته وهذا المعنى قريب من معنى الأوّل. والمقصود من هذا الكلام التعجّب من هذه الحالة لأنّ حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف وهاهنا صار مجيؤه سببا لحصول الخلاف وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم الهداية وإنّما المقصود منه التقدّم والرياسة فلأجل هذا المقصود بغوا وعاندوا وأظهروا الخلاف فقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في مختلفاتهم.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ يا محمّد جعلناك على دين ومنهاج وطريقة بعد موسى وقومه فأمره سبحانه أن يتمسّك بدينه وطريقة كتابه وهو القرآن ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ أي: فاتّبع شريعتك والشريعة السنّة الّتي من سلك طريقها أدّته إلى البغية كالشريعة الّتي هي طريق إلى الماء فهي علامة منصوبة على الطريق من الأمر والنهي يؤدّي إلى الجنّة كما يؤدّي تلك إلى الوصول إلى الماء.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحقّ ولا يفصلون بينه وبين الباطل من أهل الكتاب الّذين غيّروا التوراة اتّباعاً لهواهم وحبّاً للرياسة واستتباعاً للعوامّ ولا المشركين الّذين اتّبعوا أهواءهم في عبادة الأصنام ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ

شَيْئًا﴾ أي: لن يدفعوا عنك شيئا من عذاب الله إن اتّبعت أهواءهم.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: إنّ الكفّار بأجمعهم متّفقون على معاداتك وبعضهم أنصار بعض عليك ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وناصرهم وحافظهم فلا تشغل قلبك بتعاونهم عليك.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ أي: هذا الّذي أنزلته عليك من القرآن معالم في الدين وعظات وعبر للناس يبصرون بها من أمور دينهم ﴿وَهُدًى﴾ أي: دلالة واضحة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: نعمة من الله ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بثواب الله وعقابه لأنّهم المنتفعون به. قال الكلبيّ: إنّ رؤساء قريش اجتمعوا وقالوا للنبيﷺ وهو بمكّة: ارجع إلى ملّة أقوامك فهم كانوا أفضل وأقدم منك فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾

منقطعة بمعنى بل والهمزة للاستفهام الإنكاريّ والاجتراح الاكتساب ومنه الجوارح لأنّها كاسبة قال سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[1].

١ـ سورة الأنعام: ٦٠.

وقيل: «أم» متّصلة وهي كلمة وضعت للاستفهام عن شيء حال كونه معطوفاً على شيء آخر سواء كان ذلك المعطوف مذكوراً أو مقدّراً فحينئذ تقدير الآية: هذا القرآن بصائر للناس مؤدّية إلى الخير أفعلموا ذلك أم حسب الّذين اكتسبوا الشرك والمعاصي أن يجعل منزلتهم منزلة الّذين آمنوا وصدّقوا لله ورسوله ﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ﴾؟ أي: أحسبوا أنّ موتهم وحياتهم كحياة المؤمنين وموتهم؟ ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أي: بئس ما حكموا على الله فإنّه تعالى لا يسوي بينهم بل ينصر الله المسلمين ويخذل الكافرين ينزّل الملائكة عند الموت على المؤمنين بالبشرى وعلى الكافرين يضربون وجوههم وأدبارهم وقيل: أراد محياهم بعد البعث ومماتهم عند حضور الملائكة لقبض أرواحهم. وقيل: المراد إنّ المؤمنين محياهم على الإيمان والطاعة ومماتهم كذلك ومحيى الكافرين على الشرك والمعصية ومماتهم كذلك يموتون مشركين فلا يستويان.

قال الكلبيّ: نزلت الآية في ثلاثة من المؤمنين: عليّ عليه السلام وحمزة وأبي عبيدة بن الجرّاح[1].

وثلاثة من المشركين عتبة وشيبة والوليد بن عتبة لأنّهم قالوا: للمؤمنين ما أنتم على شيء ونحن لو كان على ما تقولون الأمر لنكون في الآخرة أفضل منكم كما أنا في الدنيا أفضل منكم فنزلت: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ﴾ الآية، ونظيره ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾[1] وكان الفضيل بن عياض إذا

١ـ هكذا في تفسير الأمام الرازي، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة هم الثلاثة الذين برزوا إلى المسلمين يوم بدر، فخرج إليهم ثلاثة فتية من الأنصار ولما علموا أنهم من الأنصار نادوا يا محمّد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا؛ فأمر رسول الله حمزة وعليا وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بالبراز، ومن هنا يتأكد ان أبى عبيدة ابن الجراح سهو والصحيح عبيدة بن الحارث.

١ـ سورة السجدة: ١٨.

يقرء هذه الآية جعل يرددها ويبكي ويقول: يا فضيل ليت شعري مَن أيّ الفريقين أنت؟

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ لأنّ فيه معنى التعليل أي خلق الله السماوات والأرض للدلالة على وجوده وقدرته ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ بعمله إن خيرا فخير وإن شرًا فشرّ من غير ظلم.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ وقرئ آلهته. وفي الآية معنى التعجّب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكانّه عبده، أي أنظرت فرأيته يتّخذ دينه ما يهواه ولا يؤمن بالله ولا يخافه ولا يحجزه تقوى؟ وما يهواه يعبده وكان أحدهم يعبد الحجر فإذا رأى ما هو أحسن منه وأزين رمى به وعبد الآخر فقد عبد آلهة شتّى. ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: خذله الله عالماً بضلاله وتبديله لفطرة الله الّتي فطره عليها وخلّاه وما اختاره جزاء له على كفره وترك تدبّره وقيل: معنى ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ أي وجده ضالًّا بسبب علمه كما يقال: أحمدت فلانا أي وجدته حميدا كقول عمرو بن معدي كرب: «قاتلناهم فما أجبنّاهم وسألناهم فما أبخلناهم» أي ما وجدناهم جبناء بخلاء. وقيل: معنى ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ أي ضلّ عن الله. قال الشاعر:

هبوني امرءا منكم أضلّ بعيره ... لــه ذمّــة إنّ الــذمام كبيــر

أي ضلّ عنه بعيره.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ختم الله على سمعه وقلبه وعينه من بعد تعاميه عن الهدى وتماديه في الغيّ بسوء اختياره وكفره فمن بعد ضلاله. من يهديه من بعد الله أفلا تتّعظون بهذه المواعظ وهذا استبطاء بالتذكّر منهم أي تذكّروا.

ثمّ أخبر سبحانه عن منكري البعث فقال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي: ليس الحياة إلّا حياتنا الّتي نحن فيها في الدنيا ولا يكون بعد الموت بعث ولا حساب ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وقرئ نحيا بضمّ النون في معناه أقوال: أحدها: يعني: نحيا ونموت فقدّم وأخّر والثاني: نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا والثالث: يموت بعضنا ويحيا بعضنا ويمكن أن يريد به التناسخ فإنّه عقيدة أكثر عبدة الأوثان.

ثمّ جمعوا بين إنكار الإله والبعث والقيامة بقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ومقصودهم أنّ تولّد الأشخاص إنّما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع وإذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطّبائع فهذا هو المراد من قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. فقال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ نفى عنهم العلم لجهلهم بسبب نسبتهم ذلك إلى الدهر ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ما هم فيما ذكروه إلّا ظانّون وقد روي في الحديث قال ﷺ: **«لا تسبّوا الدهر فإنّ الله هو الدهر»** أي فإنّ اللّه هو الآتي بالحوادث لا الدهر لأنّ الدهر هو مخلوق مقهور وكان أهل الجاهليّة ينسبون الحوادث والبلايا النازلة إلى الدهر ويقولون: فعل الدهر كذا وكانوا يسبّون الدهر؛ فقال ﷺ: **«لا تسبّوا الدهر فإنّ الدهر لا يحدث أمرا فلا تسبّوا فاعلها»**. ونسبة الحوادث إلى الدهر كان شائعاً فيهم قال الأصمعيّ: ذمّ أعرابيّ رجلا فقال: هو أكثر ذنوباً من الدهر وقال كثيّر:

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ... ورجل رمى فيها الزمان فشلّت

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وذكروا هذه الشبهة الضعيفة حجّة بزعمهم وأنكروا البعث بقولهم:

فائتوا بآبائنا الّذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحّة البعث وليس هذه الكلمة الواهية بشيء لأنّه ليس كلّ ما لا يحصل في الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول فإنّ حصول كلّ واحد منّا كان معدوما من الأزل إلى الوقت الّذي حصلنا فيه ولو كان عدم الحصول في وقت معيّن يدلّ على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك وذلك باطل بالاتّفاق. ثمّ قال سبحانه:

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ في دار الدنيا ولا يقدر أحد على الإحياء غيره ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بأن يبعثكم ويعيدكم أحياء ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شكّ في وقوعه لأنّ من قدر على فعل الحياة في وقت قدر على فعلها في كلّ وقت ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بعدولهم عن النظر الموجب للعلم بصحّته ولمّا بيّن أنّه القادر على الإحياء والإماتة عمّم الدليل فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له القدرة على جميع الممكنات. ثمّ ذكر تفاصيل أحوال القيامة في الجملة:

فأولها: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وعامل النصب في يوم فعل يخسر ويومئذ بدل من يوم يقوم واعلم أنّ الحياة والعقل والصحّة رأس المال للإنسان في تحصيل السّعادة كتصرّف التّاجر في رأس ما له في التجارة وطلب الرّبح والمبطلون أسرفوا رأس ما لهم في الكفر وطلب الشّقاوة فما وجدوا إلّا الخذلان فكان ذلك نهاية الخسران.

وثانيها: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ والجثوّ الجلوس على الركب كما يجثى بين يدي الحاكم وقرئ «جاذية» والجذوّ أشدّ من الجثوّ لأنّ الجاذي هو الّذي يجلس على أطراف الأصابع، والحاصل أنّ الامّة مجتمعة مرتقبة لما يعمل بها.

ثمّ قال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ أي: إلى صحائف أعمالها فاكتفى باسم الجنس ويقال لهم: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَٰذَا كِتَابُنَا﴾ ونسبة الكتاب إليهم لأنّه المشتمل على أعمالهم ونسبة الكتاب إليه تعالى أيضاً لأنّه هو الّذي أمر الملائكة بكتبه. ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ ويشهد بما عملتم من غير زيادة ونقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نستكتب الملائكة أعمالكم.

وفي «الكافي» والقمّيّ عن الصادقعليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «**إنّ الكتاب لم ينطق ولن ينطق ولكن رسول الله هو الناطق بالكتاب قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يُنطَقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ بضمّ الياء وفتح التاء**». فقيل: إنّا لا نقرؤها هكذا فقالعليه السلام: «**هكذا والله أنزل بها جبرئيل على محمّد ولكنّه ممّا حرّف من كتاب الله**»[1]. وعن الصادقعليه السلام أنّه سئل عن ﴿نٓ وَالْقَلَمِ﴾ قال: إنّ الله خلق القلم من شجرة في الجنّة يقال له: الخلا، ثمّ قال: لنهر في الجنّة: كن مداداً فجمد النهر وكان أشدّ بياضاً من الثلج وأحلى من الشهد ثمّ قال: للقلم: اكتب فقال: يا ربّ وما أكتب؟ قال: اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فكتب القلم في رقّ أشدّ بياضا من الفضّة وأصفى من الياقوت ثمّ طواه فجعله في ركن العرش ثمّ ختم على فم القلم فلم ينطق ولا ينطق أبدا فهو الكتاب المكنون الّذي منه النسخ كلّها أو لستم عرباً فكيف لا تعرفون معنى الكلام وأحدكم يقول لصاحبه: انسخ ذلك الكتاب أو ليس إنّما ينسخ من كتاب آخر هو

١ـ الكافي، ج٨، ص٥٠، و تفسير القمي، ج٢، ص٢٥٩.

الأصل وهو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

وفي «سعد السعود» في حديث الملكين الموكّلين بالعبد إنّهما إذا أرادا النزول صباحاً ومساء ينسخ لهما إسرافيل عمل العبد من اللوح المحفوظ فيعطيهما ذلك فإذا صعدا صباحاً ومساء يدنوان عمل العبد قابله إسرافيل بالنسخ الّتي استنسخ لهما حتّى يظهر أنّه كان كما نسخ منه.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: في جنّته وثوابه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي الفلاح الظاهر.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ
﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ
إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا
وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا
وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ
الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

قالت المعتزلة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾: إنّه سبحانه ذكر بعد وصفهم بالإيمان كونهم عاملين للصالحات فوجب أن يكون عمل الصالحات مغايراً للإيمان زائداً عليه وعلّق الدخول في رحمته على كونه آتياً بالإيمان والأعمال الصالحة والمعلّق على

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٢٧٩، و الصافي، ج٦، ص٤٤٠، و الكشاف، ج٣، ص٥١٣، و تفسير جامع الجوامع، ج٣، ص٣٣٩.

مجموع أمرين يكون عدماً عند عدم أحدهما فعند عدم الأعمال الصالحة وجب أن لا يحصل الفوز بالجنّة.

وأجاب الأشاعرة بأنّ تعليق الحكم على الوصف لا يدلّ على عدم الحكم عند عدم الوصف.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يقال لهم: أفلم تكن بيّناتي وحججي تقرء عليكم ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: تعظّمتم عن قبولها وصرتم بسبب الاستكبار كافرين كما قال سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾.

قالت الأشاعرة: إنّه تعالى علّل استحقاق العقوبة بأنّ آياته تليت عليهم فاستكبروا، وهذا يدلّ على أنّ استحقاق العقوبة لا يحصل إلّا بعد مجيء الشرع فالواجبات لا تجب إلّا بالشرع خلافاً لما يقوله المعتزلة من أنّ بعض الواجبات قد تجب بالعقل.

أقول: وفي كلام الأشاعرة نظر لأنّ بعض الواجبات والمحرّمات ثبت وجوبه وحرمته بالعقل مع قطع النظر عن الشرع كحسن الإحسان وقبح الظلم.

فإن قيل: كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرماً في معرض الذمّ له قيل: والمراد أنّ الكفّار قد يكونون عدولا في أديانهم وهؤلاء فسّاق في ذلك الدين وجواب الاستفهام محذوف والفاء في ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ﴾ يدلّ عليه والتقدير: فأمّا الّذين كفروا فيقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ﴾ الآية.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: إنّ ما وعد الله من الثواب والعقاب كائن ثابت لا محالة ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ آتية ﴿لَا رَيْبَ﴾ في وقوعها ﴿قُلْتُم﴾ معاشر الكفّار ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ وأنكرتموها ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ وذلك لأنّ القوم كانوا في هذه المسألة على قولين منهم من كان قاطعاً بنفي البعث والقيامة وهم الّذين ذكرهم الله في الآية السابقة بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا

﴿حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ومنهم من كان يظهر التحيّر في وقوعه ولكثرة ما سمعوه من الرسول صاروا يظهرون الشكّ فيه وهم الّذين ذكرهم اللّه في هذه الآية والّذي يدلّ على هذا المعنى أنّه تعالى حكى مذهب أولئك القاطعين ثمّ أتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الأوّل.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: ظهر لهم جزاء معاصيهم الّتي عملوها في الآخرة وقد كانوا يعدّونها حسنات ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ونزل بهم وثبت واستقرّ لهم جزاء تكذيبهم واستهزائهم وهذا كالدليل على أنّ هذه الفرقة لمّا قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ إنّما ذكروه على وجه السخريّة فعلى هذا الوجه فهذا الفريق شرّ من الفريق الأوّل لأنّهم ضمّوا إلى الإنكار الاستهزاء.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ﴾ أي: نترككم في العذاب كما نسيتم لقاء يومكم هذا اليوم وتركتم التأهّب للقاء يومكم ونحلّكم في العذاب محلّ المنسيّ كما أحللتم هذا اليوم عندكم محلّ المنسيّ ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: مستقرّكم جهنّم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يدفعون عنكم عذاب اللّه.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: ذلكم الّذي فعلنا بكم لأجل أنّكم استهزأتهم بآيات اللّه تسخرون بها وبسبب أنّكم استغرقتم في حبّ الدينا والإعراض بالكلّيّة عن الآخرة وهو المراد من قوله: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وخدعتكم بزينتها ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بفتح الباء في ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم أن يعتبوا ربّهم أي يرضوه وغير مأذونين في الاعتذار لأنّ التكليف قد زال وقيل: معناه: لا يقبل منهم العتبى.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: احمدوا اللّه حمداً وشكراً تامّاً أو الحمد التامّ والمدحة الّتي لا يوازيها مدحة للّه الّذي خلق

السماوات والأرض ودبّرهما وخلق العالمين ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ أي: السلطان القاهر والعلوّ والشأن في السماوات والأرض ولا يستحقّه أحد غيره وفي الحديث قال اللّه سبحانه: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني ألقيته في جهنّم ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في حكمه وجلاله ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقيل: معناه العزيز في انتقامه من الكفّار والحكيم في ما يفعله بالمؤمنين والكلام مفيد للحصر.

تمّت السورة والحمد للّه حمداً دائما طيّباً مباركاً مخلّداً مؤبّداً كما يليق بشأنه وعظيم إحسانه والصلاة على الأرواح الطاهرة المقدّسة من ساكني أعالي السماوات ونجوم الأرضين من الملائكة والأنبياء والأولياء خصوصاً على خير خلقه محمّد وخلفائه الأئمّة المرضيّين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

سورة الأحقاف

مكّيّة، إلّا آية منها نزلت بالمدينة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ....﴾ نزلت في عبد الله بن سلام.

عن أبيّ بن كعب عن النبي قال: «ومن قرأ سورة الأحقاف أعطي من الأجر بعدد كلّ رمل في الدنيا عشر حسنات ومحي عنه عشر سيّئات ورفع له عشر درجات»[1]؛ وعن عبد الله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله قال: «من قرأ كلّ ليلة أو كلّ جمعة سورة الأحقاف لم يصبه الله بروعة في الدنيا وآمنه من فزعة يوم القيامة»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟
مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ
ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ
عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن
لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٣٦، و نور الثقلين، ج٥، ص٧

٢ـ ثواب الاعمال، ص١١٤، و بحار الانوار، ج٨٦، ص٣١٠.

﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ مرّ تفسيره ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: ما خلقناهما عبثا ولا باطلا وإنّما خلقناهما لتتعبّد سكّانها بالأمر والنهي ونعرضهم الثواب وضروب النعم والخلق عبارة عن التقدير وآثار التقدير ظاهرة في السماوات والأرض.

قالت المعتزلة: هذا يدلّ على أنّ كلّ ما في السماوات والأرض من القبائح فهو ليس من خلقه بل هو من أفعال عباده وإلّا لزم أن يكون خالقا لكلّ باطل وذلك ينافي قوله: ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾.

وأجاب الأشاعرة بأنّه هو الّذي خلق الباطل إلّا أنّه خلق ذلك الباطل بالحقّ لأنّ ذلك تصرّف منه تعالى في ملك نفسه وتصرّف المالك في ملك نفسه يكون بالحقّ لا بالباطل وقالوا: إنّ أعمال العباد من جملة ما بين السماوات والأرض فهي مخلوقة للّه.

والجواب: أنّ أفعال العباد أعراض والأعراض لا توصف بأنّها حاصلة بين السماوات والأرض ثمّ إنّ اللّه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحقّ وما خلق الباطل والّذي خلقه هو الحقّ لكن سوء اختيار العبد غيّر الحقّ وجعله باطلا ومثاله أنّ الطاهي يصنع طعاما يتّخذ من اللّحوم والأبازير ويطبخه على أحسن تركيب ويقدّمه للضيف فيتسرّع إليه طفل أو مجنون فيلقي في ذلك الطعام جفنة من علقم أو ملح فغيّره بحيث لا يؤكل من ذلك الطعام بل لا يمكن الذوق منه لفرط مرارته فهل يمكن أن يقال: إنّ الطاهي أفسد هذا الطعام وأضاعه فكذا هنا، تعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا. ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ يعني: يوم القيامة فإنّه أجل مسمّى عنده سبحانه ومطويّ عن العباد علمه إذا انتهى إليه تناهى وقامت القيامة وقيل: هو مسمّى للملائكة وفي اللّوح المحفوظ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ أي: إنّ الكافرين عمّا

أنذروا من القيامة والجزاء معرضون وعادلون عن قبوله والتفكّر فيه.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ـ صلّى الله عليك ـ لهؤلاء الّذين كفروا: ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أخبروني من الأصنام الّتي تعبدونها ﴿أَرُونِى﴾ تأكيد لأرأيتم ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وما الّذي أبدعوه وأظهروه من العدم إلى الوجود ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في خلقها وتركيبها.

ثمّ قال سبحانه: قل لهم: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي: قبل هذا القرآن أنزله الله يدلّ على صحة قولكم ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بقيّة من علم يؤثر من كتب الأوّلين تعلمون به أنّهم شركاء لله أو خبر من الأنبياء السالفة يقولون بهذا الأمر فيكون يتوهّم لهم شائبة استحقاق المعبوديّة فائتوا به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قال المبرّد: الأثارة ما يؤثر ويبقى من علم لقولك: هذا الحديث مأثور عن فلان ومن هذا المعنى سمّيت الأخبار بالآثار كأنّها بقيّة يستخرج فيؤثر وقرئ «أثرة» أي من شيء أوثرتم وخصصتم به.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: من أضلّ عن طريق الصواب ممّن يدعو غير الله شيئا لو دعاه إلى يوم القيامة لم يجبه ولم يغثه ولا يستجيب له أبدا ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي: المعبودون مع ذلك عن دعاء العابدين غافلون وجاهلون لأنّهم جمادات وليس لها إدراك وكنّي عن الأصنام بجمع العاقل على زعمهم نحو ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾.

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ

عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

المعنى: ذكر سبحانه أنّه إذا قامت القيامة صارت آلهتهم الّتي عبدوها أعداء لهم مثل قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾[1] ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ أي إنّ هذه الأوثان الّتي عبدوها ينطقهم الله حتّى يجحدوا ويكفروا بعبادة الكفّار لهم.

ثمّ وصفهم الله سبحانه فقال: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ أي: للقرآن والمعجزات الّتي ظهرت على يدي النبيّ ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ أي: حيلة لطيفة ظاهرة وخداع بيّن.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾ ولمّا بيّن سبحانه أنّهم يسمّون المعجزة بالسحر بيّن أنّهم متى سمعوا القرآن قالوا: إنّ محمّد افتراه واختلفه من عند نفسه ومعنى الهمزة في ﴿أَمۡ﴾ للإنكار والتعجّب كأنّه قيل: دع هذا واسمع القول المنكر العجيب بأنّهم أضربوا عن الكلام القبيح الأوّل من تسميتهم الآيات سحراً إلى ذكر قولهم إنّ محمّدا افتراه، قل يا محمّد لهم: إن اختلفته على سبيل الفرض وكذبت على الله كما زعمتم عاجلني الله لا محالة بعقوبة الافتراء ولا تقدرون على كفّه عن عقوبته سبحانه إيّاي ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾ ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عنّي فكيف أتعرّض لعقابه؟ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ﴾ أي: إنّ الله أعلم بما تقولون وتخوضون في القرآن من التكذيب به والقول فيه بأنّه سحر ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾ أي: في به سبحانه شاهداً أنّ القرآن جاء من عنده ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في تأخير العقاب عنكم حين لا يعجل بالعقوبة وهو وعد لمن رجع عن الكفر وتاب واستعان بحكم الله عليهم مع عظم ما ارتكبوه.

١ـ سورة مريم: ٨٢.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: لست بأوّل رسول بعث، والبدع الأوّل من الأمر، فلا ينبغي أن تنكروا إخباري بأنّي رسول اللّه إليكم ولا تنكروا دعوتي لكم إلى التوحيد ونهيي عن عبادة الأصنام فإنّ كلّ الرسل إنّما بعثوا بهذا الطريق وذلك أنّهم كانوا يعيبونه بأنّه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وبأنّه فقير وبأنّ أتباعه فقراء فقال سبحانه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ بل كانوا كلّهم بهذه المثابة فهذه الأشياء لا تقدح في نبوّتي كما لا تقدح في نبوّتهم.

﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ في تفسير الآية وجهان:

الأوّل: أن تحمل على أحوال الدنيا أي لا أدري أأموت أم اقتل ولا أدري أيّها المكذّبون ما يفعل بكم أترمون بالحجارة من السماء أم يخسف بكم الأرض أم ليس يفعل بكم ما فعل بالأمم المكذّبة وهذا هو في الدنيا وأمّا في الآخرة فإنّه علم بسبب خبر اللّه أنّه في الجنّة أو المعنى لست أدّعي غير الرسالة ولا أدّعي علم الغيب ولا معرفة لي فيما يفعل اللّه بي ولا بكم من الإحياء والإماتة والمنافع والمضارّ إلّا أن يوحى إليّ وقيل: المعنى ما أدري ما اؤمر به ولا تؤمرون به في باب التكليف والشرائع إلّا ما أوحاه اللّه إليّ وقيل: ما أدري أأترك بمكّة أو أخرج منها.

قال: ابن عبّاس: في رواية الكلبيّ عنه لمّا اشتدّ البلايا بأصحاب رسول اللّه ﷺ بمكّة رأى في المنام ﷺ أنّه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء فقصّها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا أنّ ذلك فرج ممّا هم فيه من أذى المشركين ثمّ إنّهم مكثوا بذلك برهة من الزمان لا يرون أثر ذلك فقالوا: يا رسول اللّه ما رأينا الّذي قلت ومتى نهاجر إلى الأرض الّتي رأيتها في المنام؟ فسكت النبيّ ﷺ فأنزل اللّه الآية: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾[1].

١ـ التبيان، ج٩، ص٢٧١، و تفسير الرازي، ج٢٨، ص٨.

وأمّا الوجه الثاني: أنّ المراد من الآية يكون في أحوال الآخرة كما زعم بعض وهذا القول ضعيف جداً! قال ابن عبّاس لمّا نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا: كيف نتّبع نبيّا لا يدري ما يفعل به وبنا فأنزل الله ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فبيّن سبحانه ما يفعل به وبمن اتّبعه وشرحت هذه الآية وأرغم الله أنف المنافقين والمشركين. واعلم أنّ أكثر المحقّقين أنكروا الوجه الثاني وهو كون المراد في معنى الآية الأحوال الآخرة لوجوه:

الاول: أنّ النبيّ ﷺ لا بدّ وأن يعلم كونه نبيّا ومتى علم كونه نبيّا علم أنّه لا تصدر عنه الكبائر وأنّه مغفور له وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكّا في أنّه هل هو مغفور له أم لا؟

الثاني: لا شكّ أنّ الأنبياء أرفع حالا وشأناً من الأولياء فلمّا قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] فكيف يعقل أن يبقى الرسول الّذي هو رئيس الأتقياء وقدوة الأنبياء والأولياء شاكّاً في أنّه هل هو من المغفورين أو من المعذّبين؟

الثالث: أنّه تعالى قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2] والمراد منه كمال حاله ونهاية قربه من حضرة الله تعالى ومن هذا حاله كيف يليق به أن يبقى شاكّا في أنّه من المعذّبين أو من المغفورين؟ فثبت أنّ هذا ضعيف. وقرأ الزّمخشريّ بفتح الياء في ﴿يُفْعَلُ﴾ على المعلوم.

ثمّ قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي لا أقول قولا ولا أعمل عملاً إلّا بمقتضى الوحي ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كانوا يطالبونه ﷺ بالمعجزات

١ـ سورة الأحقاف: ١٣.

٢ـ سورة الأنعام: ١٢٤.

العجيبة ويقترحون منه وبالإخبار عن الغيوب فقال سبحانه: قل ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بيّن الإنذار أنذركم عقاب الله.

واحتجّ نفاة القياس بهذه الآية قالوا: النبيﷺ ما قال قولاً ولا عمل عملاً إلّا بالنصّ الّذي أوحاه الله إليه فوجب أن يكون حالنا كذلك لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾[1].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ ثمّ قال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: أرأيتم أي أخبروني وماذا تقولون إن كان هذا القرآن من عند الله هو أنزله؟ ﴿وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ حال بإضمار «قد» وجواب الشرط هاهنا محذوف تقديره: إن كان القرآن من عند الله والحال أنكم كافرين به ألستم ظالمين وخاسرين؟

ويدلّ على هذا المحذوف قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وجواب الشرط قد يحذف مثل هذه الآية ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾[2] الآية، وقد يذكر مثل قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم﴾[3].

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ والضمير في مثله راجع إلى القرآن وهو التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك ويدلّ عليه ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾[4] و﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾[1].

١ـ سورة النور: ٦٣.

٢ـ سورة الرعد: ٣٠.

٣ـ سورة القصص: ٧٢.

٤ـ سورة الشعراء: ١٩٦.

١ـ سورة الأعلى: ١٨.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾[1]. ويجوز أن يكون المعنى إن كان من عند اللّه وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك يعني: كونه من عند اللّه.

والمراد في الآية من الشاهد قيل: عبد اللّه بن سلام وقيل: الشاهد موسى شهد على التوراة كما شهد النبيّ على القرآن. وقالوا: لا يمكن أن يكون الشاهد عبد اللّه بن سلام لأنّ السورة مكيّة وعبد اللّه أسلم في المدينة. وأجيب عن ذلك بأنّ الآية مدنيّة والسورة مكيّة وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول اللّه بأن يضعها في سورة كذا فهذه الآية نزلت في المدينة وإنّ اللّه أمر رسوله بأن يضعها في هذه السورة المكيّة في هذا الموضع المعيّن.

قال صاحب «الكشّاف»: إنّه لمّا قدم رسول اللّهﷺ المدينة فأتاه عبد اللّه بن سلام ونظر إلى وجه النبيّﷺ وتأمّله فعرف أنّهﷺ ليس بوجه كذّاب وتحقّق أنّه هو النبيّﷺ المنتظر.

فقال له عبد اللّه: إنّي سائلك عن ثلاث ما يعلمهنّ إلّا النبيّ: ما أوّل أشراط الساعة وما أوّل طعام يأكله أهل الجنّة والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمّه؟ فقالﷺ: **«أمّا أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم وتجمعهم من المشرق إلى المغرب وأمّا أوّل طعام يأكله أهل الجنّة فزيادة كبد الحوت وأمّا الولد فإذا سبق ماء الرجل نزع له وإن سبق ماء المرأة نزع لها»**. فقال عبد اللّه: أشهد أنّك لرسول اللّه حقّا.

ثمّ قال عبد اللّه: يا رسول اللّه إنّ اليهود قوم بهت وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عنّي بهتوني عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبيّﷺ: **«أيّ رجل عبد اللّه عندكم؟»** فقالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيّدنا وابن سيّدنا وأعلمنا وابن أعلمنا فقال: **«أرأيتم إن أسلم عبد اللّه»**. فقالوا: أعاذه اللّه من ذلك فخرج عليهم عبد اللّه وقال: أشهد أن لا إله إلّا اللّه وأشهد أنّ محمّدا رسول اللّه

١ـ سورة الشورى: ٣.

فقالوا: شرّنا وابن شرّنا وانتقصوه فقال عبد اللّه: هذا ما كنت أخاف يا رسول اللّه. فقال سعد بن أبي وقّاص: ما سمعت رسول اللّه يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنّه من أهل الجنّة إلّا لعبد اللّه بن سلام وفيه نزل: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾.

لكن بعض أنكروا هذا المعنى كما ذكرنا قبل هذا في أوّل الآية وقالوا: إنّ الإخبار عن المسائل الثلاث إخبار عن وقوع شيء من الممكنات العاديّات وما يكون هذا سبيله فإنّه لا يعرف صدقه إلّا إذا عرف أوّلا كون المخبر صادقا فلو أنّا عرفنا صدق المخبر بكون ذلك الخبر صدقا لزم الدور وإنّه محال. ثمّ إنّ الجوابات المذكورة عن الأسئلة لا يبلغ العلم بها إلى حدّ الإعجاز.

لكن يمكن الجواب عن هذا الإيراد أنّه جاء في بعض كتب الأنبياء أو التوراة أنّ رسول آخر الزّمان يسئل عن هذه المسائل وهو يجيب بهذه الجوابات وكان عبد اللّه عالماً بهذا المعنى فلمّا سأل النبيّ وأجابﷺ عرف بهذا الطريق كونه رسولا حقّا[1].

ثمّ أخبر سبحانه وقال: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ أي آمن الشاهد وكفرتم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بسبب قبولهم الظلم وهو الكفر وإنّما منعهم الهداية لفعل القبيح الّذي صدر منهم لكونهم ظالمين أنفسهم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ

١ـ الكشاف، ج٣، ص٥١٨.

خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

هذه شبهة اخرى للقوم في إنكار نبوته ﷺ وذلك أنّه لما أسلمت جهينة وأسلم وغفار قال بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع وهم كانوا أقوياء: لو كان هذا خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء رعاء البهم، وهؤلاء الصعاليك والفقراء والأراذل مثل عمّار وصهيب وابن مسعود وأمثالهم.

وقيل: إنّه كانت أمة لعمر أسلمت قبل أن يسلم عمرو كان عمر يضربها حتّى يفتر ويقول: لو لا إنّي فترت لزدتك ضرباً فكان كفّار قريش يقولون: لو كان ما يدعو محمّد حقّا ما سبقتنا إلى قبول دينه فلانة.

وقيل: كان اليهود يقولون هذا الكلام عند إسلام عبد الله بن سلام.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: فإن لم يهتدوا بالقرآن من حيث لم يتدبّروه فسيقولون هذا القرآن كذب متقادم وأساطير الأوّلين والقديم في اللغة ما تقادم وجوده وفي عرف المتكلّمين هو الموجود الّذي لا أوّل لوجوده.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: وتقدّمه كتاب موسى وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ يقتدى به كما يقتدى بالإمام ورحمة من الله للمؤمنين به قبل القرآن وفي الكلام حذف والتقدير وكان قبل القرآن كتاب موسى فلم يهتدوا به ودلّ على المحذوف قوله تعالى في الآية الاولى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ وذلك أنّ المشركين لم يهتدوا بالتوراة فيتركوا عبادة الأوثان ويعرفوا منه صفة محمّد كما هو مذكور فيه.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ أي: القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ للكتب الّتي قبله ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ وذكر اللسان تأكيدا كما تقول: جاءني زيد رجلا صالحا فذكر رجل للتأكيد أي إنّ هذا القرآن مصدّق لكتاب موسى في أنّ محمّدا رسول حقّ من عند الله لكونهﷺ مذكور النعت في التوراة ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فإسناد الإنذار إلى الكتاب كما أسند إلى الرسول وقرئ بالتاء على الخطاب ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وبشارة لهم أو ويبشّر الكتاب بشرى أو في موضع الرفع أي: وهو بشرى للموحّدين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ بيان صفة الموحّدين أي الّذين وحّدوا الله واستقاموا في امور الدين على العمل به وفي الآية دلالة على تراخي مرتبة العمل عن التوحيد ووجوب العمل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات محبوب وقال أهل التحقيق: خوف العقاب زائل عنهم وأمّا خوف الجلال والهيبة فلا يزول عن العبد البتّة ألا ترى أنّ الملائكة مع علوّ درجاتهم وعصمتهم لا يزول الخوف عنهم فقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: هؤلاء الموصوفين ملازمون الجنّة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مؤبّدين ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجزون جزاء في الدنيا من الطاعات والأعمال الصالحة.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ قرئ «إحسانا» حسناً بضمّ الحاء وسكون السين ومن قرأ إحسانا فحجّته مثل قوله تعالى في سورة بني إسرائيل ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[1] والإحسان ضدّ الإساءة ومن قرأ حسنا فالمعنى أمرناه بأن يوصل إليهما فعلا حسنا وسمّي ذلك الفعل الحسن

١ـ سورة الأسراء:٢٣.

بالحسن على سبيل المبالغة كما يقال: زيد عدل وهذا الرجل علم وكرم.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ قرئ كرها بضمّ الكاف وبفتحها هما لغتان مثل الضعف والضعف في المصادر، وفي غير المصادر مثل الدفّ والدفّ والشهد والشهد فما كان مصدرا أو في موضع الحال فالفتح أحسن مثل قوله: ﴿أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾[1] وما كان اسماً كان الضمّ أحسن مثل قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[2].

قال المفسّرون: حملته امّه كرهاً أي حملته على مشقّة وليس يريد ابتداء الحمل فإنّ ذلك لا يكون مشقّة لأنّه تعالى قال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ يريد ابتداء الحمل فإنّ حمل النطفة والعلقة والمضغة لا يكون مشقّة فإذا أثقلت فحينئذ حملته كرها ووضعته كرها يريد شدّة الطلق.

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ والمراد من الفصال الرضاع التامّ المنتهى به فإذا كان المراد من الآية مدّة الحمل والرضاع فكيف عبّر عنه بالفصال لأنّ الرضاع ينتهي إلى الفصال ويتمّ الرضاع بالفصال ويؤول إليه فسمّي فصالاً كما سمّي المدّة بالأمد. قال الشاعر:

كلّ حيّ مستكمل مدّة الـ ... ـعمر وبور إذا انتهى أمده

وفي الآية دلالة على أنّ أقلّ الحمل ستّة أشهر لأنّه لما كان مجموع مدّة الحمل والرضاع ثلاثون شهرا وقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾[1] فإذا أسقطت الحولين وهي أربعة وعشرون شهرا من الثلاثين بقي مدّة الحمل ستّة أشهر.

١ـ سورة النساء: ١٨.

٢ـ سورة البقرة: ٢١٦.

١ـ سورة البقرة: ٢٣٣.

قال الرازيّ: روي عن عمر أنّ امرأة رفعت إليه وكانت قد ولدت بستّة أشهر فأمر عمر برجمها. فقال عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: «لا رجم عليها». وذكر الآية. وعن عثمان أنّه همّ أيضاً بذلك فقرأ ابن عبّاس عليه ذلك فامتنع عن الرجم[1].

واعلم أنّ الآية دالّة على أنّ حقّ الأمّ أعظم لأنّه تعالى ذكرهما أوّلا ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ فذكرهما معا ثمّ خصّ الأمّ بالذكر فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ الآية، وذلك يدلّ على أنّ حقّها أعظم لأنّ وصول المشاقّ إليها أكثر والأخبار كثيرة في هذا الباب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ وهو ثلاث وثلاثون سنة على قول ابن عبّاس؛ وقيل: بلوغ الحلم وقيل: وقت قيام الحجّة عليه وقيل: هو أربعون سنة وذلك وقت نزول الوحي على الأنبياء إلّا عيسى بن مريم فإنّ الله جعله نبيًا من أوّل عمره وروي أنّه جاء جبرئيل إلى النبيّ فقال: يؤمر الحافظان أن ارفقا بعبدي في حداثة سنّه حتّى إذا بلغ الأربعين قيل لهما: احفظا وحقّقا ولذلك فسّر به ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وذلك بيان لزمان الأشدّ وأراد بذلك أنّه يكمل له عقله ورأيه عند الأربعين وذلك إذا اكتهل.

وحكي عن أرسطاطاليس أنّه قال: أزمنة الولادة وحبل الحيوان مضبوطة سوى الإنسان فربّما وضعت الحبلى لسبعة أشهر وربّما وضعت في الثامن وقلّما يعيش المولود في الثامن إلّا في بلاد معيّنة مثل مصر وقد يكون لستّة أشهر ومن المعلوم أنّ مراتب سنّ الحيوان ثلاثة لأنّ الحرارة الغريزيّة والرطوبة الغريزيّة غالبة في أوّل العمر وناقصة في آخر العمر والانتقال من الزيادة إلى النقصان لا يعقل حصوله إلّا إذا حصل الاستواء في وسط هاتين المدّتين. فمدّة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

١ـ تفسير الرازي، ج٢٨، ص١٥.

أولها: أن تكون الرطوبة الغريزيّة زائدة على الحرارة الغريزيّة وحينئذ يكون الأعضاء قابلة للتمدّد في ذواتها وللزيادة في الطول والعرض والعمق وهذا هو سنّ النشوء والنماء.

والمرتبة الثانية: وهي المرتبة المتوسّطة أن تكون الرطوبة الغريزيّة وافية بحفظ الحرارة الغريزيّة من غير زيادة ولا نقصان وهذا هو سنّ الوقوف وهو سنّ الشباب.

والمرتبة الثالثة: وهي المرتبة الأخيرة أن تكون الرطوبة الغريزيّة ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزيّة والنقصان خفيّ وهو سنّ الكهولة وجليّ ظاهر وهو سنّ الشيخوخة.

ثمّ هاهنا بيان آخر وهو أنّ دور القمر إنّما يتمّ في مدّة ثمانية وعشرين يوما وشيء، فإذا قسمنا هذه المدّة بأربعة أقسام كان كلّ قسم منها سبعة فلهذا السبب قدّروا الشهر بالأسابيع الأربعة ولهذه الأسابيع تأثيرات عظيمة في اختلاف أحوال هذا العالم فكذلك عالم عمر الإنسان ينقسم إلى أربعة أسابيع ويحصل للآدميّ بحسب انتهاء كلّ اسبوع من هذه الأسابيع الأربعة نوع من التغيّر يؤدّي إلى كماله.

أمّا عند تمام الأسبوع الأوّل من العمر فتصلب أعضاؤه بعض الصلابة وتقوى أفعاله مثل أن تتبدّل أسنانه الضعيفة الواهية مثلا بالقويّة وقوّة الهضم كذلك أقوى من قبل.

وأمّا في نهاية الأسبوع الثاني يتقوى الحرارة وتقلّ الرطوبات وتتّسع المجاري وتقوى الأعضاء وتتصلّب صلابة كافية ويتولّد فيه مادّة الزرع وعند هذا يحكم الشرع عليه بالبلوغ لأنّ الدماغ قد اعتدل وكمل القوى النفسانيّة الّتي هي الفكر والإدراك فلا جرم يتوجّه إليه التكاليف الشرعيّة فما أحسن

قول من ضبط البلوغ الشرعيّ بخمس عشرة سنة وهو تكميل اسبوعين على البيان الّذي قرّرنا.

ويتفرّع على حصول هذه الحالة أمارات ظاهرة وعلائم بيّنة منها انفراق طرف الأرنبة ونتوء الحنجرة وغلظ الصوت لأنّ الحرارة الّتي تنهض في ذلك الوقت توسّع الحنجرة فتنتؤ ويغلظ الصوت وثالثها تغيّر ريح الإبط وهي الفضلة العفنيّة الّتي يدفعها القلب إلى ذلك الموضع لأنّ القلب لمّا قويت حرارته لا جرم قويت على إنضاج المادّة ودفعها إلى اللحم الغدديّ الرخو الّذي في الإبط وكذلك نبات الشعر وحصول الاحتلام والاغتلام لأنّ الحرارة كلّما قويت قدرت على توليد الأبخرة المولّدة للشعر وعلى توليد مادّة الزرع ولهذا في هذا الوقت تتحرّك الشهوة في الصبايا وينهد ثديهنّ وينزل حيضهنّ لأنّ الحرارة الغريزيّة الّتي فيهنّ قويت في آخر هذا الأسبوع.

وأمّا في الأسبوع الثالث فيبلغ في حدّ الكمال فيزداد الحسن وأمّا في الأسبوع الرابع هذه الأحوال متكاملة متزايدة.

وعند انتهاء الأسبوع الرابع لا يظهر الازدياد ويدخل الإنسان في سنّ الوقوف في الأسبوع الخامس اسبوع واحد فيكون المجموع خمسة وثلاثين سنة. ولمّا كانت هذه المدّة المذكورة إمّا قد تزاد وإمّا قد تنقص بحسب ضعف الأمزجة وقوّتها جعل الغاية فيه مدّة أربعين سنة فإنّ هذا الوقت تسكن أفعال القوى الطبيعيّة بعض السكون وتنتهي له أفعال القوّة الحيوانيّة غايتها وتأخذ القوى الطبيعيّة والحيوانيّة في الانتقاص وتأخذ القوّة النطقيّة والعقليّة في الاستكمال وهذا أحد الدلائل من أنّ النفس غير البدن فإنّ البدن عند الأربعين يأخذ في الانتقاص والنفس من الأربعين يأخذ في الاستكمال ولو كانت النفس عين البدن لحصل لشيء الواحد في الوقت الواحد الكمال

والنقصان وذلك محال وهذا بيان ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ﴾ أي: ألهمني، وأصله أو معنى من أوزعه بكذا ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي: اجعل لي خلف صدق ولك عبيد ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ المنقادين لأمرك وهذا الدعاء تصريح بأنّ القوّة النفسانيّة العقليّة تستكمل في هذا الوقت.

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام قال: **«لمّا حملت فاطمة عليها السلام بالحسين عليه السلام جاء جبرئيل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: إنّ فاطمة ستلد غلاما تقتله امّتك من بعدك فلمّا حملت فاطمة عليها السلام بالحسين كرهت حمله وحين وضعته كرهت وضعه قال عليه السلام: لم تر في الدنيا أمّ تلد غلاما تكرهه ولكنّها كرهت لما علمت أنّه سيقتل قال عليه السلام: وفيه نزلت هذه الآية»**[1].

وفي رواية اخرى ثمّ هبط جبرئيل عليه السلام فقال: **«يا محمّد إنّ ربّك يقرؤك السّلام ويبشّرك بأنّه جاعل في ذرّيّته الإمامة والولاية والوصيّة فقال عليه السلام: إنّي رضيت ثمّ بشّر فاطمة بذلك فرضيت»**. قال: فلو لا أنّه قال: «أصلح في ذرّيّته» لكانت ذرّيّته كلّهم أئمّة قال: ولم يرضع الحسين من فاطمة ولا من أنثى كان يؤتى به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيضع صلى الله عليه وآله وسلم إبهامه في فيه فيمصّ منها ما يكفيه اليومين والثلاث فنبت لحم الحسين عليه السلام من لحم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودمه من دمه ولم يولد لستّة أشهر إلّا يحيى بن زكريّا والحسين عليهما السلام[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ

١ـ الكافي، ج ١، ص ٤٦٤.

١ـ الصافي، ج ٦، ص ٤٥٣، و انظر: تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٩٧.

﴿لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ثمّ أخبر الله سبحانه بما يستحقّه هذا الإنسان ومثل هذا الإنسان من الثّواب فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني: أهل هذا القول ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ﴾ وقرئ بالياء على البناء للمجهول ﴿عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ بإيجاب الثواب لهم أحسن أعمالهم وهو ما يستحقّ به من الثواب في الواجبات والمندوبات فإنّ المباح أيضاً من الحسن ولا يوصف بأنّه متقبّل ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الّتي اقترفوها ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: في جمع ممّن نتجاوز عن سيّئاتهم وهم أصحاب الجنّة فيكون قوله: ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ في موضع النّصب على الحال. ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي: وعدهم وعد الصدق وهو ما وعد أهل الإيمان يتقبّل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم إذا شاء أن يتفضّل عليهم بإسقاط عذابهم أو إذا تابوا، الوعد الّذي كانوا يوعدونه في الدنيا على ألسنة الرسل.

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ لمّا وصف الولد البارّ بوالديه في الآية المتقدّمة وصف الولد العاقّ لوالديه في هذه الآية فقال: ﴿وَٱلَّذِى﴾ الآية، قيل: إنّها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قال له أبواه: أسلم وألحّا عليه فقال: أحيوا لي عبد الله بن جذعان ومشايخ قريش حتّى أسألهم عمّا تقولون عن ابن عبّاس وجماعة. وقيل: عامّة في كلّ كافر عاقّ لوالديه كما أنّ الآية

الاولى عامّة لكلّ بارّ لوالديه وليس المراد بشخصاً معيّناً. وكلمة ﴿أُفٍّ﴾ صوت يصدر عن المرء عند تضجّره واللّام لبيان المؤفّف له كما في هيت لك وبيان أنّ هذا التأفيف لكما خاصّة وقرئ «أف» بالفتح والكسر بغير تنوين وبالحركات الثلاث مع التنوين والصحيح أنّ افّ لكما مبتدء وخبر وتقديره هذه الكلمة الّتي يقال: عند الأمور المكروهة كائنة لكما.

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ من القبر وأحيا وابعث ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ ومضت أمم وماتوا قبلي فما أخرجوا ولا أعيدوا وقيل: معناه خلت القرون والأجيال على هذا المذهب ينكرون البعث ﴿وَهُمَا﴾ أي: والديه ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي يطلبان من الله الغوث ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ بالقيامة وبما يقوله النبيّ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بالبعث والنشور والثواب والعقاب فيقول هو في جوابهما: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ القرآن ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: إنّ هذا القرآن وما تخبرونه من أخبار الأولين وأحاديثهم الّتي سطروها ليس لها حقيقة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ﴾ أي: القائلون هذه المقالات الباطلة الّذين حقّ عليهم القول والقول قوله لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] وقوله: ﴿فِيٓ أُمَمٍ﴾ أي: مع امم قد مضوا على مثل حالهم وعقائدهم ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وهذه الآية خلاف من يزعم أنّ الجنّ لا يموتون إلّا حين انقراض الدنيا ثمّ أخبر سبحانه عن حالهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لأنفسهم إذ أهلكوها بالمعاصي.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أي لكلّ واحد ممّن تقدّم ذكره من المؤمنين البررة والكافرين الفجرة درجات على مراتب حالهم ومقادير أعمالهم فدرجات الأبرار في علّيين ودركات الفجّار في سجّين وقيل: المعنى لكلّ مطيع درجات

١ـ سورة ص:٨٥.

ثواب وإن تفاضلوا في مقاديرها أو المعنى لكلّ من ولد البار والعاقّ الفاجر درجات فإن قيل: كيف يجوز ذكر لفظ الدرجات في أهل النار وقد جاء في الخبر الجنّة درجات والنار دركات؟ فيمكن حمل الكلام على التغليب أو المراد بالدرجات المراتب المتزائدة إلّا أنّ زيادات أهل الجنّة في الخيرات وزيادات أهل النار في السيّئات.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقرئ بالنون، أي وليوفّهم الله أعمالهم أي جزاء أعمالهم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بعقاب لا يستحقّونه أو بمنع ثواب يستحقّونه. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي: يوم القيامة يعرضون على النار ويدخلونها كما يقال: عرض فلان على السوط ويجوز أن يكون المعنى يعرض النار عليهم قبل أن يدخلوها ليروا من أهوالها ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ أي: يقال لهم آثرتم لذّاتكم في الدنيا على طيّبات الجنّة ﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ وتلذّذتم من لذّاتها منهمكين فيها وأنفقتموها في شهواتكم ولم تنفقوها في مرضات الله وقرأ ابن عامر بهمزتين أأذهبتم والباقون بلفظ الخبر.

وعن رسول اللهﷺ أنّه دخل على أهل الصفّة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعا فقالﷺ: **«أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلّة ويروح في أخرى ويغدّي عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى ويستر بيته كما يستر الكعبة»**. قالوا: نحن يومئذ خيرا قالﷺ: **«بل أنتم اليوم خير»**[1].

ولمّا وبّخ الله الكفّار بالتمتّع بالطيّبات واللذّات في الدنيا آثر النبيّ وأمير المؤمنين الزهد واجتناب الترفّه والنعمة، وفي الحديث إنّ عمر قال: استأذنت على رسول الله فدخلت في حجرة امّ إبراهيم وإنّهﷺ لمضطجع على

١ـ جوامع الجامع، ج٣، ص٣٥٢، و نور الثقلين، ج٥، ص١٧.

خصفه وأنّ بعضه على التراب وتحت رأسه وسادة محشوّة ليفاً فسلّمت عليه ثمّ جلست فقلت يا رسول اللّه أنت نبيّ اللّه وصفوته وخيرته من خلقه وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «أولئك قوم عجلت طيّباتهم وهي وشيكة الانقطاع وإنّما أخّرت لنا طيّباتنا»(١).

وكذلك كان حال عليّ عليه السلام وهو يقول: في بعض خطبه «واللّه لقد رقعت مدرعتي هذه حتّى استحييت من راقعها ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها؟ فقلت: أعزب عنّي فعند الصباح يحمد القوم السرى»(٢).

وروى محمّد بن قيس عن الباقر عليه السلام أنّه قال: «واللّه إنّه كان ليأكل أكلة العبد ويجلس جلسة العبد وإن كان يشتري القميصين فيخيّر غلامه خيرهما ثمّ يلبس الآخر فإذا جاز أصابعه قطع الزائد وإذا جاز كعبه حذفه ولقد ولي قرب خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة وما ترك صفراء ولا حمراء وأن كان ليطعم الناس خبز البرّ واللحم وينصرف إلى منزله فيأكل خبز الشعير والزيت أو الخلّ وما ورد عليه أمران كلاهما للّه رضىً إلّا أخذ بأشدّهما على بدنه ولقد أعتق ألف مملوك من كدّ يمينه تربت يداه منه وعرق فيه وجهه وما أطاق عمله أحد من الناس وإنّه كان ليصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة وكان أقرب الناس شبيها به في العبادة عليّ بن الحسين عليه السلام ما أطاق عمله أحد من الناس بعده»(١).

وقد اشتهر في الرواية أنّه لمّا دخل على العلاء بن زياد بالبصرة يعوده قال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد لبس العباءة وتخلّى من الدنيا فقال عليّ عليه السلام: «عليّ به» فلمّا جيء به قال: «يا عديّ نفسه لقد

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٤٧، و بحار الانوار، ج٦٣، ص٣٢٠، و نور الثقلين، ج٥، ص١٦.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

١ـ نور الثقلين، ج٥، ص١٦، و بحار الانوار، ج٦٣، ص٣٢٠، و تفسيرمجمع البيان، ج٩، ص١٤٧.

استهام بك الخبيث أما رحمت أهلك وولدك أترى الله أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أن تأخذها أنت أهون على الله من ذلك» قال عاصم: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشونة مأكلك قال: «ويحك إنّي لست كأنت إنّ الله تعالى فرض على أئمّة الحقّ أن يساووا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره»[1].

﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ أي: عذاب الّذي فيه الذلّ والخزي والهوان ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ باستكباركم عن الانقياد للحقّ في الدنيا وتكبّركم على الأنبياء ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ من دون حقّ لكم في الترفّع والإنكار ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ وبخروجكم من طاعة الله إلى معاصيه وذلك اليوم عظيم.

وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾

ولمّا بيّن سبحانه أنواع الدلائل في التوحيد والنبوّة وكان المشركون بسبب استغراقهم في لذّات الدنيا واشتغالهم بطلبها لم يلتفتوا إلى الدلائل أمر نبيّه أن يذكر هذه القصّة هاهنا ليعتبروا ويقبلوا على طلب الدّين لأنّ من أراد تقبيح أمر عند قوم كان الطريق فيه ضرب الأمثال ليعلموا ضرره ويتركوا ما هم عليه.

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٤٨، و البحار، ج٤٠، ص٣٣٦، و نور الثقلين، ج٢، ص٢٥، و تفسير الصافي، ج٢، ص١٩٢.

﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمّد لقومك ﴿أَخَا عَادٍ﴾ يعني: هودا ومن انتسب إلى طائفة يقال له: أخو فلان مثل أن يقول: أخو سليم وأخو قيس ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ وخوّفهم من عذاب الله ومخالفته ودعاهم إلى طاعته والأحقاف واد من الرمل بين عمّان وحضر موت مشرفة على ساحل البحر ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي: وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بأن لا تعبدوا وحاصل المعنى إنّي لم ابعث قبل هود ولا بعده إلّا بالأمر بعبادة الله وحده وهذا اعتراض وقع بين إنذار هود وكلامه لقومه. ثمّ عاد إلى كلام هود لقومه فقال هود: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وتقدير الكلام أنذر هود قومه بالأحقاف فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ثمّ حكى سبحانه ما أجاب به قومه بقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: أجئتنا لتصرفنا وتلفتنا عن عبادة آلهتنا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنّ العذاب نازل بنا وهذا الكلام منهم في استعجال العذاب تكذيباً لهودعليه السلام.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فقال لهم هود: لا علم لي بالوقت الّذي يحصل فيه العذاب وإنّما علم ذلك عند الله ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ وأنا أحذّركم من وقوعه ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيث تصرّون في الجهل المفرط وطلب العذاب وهذا جهل عظيم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ والضمير في ﴿رَأَوْهُ﴾ إمّا إلى غير مذكور وبيّنه قوله: ﴿عَارِضًا﴾ مثل قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[1] ولم يذكر الأرض لكونها معلومة فكذا هاهنا الضمير عائد إلى

١ـ سورة فاطر: ٤٥.

السحاب فالمعنى فلمّا رأوا السحاب عارضاً ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى ما في قوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ فلمّا رأوا ما وعدوا به عارضا والعارض السحابة الّتي ترى في ناحية السماء ثمّ تطبق.

قال المفسّرون: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أيّاما فساق اللّه إليهم سبحانه سوداء فخرجت عليهم من واد يقال له: المغيث فلمّا رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: سحاب ممطر إيّانا.

فقال هودﷺ: ليس الأمر كما زعمتم ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ هو الّذي وعدتكم به وطلبتم تعجيله ثمّ فسّره فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقيل: هو من كلام اللّه ووصف ماهيّة الريح بقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: يهلك كلّ شيء من الناس والحيوان والنبات وليس المراد من الكلّ كلّ موجود وأطلق الكلّ على البعض والمراد من قوله: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أنّ هذا ليس من الأمور العادية ومن تأثيرات الكواكب والقرانات مثل الأنواء بل هو أمر عظيم.حدث بقدرة اللّه لأجل تعذيبكم. ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ وتذكير الفعل في قوله: ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾ أحسن من إلحاق علامة التأنيث بالفعل من أجل الجمع لأنّه يحمل الكلام على المعنى مثل قولهم: ما قام إلّا هند ولم يقولوا: ما قامت إلّا هند لأنّ المعنى ما قام أحد إلّا هند وقرئ «مَسْكَنِهِمْ».

روي أنّ الريح كانت تحمل الفسطاط فترفعها في الجوّ حتّى يرى كأنّها جرادة وأوّل من أبصر العذاب امرأة منهم قالت: رأيت ريحا فيها كشهب النار.

وروي أنّ أوّل ما عرفوا به أنّه عذاب أليم أنّهم رأوا ما كان في الصحراء من رجالهم ومواشيهم يطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم وأحال اللّه عليهم الأحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيّام لهم أنين ثمّ كشفت الريح عنهم فاحتملتهم

وطرحتهم في البحر ولمّا أحسّ هودعليه السلام بالريح خطّ على نفسه وعلى المؤمنين خطاً على جنب عين تنبع فكانت الّتي تصيبهم ريحا ليّنة هادية طيّبة والريح الّتي تصيب قوم عاد ترفعهم من الأرض وتطيرهم إلى السماء ويضربهم على الأرض وأثر المعجزة إنّما ظهر في تلك الريح من هذا الوجه.

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «ما أمر الله خازن الرياح أن يرسل على عاد إلّا مثل مقدار الخاتم وذلك القدر أهلكهم بكليّتهم».[١] وكان النبي صلى الله عليه وآله إذا رأى الريح فزع وقال: «اللّهمّ إنّي أسألك خيرها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرّها ومن شرّ ما أرسلت به»[٢]. قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ والمقصود تخويف كفّار مكّة أي مثل ما أهلكنا أهل الأحقاف نجزي الكافرين الّذين يسلكون مسالكهم. فإن قيل: لمّا قال الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾[٣] فكيف يبقى التخويف حاصلاً؟

فالجواب أنّ قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ إنّما نزل في آخر الأمر وكان التخويف قبل ذلك. ثمّ بيّن سبحانه فضل قوم عاد بالقوّة والجسم على كفّار مكّة فقال سبحانه:

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا

١ـ تفسير الرازي، ج٢٨، ص٢٨.

٢ـ تفسير الرازي، ج٢٨، ص ٢٨، و تفسير الثعلبي، ج٩، ص١٧، و انظر: من لايحضره الفقيه، ج٣، ص٢٠٠، و وسائل الشيعة، ج١١، ص٤٤٤

٣ـ سورة الأنفال: ٣٣.

نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ
إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ
يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾

﴿وَلَقَدْ﴾ مكنّا قوم عاد في امور ما مكنّاكم فيها بمعنى أنّهم كانوا أقوى منكم جسماً وأكثر أموالا قال المبرّد: كلمة «ما» في قوله: ﴿فِيمَآ﴾ بمنزلة الّذي وكلمة ﴿إِن﴾ بمنزلة «ما» وقال ابن قتيبة كلمة ﴿إِن﴾ زائدة والتقدير ولقد مكنّاهم فيما مكنّاكم فيه قال الرازيّ وهذا غير صحيح لأنّ الحكم بأنّ حرفاً من كتاب الله عبث لا يقول به عاقل ثمّ إنّ المقصود من الكلام أنّهم كانوا أقوى منكم وأنّهم مع زيادة القوّة ما نجوا من عذاب الله فكيف يكون حالكم؟ وهذا المعنى لا يتمّ مع ما قاله ابن قتيبة. ويؤيّد قول المبرّد آيات كثيرة مثل قوله: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾[1] وقوله: ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ أي: فتحنا عليهم أبواب المعرفة والنعمة ليستمعوا الآيات والدلائل وليبصروا الأشياء ليعتبروا وأعطيناهم أفئدة ليتفكّروا فما استعملوا هذه الجوارح في طلب معرفة الله بل صرفوا هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذّاتها. فلا جرم ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾ لأنّهم ﴿كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وذكر ﴿إِذْ﴾ في مثل هذا المقام للتعليل كقولك: صرمته إذ أساء أي لأنّه أساء فإذا كان أولئك مع قوّتهم نزل بهم

١ـ سورة مريم: ٧٤.

٢ـ سورة المؤمنون: ٨٢.

عذاب الله فأهل مكّة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا العذاب.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ يا أهل مكّة ما حولكم وهم قوم هود وكانوا باليمن وقوم صالح وهم بالحجر وقوم لوط على طريقهم إلى الشام ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ وتصريف الآيات تارة باختلاف أنواع المعجزات وتارة في الإهلاك وتارة في التذكير بالنعم والنقم وتارة بوصف الأبرار ليقتدوا بهم وتارة بتوبيخ الكفّار ليجتنبوا مثل فعلهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا عن الكفر والمعاصي.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي: فهلّا نصر هؤلاء الّذين أهلكهم الله وهم عابدوهم وكان العابدون يزعمون بعبادتهم إيّاهم يتقرّبون إلى الله بهذه العبادة والمعبودين يشفعون لهم فلم غابوا عن نصرتهم وذلك لأنّهم كانوا يعبدون الآلهة للتقرّب إلى الله ويجعلونها شركاء لله قرباناً.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: ضلّت آلهتهم وقت حاجتهم إليها ولم تنفعهم وقت نزول العذاب بهم ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي اتّخاذهم الآلهة دون الله كذبهم وافترائهم ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي من مفترياتهم.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه كما في الإنس مؤمن وكافر كذلك في الجنّ مؤمن وكافر فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ واذكر وليتنه علمك يا محمّد إذ وجّهنا إليك جماعة من الجنّ تستمع القرآن قال سعيد بن جبير: كانت الجنّ تستمع وتسترق من السماء فلمّا رجموا قالوا: هذا الّذي حدث في السماء إنّما حدث لشيء في الأرض فذهبوا يطلبون السبب.

وكان قد اتّفق أنّ النبيّ ﷺ لمّا أيس من أهل مكّة أن يجيبوه خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام فلمّا انصرف إلى مكّة وكان ﷺ ببطن نخل قام

يقرء القرآن في صلاة الفجر فمرّ به نفر من أشراف جنّ نصيبين وذلك أنّ إبليس بعثهم ليعرفوا السبب الّذي أوجب الله حراسة السماء بالرجم فسمعوا القرآن وعرفوا أنّ ذلك هو السبب.

قال الزهريّ: لمّا توفّي أبو طالب عليه السلام اشتدّ البلايا على رسول الله صلى الله عليه وآله فعمد ليقف بالطائف رجاء أن يأووه فوجد ثلاثة نفر من بني عبد يا ليل فعرض صلى الله عليه وآله عليهم نفسه فقال أحدهم: أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قطّ. وقال الآخران كلمات يتشابه الأوّل وتهزّءوا به صلى الله عليه وآله وأفشوا في قومهم ما راجعوه به فقعدوا به صفّين على طريقه.

فلمّا مرّ النبيّ صلى الله عليه وآله بين صفّيهم جعلوا لا يرفع صلى الله عليه وآله رجليه ولا يضعهما إلّا رضخوهما بالحجارة فخلص منهم وهما يسيلان دماً إلى حائط من حوائطهم واستظلّ في ظلّ شجرة منه وهو صلى الله عليه وآله مكروب موجع تسيل رجلاه دما.

فإذا في الحائط عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة فلمّا رآهما كره مكانهما لما يعلم صلى الله عليه وآله من عداوتهما لله ورسوله فلمّا رأياه أرسلا إليه غلاما لهما يقال له عداس وهو نصرانيّ من أهل نينوى. فلمّا جاء قال له رسول الله: **«من أيّ أرض؟»** فقال: من أهل نينوى. قال صلى الله عليه وآله: **«من مدينة العبد الصالح ابن معي؟»** فقال له عداس: وما يدريك من يونس فقال: **«أنا رسول الله والله أخبرني خبر يونس»**. فلمّا أخبره بما أوحى الله إليه من شأن يونس خرّ عداس ساجداً لرسول الله وجعل يقبّل قدميه وهما يسيلان الدماء فلمّا بصره عتبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكتا فلمّا أتاهما قالا: ما شأنك سجدت لمحمّد وقبلت قدميه ولم نرك فعلت ذلك بأحد منّا قال: هذا رجل صالح أخبرني بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا يدعى يونس بن متى فضحكا وقالا: لا يفتننّك عن نصرانيّتك فإنّه رجل خداع. فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مكّة حتّى إذا بنخلة قام

يصلّي ويقرء القرآن في صلاته فمرّ به نفر من الجنّ فاستمعوا له وهذا أحد القولين في تفسير الآية مثل سعيد بن جبير وجماعة وقال آخرون: أمر النبيﷺ أن ينذر الجنّ ويدعوهم إلى اللّه ويقرء عليهم القرآن فصرف اللّه إليه نفراً من الجنّ ليستمعوا منه القرآن وينذروا قومهم ونقل أنّهم كانوا يهوداً لأنّ في الجنّ مللاً كما في الإنس من اليهود والمجوس والنّصارى وعبدة الأصنام.

وأطبق العلماء المحقّقون على أنّ الجنّ مكلّفون وسئل ابن عبّاس هل للجنّ ثواب فقال: نعم لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون في الجنّة ويزدحمون على أبوابها.

قال الزمخشريّ: النفر دون العشرة ويجمع على أنفار.

وعن ابن عبّاس أنّ أولئك الجنّ كانوا سبعة من أهل نصيبين فجعلهم رسول اللّه رسلا إلى قومهم وعن قتادة أنّهم صرفوا إليه من ساوة.

قال القاضي عبد الجبّار في تفسيره عن أنس بن مالك قال: كنت مع رسول اللّهﷺ في جبال مكّة فإذا شيخ يتوكّأ على عكازة فقال النبيﷺ: **«مشية جنّي ونغمته»** فقال الشيخ: أجلّ. فقالﷺ: **«من أيّ الجنّ أنت»**. فقال: أنا هامة بن هيم بن قيس بن لاقيس بن إبليس. فقالﷺ: **«لا أرى بينك وبين إبليس إلّا أبوين فكم أتى عليك؟»** فقال: أكلت عمر الدنيا إلّا أقلّها وكنت وقت قتل قابيل هابيل أمشي بين الآكام وذكر كثيرا ممّا مرّ به وذكر في جملته أن قال: قال لي عيسى بن مريم: إن لقيت محمّدا فاقرأه منّي السّلام وقد بلّغت سلامه وآمنت بك. فقالﷺ: **«على عيسى السّلام وعليك يا هامة ما حاجتك؟»** فقال: إنّ موسى علّمني التوراة وعيسى علّمني الإنجيل فعلّمني القرآن. فعلّمهﷺ عشر سور وقبضﷺ.

ثمّ بعد تصريف اللّه نفرا من الجنّ إليهﷺ يستمعوا القرآن ﴿فَلَمَّا

حَضَرُوهُ﴾ والضمير راجع إلى القرآن وقيل: إلى النبيّ أي لمّا حضر هؤلاء النفر من الجنّ قيل: كان مجيئهم من نينوى قرب الموصل فقال: «إنّي أمرت أن أقرء على الجنّ الليلة فأيّكم يتبعني؟» فأتبعه عبد اللّه بن مسعود قال عبد اللّه: ولم يتبعه أحد غيري فانطلقنا حتّى إذا كنّا بأعلى مكّة فدخل النبيّ شعبا الجحون وخطّ لي خطًا ثمّ أمرني أن أجلس وقال: لا تخرج منه حتّى أعود إليك ثمّ انطلق حتّى قام فافتتح بالقرآن والسورة الّتي تلاها عليهم اقرأ باسم ربّك فغشته أسودة كثيرة حتّى حالت بيني وبينه حتّى لم أسمع صوته ثمّ انطلقوا وطفقوا ينقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين حتّى بقي منهم رهط وفرغ رسول اللّه مع العجز فانطلق فبرز ثمّ قال: «هل رأيت شيئا؟» فقلت: نعم رأيت رجالاً ذوي ثياب بيض[1].

قال ابن عبّاس: كان ذلك الرهط سبعة نفر من جنّ نصيبين فجعلهم رسلا إلى قومهم وروى محمّد بن المنكدر عن جابر بن عبد اللّه قال: لمّا قرء رسول اللّه سورة الرحمن على الناس سكتوا ولم يقولوا شيئا، فقال رسول اللّه: «الجنّ كانوا أحسن جوابا منكم لمّا قرأت ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا ولا بشيء من آلائك ربّنا نكذّب».

﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: أنصتوا واسكتوا مستمعين.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وفرغ من القراءة ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ ينذرون قومهم قالوا يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ووصفوا القرآن بوصفين:

١ـ المناقب، ج١، ص٤٤، و بحار الانوار، ج١٨، ص٧٨، و تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٥٥، و تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢١، و تفسيرالبغوي، ج٤، ص١٧٤، و تفسير الثعلبي، ج٩، ص٢١، و تفسير القرطبي، ج١٦، ص٢١٢، و تفسير ابن كثير، ج٤، ص١٨٢.

الاول: كونه مصدّقا لكتب الأنبياء أي كما أنّ كتب الأنبياء مشتملة على الدعوة إلى التوحيد والنبوّة والمعاد وتهذيب الأخلاق فكذلك هذا الكتاب.

الثاني: قوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومطالب عالية شريفة يعلم كلّ أحد بصريح عقله أنّه صدق وحقّ.

فإن قيل: كيف قالوا: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾؟ لأنهم كانوا على اليهوديّة وعن ابن عبّاس أنّ الجنّ ما سمعت أمر عيسى فلذلك قالوا: من بعد موسى. ثمّ إنّ الجنّ لمّا وصفوا القرآن قالوا:

يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

ثمّ بيّن سبحانه حكاية قول الجنّ ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ يعنون محمّدا إذ دعاهم إلى خلع الأنداد دونه وصدّقوا بتوحيد الله وآمنوا به ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: فإنّكم إن آمنتم بالله ورسوله. وإنّما بعّض في الآية لأنّ من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كذنوب المظالم ونحوه.

واختلف بأنّ هل للجنّ ثواب كما للإنسان قيل: نعم: وقيل: لا ثواب لهم إلّا النجاة من النار لقوله: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والصحيح أنّهم في

حكم بني آدم لأنه قال عليّ بن إبراهيم: فجاءوا إلى رسول الله يطلبون شرائع الإسلام فأنزل الله على نبيّه ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلى آخر السورة، فآمنوا إلى رسول الله.

وفي هذا دلالة على أنه كان مبعوثاً إلى الجنّ كما كان مبعوثا إلى الإنس ولم يبعث الله قبله نبيّا إلى الإنس والجنّ.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يعجز الله فيسبقه ويفوته ولا مهرب له منه ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي: لا يكون له أنصار يمنعونه من عذاب الله إذا نزل بهم هذا من كلام رسل الجنّ ويجوز أن يكون من كلام الله تعالى ابتداء ثمّ قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أيّ: الّذين لا يجيبون داعي الله في عدول عن الحقّ وفي ضلالة واضحة.

ثمّ قال منبّها على قدرته على البعث والإعادة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأنشأهما ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: لم يصبه في خلق ذلك أعباء ولا تعب يقال: عيّ فلان بأمره إذا لم يقدر عليه ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ الباء زائدة وموضعه رفع بأنّه خبر أنّ ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: خلق السماوات والأرض أعجب من إحياء الموتى.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثمّ عقّبه بذكر الوعيد فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يقال لهم على وجه التهكّم: أليس هذا الّذي جوزيتم به واقعاً وحقّا ﴿قَالُوا۟﴾ فيقولون: نعم ﴿وَرَبِّنَا﴾ واعترفوا بذلك وحلفوا بعد أن كانوا منكرين في الدنيا ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فيقال لهم: ذوقوا بسبب كفركم وجحودكم.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي فاصبر يا محمّد على أذى قومك وعلى ترك إجابتهم لك كما صبر الرسل و﴿مِنَ﴾

هاهنا لتبيّن الجنس وعلى هذا القول فيكون جميع الأنبياء هم أولو العزم لأنّهم عزموا على أداء الرّسالة وتحمّل أعبائها وقيل: إنّ من هاهنا للتبعيض وهو قول أكثر المفسّرين والظاهر في روايات أصحابنا.

ثمّ اختلفوا فقيل: أولو العزم من الرّسل من أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدّمه وهو خمسة أوّلهم نوح عليه السلام ثمّ إبراهيم ثمّ موسى ثمّ عيسى ثمّ محمّد صلى الله عليه وآله عن ابن عبّاس وجماعة وهو المرويّ عن الباقر والصادق عليهما السلام قال: وهم سادة النبيّين وعليهم دارت رحى المرسلين وقيل: هم ستّة نوح صبر على أذى قومه وإبراهيم صبر على النار وإسحاق صبر على الذبح أو إسماعيل، ويعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر، ويوسف صبر على البئر والسجن، وأيّوب صبر على الضرّ والبلوى. وقيل: هم الّذين أمروا بالجهاد والقتال وجاهدوا العدوّ في الّذين وقيل: هم إبراهيم وهود ونوح ورابعهم محمّد صلى الله عليه وآله.

والمراد بالعزم الوجوب والختم وأولو العزم من الرسل هم الّذين شرعوا الشرائع وأوجبوا على الناس الأخذ بها والانقطاع عن غيرها.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: ولا تستعجل لهم العذاب فإنّه كائن لا محالة وواقع بهم وما هو آت فهو قريب ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الآخرة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ أي إذا عاينوا العذاب طول لبثهم في الدنيا والبرزخ مثل ساعة من نهار لأنّ ما مضى كأن لم يكن وإن كان طويلا وتمّ الكلام. ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي: هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغ للنّاس أي تبليغ للنّاس وقرئ بلاغا أي بلغوا بلاغاً. وقيل: معناه ذلك اللبث ومكثهم في الدّنيا بلاغ ويسير.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: لا يقع العذاب إلّا بالعاصين

الخارجين من أمر اللّه وقيل: المعنى لا يهلك إلّا هالك مشرك ولّي ظهره الإسلام أو منافق صدّق بلسانه وخالف بقلبه وعمله وقيل: لا يهلك مع رحمة اللّه إلّا القوم الخارجون عن دين اللّه. قال الزجّاج وما جاء في القرآن في الرجاء لرحمة اللّه شيء أقوى من هذه الآية.

تمّت السورة بحمد اللّه.

سورة محمد

وتسمّى سورة القتال. مدنيّة إلّا آية منها نزلت على النبيّ صلى الله عليه وآله وهو يريد التوجّه إلى المدينة من مكّة وجعل صلى الله عليه وآله ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً فنزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ....﴾.

فضلها: أبيّ بن كعب قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: **«من قرأ سورة محمّد كان حقّاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنّة»**(1).

وروى أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال: **«من قرأها لم يدخله شكّ في دينه أبدا ولم يزل محفوظاً من الشرك والكفر أبدا حتّى يموت فإذا مات وكّل الله به في قبره ألف ملك يصلّون في قبره ويكون ثواب صلاتهم له ويشيّعونه حتّى يوقفوه موقف الأمن من عند الله ويكون في أمان الله وأمان محمّد»**(2).

وقال الصادق عليه السلام: **«من أراد أن يعرف حالنا وحال أعدائنا فليقرأ سورة محمّد فانّه يراها آية فينا وآية فيهم»**(3).

1ـ نور الثقلين، ج٥، ص٢٥، و تفسير الثعلبي، ج٩، ص٢٨، و تخريج الأحاديث والآثار، ج٣، ص٣٠١، الكشاف، ج٣، شرح ص٥٤٠، و تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٥٩، و تفسير البيضاوي، ج٥، ص١٩٨.

2ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٥٩، و ثواب الاعمال، ص١٤٢، و جوامع الجامع، ج٣، ص٣٦٠، و انظر: نور الثقلين، ج٥، ص٢٥.

3ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٥٩، و الصافي، ج٥، ص٣٢، نور الثقلين، ج٥، ص٢٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

المعنى: ختم اللّه تلك السّورة بوعيد الكفّار وافتتح هذه السّورة بمثلها فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد اللّه وعبدوا معه غيره ﴿وَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ﴾ الإيمان والإسلام باستدعائهم إلى الباطل والشرك وتكذيب النبيﷺ ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أحبط اللّه أعمالهم الّتي كان في زعمهم أنّها أعمال وقربة وتنفعهم كالعتق والصدقة وقري الضيف والمعنى أنّه أذهبها إذ لم يروا لها في الآخرة ثوابا.

قيل: نزلت في المطعمين ببدر وكانوا عشرة أنفس منهم أبو جهل والحرث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم. وقيل: المراد كفّار قريش. وقيل: أهل الكتاب أو هو عامّ يدخل فيه كلّ كافر والمراد بالصدّ صدّ أنفسهم ومنع عقولهم من اتّباع الدليل والحقّ أو صدّوا غيرهم عن اتّباع الحقّ.

فإن قيل: إنّ المستضعفين كانوا أتباعاً ولم يصدّوا غيرهم فيقتضي أن لا يضلّ أعمالهم. فالجواب أنّ التخصيص بالذكر لا يدلّ على نفي ما عداه. ثمّ إنّ كلّ

من كفر صادّ لغيره من بعده لأنّ المستضعف بمتابعته أثبت لمتبوعه بالمنعيّة من اتّباع الرسول لأنّه بعد ما يكون متبوعاً يشقّ عليه بأن يصير تابعاً على أنّ كلّ من كفر صار صادّا لأنّ عادة الناس اتّباع المتقدّم كما قال سبحانه عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ فعلى هذا كلّ كافر صادّ.

فإن قيل: فما الفائدة حينئذ من ذكر الصدّ في الآية بعد الكفر؟

فالجواب: أنّه من باب ذكر المسبّب عليه كقولك: أكلت كثيرا وشبعت.

والكفر سبب الصدّ وفي المصدود عنه وجوه: الأوّل: عن الإيمان. الثاني: عن الإنفاق على محمّد وأصحابه. الثالث: الاتّباع عن دينه وقد ذكرناها في صدر تفسير الآية. وفي الإضلال في أعمالهم أيضاً وجوه:

الاول: الإبطال أي يوازن بسيّئاتهم الحسنات الّتي صدرت منهم ويسقطها بالموازنة في الدنيا ويبقى لهم سيّئات محضة لأنّ الكفر يزيد على غير الإيمان من الحسنات والإيمان تترجّح على غير الكفر من السيّئات.

الثاني: أنّ الإبطال بسبب فقد شرط ثبوتها لأنّ الإيمان شرط قبول العمل للآخرة قال اللّه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[1] وإذا لم يقبل اللّه العمل لا يكون له وجود لأنّها أعراض لا بقاء له في نفسه بل يعدم عقيب ما يوجد في الحقيقة غير أنّ اللّه يكتب عنده بفضله إنّ فلانا عمل صالحا وعندي جزاؤه فيبقى حكماً وهذا البقاء الحكميّ خير من البقاء الذمّي للأجسام الّتي هي محلّ الأعمال حقيقة فإنّ الأجسام وإن بقيت غير أنّ مآلها إلى الفناء والعمل الصالح من الباقيات عند اللّه أبدا فتبيّن أنّ اللّه بالقبول متفضّل وقد أخبر سبحانه أنّي لا أقبل إلّا من مؤمن فحينئذ من عمل وتعب من غير سبق إلى الإيمان فهو المضيّع تعبه لا اللّه تعالى.

١ـ سورة النحل: ٩٧.

الثالث: أنّ الكافر لم يعمل عمله لوجه اللّه خاصّة فلم يأت بخير ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ والكافر لم يعمل الخير فكيف يره؟

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: الّذين صدّقوا بتوحيد اللّه وأضافوا إلى الإيمان الأعمال الصالحة وآمنوا وقبلوا بما نزّل على محمّد من القرآن والعبادات وخصّ الإيمان بمحمّد في الذكر مع دخوله في الأوّل تشريفاً وتعظيماً لهﷺ ولئلّا يقول أهل الكتاب: نحن آمنّا باللّه وبأنبيائنا وكتبنا. ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: ما نزل على محمّد هو الحقّ من ربّهم لأنّه ناسخ للشرائع والناسخ هو الحقّ، وقيل: إنّ الضمير راجع إلى محمّد أي محمّد الحقّ من ربّهم دون ما يزعمون من أنّه سيخرج في آخر الزمان نبيّ من العرب وليس هذا هو فردّ اللّه سبحانه ذلك القول عليهم بذكر اسمه. ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أي: سترها عنهم بأن غفرها لهم السيّئات المتقدّمة بإيمانهم ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ أي: أصلح حالهم في معاشهم ومعادهم بأن نصرهم على أعدائهم في الدنيا ويدخلهم الجنّة في العقبى.

ثمّ بيّن سبحانه إنّما قسّم هذا القسمين فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ أي: ذلك الضلال والإصلاح بسبب اتّباع الكافرين الكفر وعبادة الشيطان والباطل وبسبب اتّباع المؤمنين التوحيد والقرآن وما أمر اللّه باتّباعه. ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ أي: كالبيان الّذي ذكرنا يبيّن اللّه للناس أمثال حسنات المؤمنين وسيّئات الكافرين وقوله: ضربت لك مثلا أي بيّنت لك ضربا من الأمثال وأضاف المثل إلى الناس لأنّه مجعول ليعتبروا.

ثمّ أمر سبحانه بقتال الكفّار فقال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ فإذا لقيتم معاشر المؤمنين الّذين كفروا في دار الحرب. ووجه

تعلّق الفاء بما قبله في قوله: ﴿فَإِذَا﴾ لأنه لمّا بيّن سبحانه بأنّ الّذين كفروا أضلّ اللّه أعمالهم ومعلوم أنّ اعتبار الإنسان بالعمل ومن لم يكن له عمل فهو همج فإن صار مع ذلك يؤذي ويفسد حسن إعدامه بل وجب.

فإذا لقيتم الّذين ظهر منهم هذه الصفة فاضربوا أعناقهم، وحذف الفعل وأنيب المصدر منا به مضافا إلى المفعول ونسبة الضرب إلى الرقاب لأنّ أكثر مواضع القتل ضرب العنق وإن كان يجوز الضرب في سائر المواضع والمقصود دفعهم عن وجه الأرض وتطهّر الأرض من رجسهم لأنّ الأرض جعلها اللّه لأمّة محمّد مسجداً والمشركون نجس والمسجد يطهّر من النجاسة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ وحتّى لبيان غاية الأمر لا لبيان غاية القتل أي وجوب القتل متعيّن إلى حدّ الإثخان لكنّ الجواز في القتل باق ولو كانت حتّى لبيان القتل لما جاز القتل بعد الإثخان والحالة أنّ القتل جائز أيضاً بعده والمعنى إذا أثقلتموهم بالجراح وظفرتم بهم وبالغتم في قتلهم حتّى ضعفوا ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي: احملوا الوثاق والوثاق بالفتح والكسر اسم ما يوثق به أي فأسروهم وأحكموا وثاقهم وليكن الأسر بعد المبالغة في القتل والإثخان فيهم ليذلّوا ولا يكون الأسر إلّا بعد القتل كما قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]. فبعد القتل والأسر ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي: إمّا أن تمنّوا عليهم منّا فتطلقوهم بغير عوض وإمّا تفدوهم فداء وتأخذون فداء وعوضاً والمراد التخيّر للإمام بعد الأسر بين المنّ أي الإطلاق وبين أخذ الفداء والعوض.

في «الكافي» و «التهذيب» عن الصادق عليه السلام قال: **«كان أبي يقول: إنّ للحرب حكمين وهو أنّه إذا كانت الحرب قائمة ولم تضع أوزارها وأثقالها كالسلاح والكراع ولم**

١ـ سورة الأنفال: ٦٧.

يمخن أهلها فكلّ أسير أخذ في تلك الحال فانّ الإمام فيه بالخيار إن شاء ضرب عنقه وإن شاء قطع يده ورجله من خلاف وتركه يتشحّط في دمه حتّى يموت وهو قول الله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ الآية». قال عليه السلام: «والحكم الآخر وهو بعد أن وضع الحرب أوزارها وبعد أن اثخن أهلها فكلّ أسير أخذ على تلك الحال ووقع في أيديهم فالإمام فيه مخيّر إن شاء منّ عليهم بالإطلاق فأرسلهم وإن شاء فاداهم أنفسهم وإن شاء استعبدهم فصاروا عبيدا فإذا أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك وكان حكمهم حكم المسلمين»[1].

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ وفي تعلّق ﴿حَتَّىٰ﴾ وجهان: أحدهما: تعلّقها بالقتل أي اقتلوهم حتّى تضع أهل الحرب أسلحتهم فلا يقاتلون وقيل: المعنى حتّى لا يبقى أحد من المشركين وقيل: حتّى لا يبقى دين غير دين الإسلام وقيل: أي حتّى تضع حربكم وقتالكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم بأن يسلموا ولا تبقى إلّا الإسلام ولا يعبد الأصنام وهذا كما جاء في الحديث والجهاد ماض مذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمّتي الدجّال قال الفرّاء: المعنى حتّى لا يبقى إلّا مسلم أو مسالم قال الزجّاج: المعنى اقتلوهم وأسروهم حتّى يؤمنوا فما دام الكفر الحرب قائمة أبدا. ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ أي الأمر والواجب ذلك الّذي ذكرناه ولا يريد سبحانه غير هذا الترتيب ولو أراد لفعل من خسف أو غرق ولكن أمركم بالقتال للامتحان.

﴿لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍ﴾ أي: هذه الأحكام ليمتحن بعضكم ببعض فيظهر المطيع عن العاصي والمعنى أنّه لو كان الغرض زوال الكفر فقط لأهلك الله سبحانه الكفّار بما يشاء من أنواع الهلاك ولكن أراد مع ذلك أن تستحقّوا الثواب وذلك لا يحصل إلّا بالتعبّد وتحمّل المشاق. ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي

ــــــــــــــ

١ـ تفسير مجمع البيان، ج٩، ص١٦٢، و تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٣٠.

﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: الّذين قتلوا في الجهاد من المسلمين، وقرئ قاتلوا فالمعنى جاهدوا سواء قتلوا أولم يقتلوا ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي لن يضيّع الله أعمالهم بل يقبلها ويجازيهم عليها ثوابا دائما والقتل ليس بإهلاك بالنسبة إلى المؤمن بل يورث الحياة الأبديّة وبتقدير أن يقتل أو يقتل فهو مكرم بخلاف الكافر.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ يهتدون إلى طريق الجنّة والثواب ويصلح حالهم وشأنهم والوجه في تكرير قوله: ﴿بَالَهُمْ﴾ أنّ المراد بالأوّل أنّه أصلح بالهم في الدين والدنيا وبالثاني المراد نعيم العقبى فالأوّل سبب النعيم والثاني نفس النعيم.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: بيّنها لهم حتّى عرفوها إذا دخلوها وتفرّقوا إلى منازلهم فكانوا أعرف بها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم وقيل: معناه بيّنها الله لهم وأعلمهم بوصفها على ما يشوّق إليها فيرغبون فيها ويسمعون لها. وقيل: معناه من العرف وهو العطر والرائحة الطيّبة أي: طيبت الجنّة لهم بالعطر.

روي أنّ الملك الّذي وكلّ بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرّفه كلّ شيء أعطاه الله وفيه وجه آخر وهو أن يقال: عرّفها لهم قبل موت الشهيد فإنّ الشهيد قبل وفاته يعرض عليه منزلته في الجنّة فيشتاق إليه وذكر وجوه أخر لا حاجة إلى الإطالة. ثمّ لمّا بيّن ثواب المجاهدين وعدهم بالنصر في الدنيا فقال:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

أي إن تنصروا دين الله وطريقه وحزبه وفريقه وتنصروا النبيّ ﷺ ينصركم على عدوّكم ويشجّعكم ويقوّي قلوبكم لتثبتوا أو ينصركم في الآخرة ويثبت أقدامكم على الصراط وعند الحساب أو يثبت أقدامكم في

الدارين وهو الوجه قال بعض العلماء حقّ على اللّه أن ينصر من نصره وأن يزيد من شكره لقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وأن يذكر من ذكره كقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ وأن يفي بعهد من أقام على عهده لقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا﴾ ومكروهاً لهم وسوء، يريد في الدنيا القتل وفي الآخرة التردّي في النار والمعنى أتعس الّذين كفروا واقضي بهم بالتعس يريد أنّ العثور والانحطاط لهم لا الانتعاش والثبوت ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ مرّ معناه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على نبيّه أي: ذلك التعس بسبب أنّهم كرهوا القرآن وما أنزل اللّه فيه من التكاليف والأحكام لأنّهم ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذّ فشقّ عليهم ذلك وخالفوا ذلك وقال أبو جعفر عليه السلام: «كرهوا ما أنزل الله في حقّ عليّ فكشطوا اسم عليّ[1]» ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ لأنّها لم يقع على الوجه المأمور به ولمّا أعرضوا عن القرآن لا جرم لم يعرفوا العمل الصالح وكيفيّة الإتيان به فأتوا بالباطل وأشركوا والشرك محبط للعمل قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[2] وكلّ ما سوى وجه اللّه هالك محبط.

ثمّ نبّههم على الاستدلال على صحّة ما دعاهم إليه من التوحيد فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ حين أرسل اللّه

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٣٠٢، و تفسير ابي حمزة الثمالي، ص٣٠٥، و انظر: تفسير الصافي، ج٥، ص٢٢و ، تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٣١.

٢ـ سورة القصص: ٧٢.

إليهم الرسل فلم يقبلوا منهم وعصوهم أي هلّا ساروا وراعوا عواقب أولئك ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلكهم. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بك يا محمّد ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ من العذاب إن لم يؤمنوا أي إنّهم يستحقّون أمثالها وإنّما يؤخّر الله عذابهم تفضّلا منه.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ
أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ
بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ
ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ
خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن
رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

والمعنى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الّذي فعلنا في الفريقين ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ به ويتولّى نصرهم وحفظهم ويدفع عنهم ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ ينصرهم ولا أحد يدفع عنهم العذاب والمولى في هذه الآية بمعنى الناصر وفي قوله: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ معناه: الربّ فلا تناقض.

روي أن النبيّ ﷺ كان في الشعب يوم أحد وقد فشت في المسلمين الجراحات وفيه نزلت ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فنادى المشركون: اعل هبل، فنادى المسلمون: الله أعلى وأجلّ، فنادى المشركون: يوم بيوم والحرب سجال «إنّ لنا عزّى ولا عزّى لكم» فقال رسول الله: قولوا: **«الله مولانا ولا مولى لكم»** إنّ القتلى مختلفة فقتلانا أحياء يرزقون وأمّا قتلاكم إلى النار يعذّبون.

ثمّ ذكر سبحانه حال الفريقين فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت أشجارها وأبنيتها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: الكفّار يتمتّعون من الدينا ولذّاتها ويأكلون مثل ما تأكل الأنعام أي كما أنّ الأنعام همّها الأكل لا غير كذلك الكافر ولا تستلذّ الأنعام بالمأكول على خالقها كذلك الكافر لكنّ المؤمن في الدنيا مسجون ولا يتمتّع من لذائذها بل يأكل ليعمل صالحا ويقوى عليه وما أعدّ اللّه له في الجنّة من الطيّبات ذلك الّذي ينبغي أن يقال: يتمتّع ويستلذّ منه فنعمة الدنيا بالنسبة إلى المؤمن كنسبة غيظة وأجمة[1] فيها من بعض الثمار العفصة والمياه الكدرة وفيها سباع وحشرات ومؤذيات كثيرة فالمؤمن لا يتمتّع منها وحاله في الدنيا حال مسجون في بئر مظلمة بخلاف الكافر فإنّ متاع الدنيا للكافر بالنسبة إلى ما يصله من العذاب في الآخرة نهاية اللذّة وإنّ متاعها بالنسبة إلى عذاب الآخرة جنّة عدن كما قال سبحانه: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي مقرّ ومقام لهم.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ ثمّ سلّى نبيّهﷺ وقال: وكثير من أهل القرى الّذين هم كانوا أشدّ من أهل مكّة أهلكناهم كذلك نفعل بأهل قريتك، فاصبر كما صبر رسلهم. وقوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾. فلو قيل: إنّ الإهلاك كان سابقاً وماض وكلمة ﴿نَاصِرَ﴾ للحال والاستقبال؟ قال الزمخشري: إنّه محمول على الحكاية والحكاية كالحال ويمكن أن يكون المعنى لا ناصر لهم من العذاب الّذي يعذّبون.

ثمّ قال سبحانه على وجه التوبيخ للكفّار والمنافقين: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ ويقين على دينه وعلى حجّة واضحة في اعتقاده من التوحيد

١ـ مجتمع الشجر.

والشرائع ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ زيّن الشيطان المعاصي وأغواه ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ وشهواتهم وما تدعوهم إليه طباعهم وهو وصف كمن زيّن له سوء عمله وهم المشركون والمنافقون وقيل: «المراد هم المنافقون» عن أبي جعفر عليه السلام[1].

ثمّ وصف الجنّات الموعودة بها للمؤمنين بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير متغيّر طعمه لطول المكث كما تتغيّر مياه الدنيا ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ فهو غير حامض ولا يعتريه شيء من العوارض الّتي تصيب الألوان والأشربة في الدنيا.

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ يلتذّون بشربها ولا يتعاقبون من شربها بصداع ونحوه بخلاف خمر الدنيا وكذلك ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ خالص من الشمع والرغوة ومن جميع العيوب الّتي تكون لعسل الدنيا. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: ممّا يعرفون اسمها وممّا لا يعرفون اسمها مبرّاة من كلّ مكروه يكون لثمرات الدنيا ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهو أنّه يستر ذنوبهم وينسيهم سيّئاتهم حتّى لا يتنغّص عليهم نعيم الجنّة.

أي أفمن كان على بيّنة من ربّه ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ قوله: ﴿كَمَنْ﴾ يتعلّق بقوله ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الموصوفة الإقامة كمقام من هو خالد ومقيم ومؤبّد في النار فوقعت المقابلة في الكلام بين من يكون على بيّنة من ربّه وبين من زيّن له سوء عمله وبين من في الجنّة الموصوفة وبين من هو خالد في النار سقوا وبين المقابلة بين اللّبن والأنهار من الخمر والعسل وبين سقاية الماء الحميم المفيور في جهنّم، فوقعت المقابلة في طرفي التضادّ والتباعد. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ بسبب شدّة الحرارة أو بسبب آخر كالسمومة وغيرها.

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٦٧، و تفسير الصافي، ج٦، ص٤٧٢.

وتأمّل كيف سبحانه وصف بعض نعيم الجنّة الّتي اعدّت للمتّقين فاختار الأنهار من الأجناس الأربعة بمشروبهم وذلك لأنّ المشروب إمّا أن يشرب لطعمه وإمّا لأمر عائد إلى الطعم فإن كان الشرب للطعم فالطعوم تسعة في الدنيا: المرّ والمالح والحريف والحامض والعفص والغابض والتفه والحلو والدسم ومن المعلوم أنّ ألذّ الطعوم المذكورة الحلو والدسم وأحلى الأشياء في الحلاوة العسل فذكر سبحانه العسل وكذلك أدسم الأشياء الدهن لكنّ الدسومة إذا تمحّضت لا يطيب للأكل ولا للشرب فإنّ الدهن لا يشرب في الغالب لكنّ الدسومة الكائنة في غيرها طيّب للأكل والشرب فذكره اللّه تعالى ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ﴾ وأمّا ما يشرب لا لأمر عائد إلى الطعم فالماء والخمر، فهو الماء والخمر فإنّ الخمر فيها أمر يشربها الشارب لأجل ذلك الأمر لا للطعم وهي كريهة الطعم فعرى سبحانه إيّاها عن صفات النقص بقوله: ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ وبقوله: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وكذلك العسل بقوله: ﴿مُّصَفًّى﴾.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا
قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟
زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ
فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ
﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ
وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ
ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾

القمي: إنّ الآيات نزلت في المنافقين من أصحاب الرسول ومن كان إذا

سمع شيئا لم يكن يؤمن به ولم يعه فإذا خرج قال للمؤمنين: ماذا قال محمّد؟[1]
وقال صاحب «المجمع»: قال أمير المؤمنينعليه السلام: «إنّا كنّا عند رسول اللهصلى الله عليه وآله فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا ومن يعيه فإذا خرجنا قالوا: ماذا قال آنفا يعني الساعة»[2].

وإفراد الضمير باعتبار لفظ ﴿مَّن﴾ كما أنّ جمعه فيما سيأتي باعتبار معناها وكانوا يقولون على سبيل الاستهزاء وإن كان كلامهم بصورة الاستفهام وأنف الشيء لما تقدّم معه مستعار عن الجارحة وهو ظرف بمعنى وقتا ومؤتنفا.

﴿قَالُواْ ... مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ وقالوا: تحقيرا لقولهصلى الله عليه وآله ويحتمل أن يكونوا سألوا رياء ونفاقا أي ماذا قال؟ أعده عليّ لأحفظه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بسمة الكفّار أو المعنى خلّى بينهم وبين اختيارهم ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وشهوات أنفسهم ومالت إليه طباعهم. ثمّ وصف سبحانه المؤمنين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ بما سمعوا من الرسول أو من قراءة القرآن والنبيّ ﴿زَادَهُمْ﴾ الله ﴿هُدًى﴾ أو أنّ فاعل «زاد» استهزاء المنافقين أي زاد المؤمنين استهزاء المنافقين إيماناً وعلماً وبصيرة وتصديقاً للنبيّ ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: وفّقهم للتقوى وقيل: المعنى وآتاهم ثواب تقواهم.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: الكافرون والمنافقون بعد أنّ البراهين قد صحّت والأمور اتّضحت وهم لم يؤمنوا فليس ينتظرون إلّا إتيان الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ وفجاة والمعنى إلّا إتيان الساعة إيّاهم بغتة ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ وعلاماتها والنبيّصلى الله عليه وآله من أشراطها. قالصلى الله عليه وآله: «بعثت أنا والساعة كهاتين».[3]
وأعلام الساعة انشقاق القمر والدخان وخروج النبيّ ونزول آخر الكتب،

۱ـ تفسير القمي، ج۲، ص۳۰۳، و بحار الانوار، ج۹، ص۲۳۸، و تفسير الصافي، ج۵، ص۲٤.
۲ـ تفسير الصافي، ج٦، ص٤۷۳، و بحار الانوار، ج۹، ص۱٥٥.
۳ـ مستدرك الوسائل، ج۱۲، ص۳۲٤، و صحيح مسلم، ج۸، ص۲۰۸.

والشرط بالتحريك العلامة وأصحاب الشرط سمّوا بذلك للبسهم لباسا يكون علامة لهم، والشرط في البيع علامة بين المتبايعين.

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أي: فمن أين لهم الذكر والاتّعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة. وموضع ذكراهم رفع والذكر بأمر الله أن يتذكّروا به، وحاصل المعنى وكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الساعة؟ فإنّه لا ينفعهم في ذلك الإيمان لزوال التكليف عنهم. ثمّ قال لنبيّه والمراد به جميع المكلّفين: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: اقسم على هذا العلم واثبت عليه واعلم في مستقبل عمرك ما تعلمه الآن ويدلّ عليه ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «من مات وهو يعلم أنّه لا إله إلّا الله دخل الجنّة». أورده المسلم في الصحيح[1]، وقيل: إنّ هذا إخبار بموته صلى الله عليه وآله والمراد فاعلم أنّ الحيّ الّذي لا يموت هو الله وحده. وقيل: إنّه كان ضيّق الصدر من أذى قومه فقيل له: فاعلم لا كاشف لذلك إلّا الله. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ الخطاب له والمراد به الامّة وإنّما خوطبوا بذلك لتستنّ أمته بسنّته. والمراد الانقطاع إلى الله فإنّ الاستغفار عبادة يستحقّ به الثواب ويمكن أن يكون المراد توفيق العمل الحسن واجتناب العمل السيّئ لأنّ الاستغفار طلب الغفران والغفران هو الستر عن القبيح ومن عصم فقد ستر عليه قبائح الهوى ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه واستغفاره من هذا القبيل ولطلب هذا العنوان وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو في حقّ المؤمنين كأنّه للنبيّ صلى الله عليه وآله ثلاثة أحوال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره، فأمّا مع الله فوحّده وأمّا مع نفسك فاطلب العصمة وبقاءها وأمّا مع المؤمنين فاستغفر لهم من الله.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أكرمهم الله بهذا إذ أمر نبيّه أن يستغفر لذنوبهم

١ـ صحيح مسلم، ج ١، ص ٤١، و تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٨.

وهو الشفيع المجاب فيهم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ فعلم سبحانه حالكم في الدنيا وفي الآخرة ويعلم منصرفاتكم في الدنيا ومصيركم في الآخرة إلى الجنّة أو إلى النار.

وقيل: يعلم متقلّبكم أي في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمّهات ومثواكم أي مقامكم في الأرض أو المعنى متصرّفاتكم بالنهار ومضجعكم باللّيل والحاصل أنّه عالم بجميع أحوالكم وقيل: المراد أنّ اللّه يعلم متقلّبكم في معائشكم ومتاجركم ويعلم حيث تستقرّون في منازلكم في الدنيا والآخرة ومثواكم في الجنّة أو إلى النار، ومثله حقيق بأن يخشى ويتّقى منه وإن يستغفر ويسترحم له فلا يأمركم إلّا بما هو خير لكم فيها فبادروا إلى الامتثال بما أمركم به فإنّه المهمّ لكم في المقامين.

مستدرك وتذييل في بعض أشراط الساعة ذكره الفيض في «الصافي»، من كتاب الخصال عن الصادقعليه السلام قال: «سئل رسول اللهصلى الله عليه وآله عن الساعة قال: عند إيمان بالنجوم وتكذيب بالقدر»[1].

وفي «العلل» عن النبيصلى الله عليه وآله في أجوبة مسائل عبد اللّه بن سلام: «أمّا أشراط الساعة فنار يحشر الناس من المشرق إلى المغرب»[2].

وفي «الكافي» عن الصادقعليه السلام قال: «قال النبيصلى الله عليه وآله: من أشراط الساعة أن يفشو الفالج وموت الفجاءة»[3].

وفي «روضة الواعظين» عن النبيصلى الله عليه وآله: «إنّ من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويفشو الزنا ويقلّ الرجال وتكثر النساء حتى أنّ

١ـ الخصال، ص٦٢، و وسائل الشيعة، ج١٧، ص١٤٣، و بحار الانوار، ج٦، ص٣١٣.

٢ـ علل الشرايع، ج١، ص٩٥.

٣ـ الكافي، ج٣، ص٢٦١، و بحار الانوار، ج٦، ص٣١٢، و تفسير الصافي، ج٥، ص٢٤، نور الثقلين، ج٥، ص٣٤، و ضعفاء العقيلي، ج٤، ص١٩٥.

الخمسين امرأة فيهنّ واحد من الرجال»(١).

والقميّ عن ابن عبّاس قال: حججنا مع رسول اللّهﷺ حجّة الوداع فأخذ بحلقة باب الكعبة ثمّ أقبل علينا بوجهه فقال: «ألا أخبركم بأشراط الساعة؟». فكان أدنى الناس منهﷺ يومئذ سلمان رحمة اللّه عليه فقال: بلى يا رسول اللّه. فقال: «إنّ من أشراط القيامة إضاعة الصلاة واتّباع الشهوات والميل مع الأهواء وتعظيم أصحاب المال وبيع الدين بالدنيا فعندها يذاب قلب المؤمن في جوفه كما يذاب الملح في الماء ممّا يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيّره».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قالﷺ: «إي والّذي نفسي بيده يا سلمان إنّ عندها يتولاهم أمراء جورة ووزراء فسقة وعرفاء ظلمة وأمناء خونة».

فقال سلمان: وإنّ هذا لكائن؟ قالﷺ: «إي والّذي نفسي بيده يا سلمان إنّ عندها يكون المنكر معروفا والمعروف منكرا يؤتمن الخائن ويخون الأمين ويصدّق الكاذب ويكذّب الصادق».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن؟ قال: «إي ثمّ عندها تكون إمارة النساء ومشاورة الإماء وقعود الصبيان على المنابر ويكون الكذب طرفاً والزكاة مغرماً والفيء مغنماً ويجفو الرجل والديه ويبرّ صديقه ويطلع الكواكب المذنّبة».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن؟ فقالﷺ: «إي وربّي وعندها يا سلمان تشارك المرأة زوجها في التجارة ويكون المطر غيضاً ويحتكر الرجل المعسر فعندها تكسد الأسواق إذ قال هذا لم أبع شيئا وقال هذا لم أربح شيئا فلا ترى إلّا ذامّا للّه».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن؟ قال: «إي فعندها يتولاهم أقوام إن تكلّموا قتلوهم وإن سكتوا استباحوهم ليستأثروا بفيئهم وليطؤوا حرمتهم وليسفكنّ دمائهم وليملئنّ قلوبهم رعبا فلا تراهم إلّا خائفين مرعوبين مرهوبين يا سلمان إنّ عندها فالويل

١ـ روضة الواعظين، ص٤٨٥.

لضعفاء امّتي منهم والويل لهم من الله لا يرحمون صغيرا ولا كبيرا ولايوقّرون كبيرا ولا يتجافون عن مسيء، جثتهم جثث الآدميّين وقلوبهم قلوب الشياطين وعندها يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها ويشبّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال وتركب ذوات الفروج على السروج فعليهنّ من أمّتي لعنة الله يا سلمان عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البيع والكنائس وتحلّى المصاحف وتطول المنارات وتكثر الصفوف، قلوب متباغضه وألسن متوافقة وعندها تحلّى ذكور أمّتي بالذهب ويلبسون الحرير والديباج ويتّخذون جلود النمور».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن؟ قال: «إي والّذي نفسي بيده وعندها يظهر الرباء ويتعاملون بالرشا ويوضع الدّين وترفع الدنيا ويكثر الطلاق فلا يقام لله حدّ ولن يضرّوا الله شيئا وعنده يظهر القينات والمعازف ويتولّاهم أشرار أمّتي وتحجّ أغنياء أمّتي للنزهة وتحجّ أوساطها للتجارة وقرّاؤهم للرياء والسمعة فعندها يكون أقوام يتعلّمون القرآن لغير الله ويتّخذونه مزامير ويكون أقوام يتفقّهون لغير الله ويكثر أولاد الزنا ويتغنّون بالقرآن ويتهافتون بالدنيا يا سلمان ذاك إذا انتهك المحارم واكتسب المآثم وسلّط الأشرار على الأخيار يفشو الكذب وتظهر الحاجة والفاقة ويتباهون في اللباس ويمطرون في غير أوان المطر ويستحسنون الكوبة والمعازف وينكرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتّى يكون المؤمن في ذلك الزمان أذلّ من الأمة ويظهر قرّاؤهم وعبّادهم فيما بينهم التلاوة فأولئك يدعون في ملكوت السماوات الأرجاس الأنجاس فعندها لا يجود الغنيّ على الفقير حتّى أنّ السائل يسأل فيما بين الجمعتين لا يصيب أحدا يضع في كفّه شيئا فعندها يتكلّم الرويبضة» فقال سلمان: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال ﷺ: «يتكلّم في امور العامّة من لم يكن يتكلّم فلم يلبثوا إلّا قليلاً حتّى تخور الأرض خورة فلا يظنّ كلّ قوم إلّا أنّها خارت في ناحيتهم فيمكثون ما شاء الله ثمّ ينكثون في مكثهم يلقي بهم الأرض أفلاذ كبدها ذهبا وفضّة». ثمّ أوما

بيده ﷺ إلى الأساطين فقال: هذا، فيومئذ لا ينفع ذهب ولا فضّة فهذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[1].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلّا نزلت لأنّهم كانوا يأنسون بنزول القرآن ويستوحشون لإبطائه ليعلموا أوامر الله ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ ليس فيها متشابه ولا تأويل وقيل: المعنى سورة ناسخة لما قبلها قال قتادة: كلّ سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة وهي أشدّ القرآن على المنافقين وقيل: المراد من المحكمة المقرونة بالوعيد المؤكّد كقوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وقيل: محكمة الوضوح ألفاظها وعلى هذا فالقرآن كلّه محكم وقيل: المحكمة هي الّتي تتضمّن نصًا لم يختلف تأويله ولم يتعقّبه نصّ وفي قراءة ابن مسعود سورة محدثة أي مجدّدة. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: وأوجب عليهم فيها أي في السورة القتال وأمروا به ﴿رَأَيْتَ﴾ يا محمّد ﴿الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وشكّ ونفاق ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ يريد أنّهم يشخصون نحوك بأبصارهم وينظرون إليك نظرا شديدا كما ينظر الشاخص ببصره عند الموت لثقل ذلك عليهم وعظمه في نفوسهم ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ هذا الكلام تهديد ووعيد قال الأصمعيّ: معنى هذا الكلام أي ولّاك وقارنك ما تكره، قتادة: أي العقاب والوعيد لهم وعلى هذا فأولى اسم للتهديد والوعيد فأولى لهم مبتدء وخبر ولا ينصرف «أولى» لأنّه على وزن الفعل وصار اسما للوعيد وقيل: المعنى أولى لهم طاعة لله ولرسوله وقول معروف بالإجابة أحسن فحينئذ يكون المعنى لو أطاعوا فأجابوا كانت الطاعة والإجابة أولى لهم وهذا المعنى قول ابن عبّاس في رواية عطا، واختار الكسائيّ هذا القول فعلى هذا المعنى طاعة وقول معروف متّصل بما قبله وعلى القول الأوّل يكون طاعة

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٣٠٣، و وسائل الشيعة، ج١١، پاورقي ص٢٧٦، و بحار الانوار، ج٦، ص٣٠٩.

وقول معروف مبتدأ محذوف الخبر تقديره طاعة وقول معروف أحسن وأمثل أو خبر مبتدء محذوف وتقديره أمرنا طاعة وقول معروف.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾
فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ
الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ﴾ فذكر المعنيان ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ وجوابه محذوف تقديره فإذا عزم ووجب الأمر تخلّفوا وخالفوا كأنّه يقولون في أول الأمر سمعا وطاعة وعند آخر الأمر خالفوا ونسب العزم إلى الأمر والمراد لصاحب الأمر ﴿فَلَوْ صَدَقُوا﴾ أي: لو صدقوا الله فيما أمرهم به وامتثلوا أمره ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وعلى كون المعنى في قوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ خير لهم وأحسن فمعنى قوله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا﴾ في إيمانهم واتّباعهم الرسول ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. ثمّ قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ الاستفهام للتقرير المؤكّد لأنّ الكفّار كانوا يقولون كيف نقاتل والقتل إفساد والعرب ذوو أرحامنا وقبائلنا فقال تعالى: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ لا يقع منكم إلّا الفساد في الأرض فإنّكم تقتلون من يقدرون عليه وتنهبونه والقتال واقع منكم أليس قتلكم ووأدكم البنات إفسادا وقطعا للرحم فلا يصحّ تعلّلكم بالجهاد بقولكم: القتل إفساد لأنّكم تقتلون وتنهون مع أنّه خلاف ما أمر الله والجهاد مع أنّه طاعة ومعروف من الله فكيف تنكرونه؟

في «الكافي» والقمّي عن عليّ عليه السلام: «أنّها نزلت في بني أميّة»[١].

قال الزمخشري: معنى ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ الآية، هل يتوقّع منكم الا الفساد؟ لأنكم اختبرتم. وقيل: المعنى إن أعرضتم وتولّيتم وأدبرتم عن دين رسول الله أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهليّة من التناهب والمقاتلة وقطع الأرحام.

وفي قراءة عليّ أمير المؤمنين إن تولّيتم على المجهول أن تولّاكم ولاة غشمة ظلمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى المذكورين المخاطبين لعنهم الله وأبعدهم من رحمته لإفسادهم وخذلهم حتّى صمّوا عن استماع الموعظة ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ عن إبصار طريق الهدى.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ ويتفكّرون فيه فيعتبروا به ويقضوا ما عليهم من الحقّ عن أبي عبد الله وأبي الحسن ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ وتنكير القلوب إرادة قلوب هؤلاء ومن كان مثلهم من غيرهم مثل قلوب المنافقين الّتي انقلعت عن الهدى والإيمان فلا تنفتح وقرئ إقفالها بصيغة المصدر والمراد أنّ بعض القلوب بسبب عدم تدبّرها وقبولها لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمورا لهداية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ أي: رجعوا عن الحقّ والإيمان ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ وظهر لهم طريق الحقّ وهم المنافقون عن ابن عبّاس والضحّاك وجماعة كانوا يؤمنون عند النبيّ ثمّ يظهرون الكفر فيما بينهم فتلك ردّة وقيل: هم كفّار أهل الكتاب كفروا بمحمّد صلى الله عليه وآله وقد عرفوا

١ـ الكافي، ج٨، ص١٠٣، و تفسير القمي، ج٢، ص٣٠٨، و القواعدوالفوائد، ج٣، ص٥٢، و بحار الانوار، ج٧١، ص١١١.

نعته ووجدوه مكتوباً في التوراة والإنجيل. في «الكافي» عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: «الّذين ارتدّوا عن الإيمان في ترك ولاية أمير المؤمنين قال: والله نزلت فيهم وفي أتباعهم»[۱].

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي زيّن وسهّل لهم عملهم وخطاياهم أو دعاهم إلى ما يوافق مرادهم وهواهم، وأملى لهم أي طوّل لهم أملهم وأوهم الأمن في المكاره وأبعد لهم في الأمل والامنيّة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾

ثمّ بيّن سبحانه سبب استيلاء الشيطان عليهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك التسويل والإملاء ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا﴾ ولاية عليّ: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ من القرآن وما فيه من الأمر والنهي والأحكام ومنعتهم الرياسة عن اتّباع محمّد والقرآن. والمرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[۲] «أنهم بنو أميّة كرهوا ما نزّل الله في ولاية عليّ بن أبي طالب» قوله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ سنطيعكم في التظاهر على عداوة رسول الله أو في ترك ولاية عليّ والقعود عن الجهاد ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: ما أسرّه بعضهم إلى بعض من

۱ـ الكافي، ج ۱، ص ٤۲۰، و بحار الانوار، ج۲۳، ص۳۷۵، و تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص٦۱٥.
۲ـ مجمع البيان، ج۹، ص۱۷٦، و شرح الاخبار، ج ۲، ص٥۷۳.

القول وما أسرّوه من الاعتقاد في أنفسهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: كيف حالهم إذا قبضت الملائكة أرواحهم وإنّما حذف تفخيماً لشأن ما ينزل بهم في ذلك الوقت من عظم العذاب والشدّة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ على وجه العقوبة لهم.

ثمّ ذكر السبب فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من المعاصي الّتي يكرهها الله ويعاقب عليها ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أي: سبب رضوانه وهو الإيمان وطاعة الرسول ﴿فَأَحْبَطَ﴾ اللهُ ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ الّتي كانوا يعملونها من البرّ والصدقات وغيرها لأنّها في غير إيمان ولا فائدة فيها.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أي: لا يبيّن الله أحقادهم على المؤمنين ولا يبدي معائبهم للنبيّ صلى الله عليه وآله.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ بأعيانهم يا محمّد حتّى تعرفهم بعلاماتهم وأشخاصهم لكي تعرفهم بها ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: وتعرفهم الآن في فحوى كلامهم لأنّ كلام الإنسان يدلّ على ما في ضميره.

وعن أبي سعيد الخدريّ قال: لحن القول بغضهم عليّاً[١]. قال: وكنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ببغضهم عليّ بن أبي طالب[٢] وروي مثل ذلك عن جابر بن عبد الله الأنصاري[٣] وعن عبادة بن الصامت قال: كنّا نبور أولادنا بحبّ عليّ بن أبي طالب فإذا رأينا أحدهم لا يحبّ عليّاً

١ـ تفسير الصافي، ج٥، ص٢٩، و بحار الانوار، ج٢٣، ص٣٨٦، و مناقب الأمام أميرالمؤمنين، المناقب، ج٣، ص٨، و انظر: شرح الاخبار، ج١، ص١٥٣، و الصراط المستقيم، ج١، ص٢٩٤، و تفسيرمجمع البيان، ج٩، ص١٧٦.

٢ـ شرح الاخبار، ج١، ص٤٤٦، و المناقب، ج٣، ص١٠، و بحار الانوار، ج٢٧، ص٢٣٨، و تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٤٥.

٣ـ المناقب، ج ٣، ص١٠، و الطرائف، ص٧٧، و الصراط المستقيم، ج١، ص١٩٤، و الإرشاد، ج١، ص٤٥.

علمنا أنّه لغير رشد[١]. وقال أنس: ما خفي منافق على عهد رسول اللّه بعد هذه الآية. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ ظاهرها وباطنها والفرق بين اللامين في قوله: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ أنّ الاولى جواب «لو» مثل الّتي في لأريناكهم واللام الثانية فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف.

ومعنى اللحن أن تميله إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبه مثل التورية والتعريض وبعض مفادات الكلام. قال الشاعر:

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا   واللحـن يعرفـه ذوو الألبـاب

ويقال للمخطئ لاحن لأجل أنّه يعدل بالكلام عن الصواب.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن
سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى
السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾

ثمّ أقسم سبحانه فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: نعاملكم معاملة المختبر بما نكلّفكم من الأمور الشاقّة ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ أي: نتميّز المجاهدين في سبيل اللّه من جملتكم والصابرين على الجهاد وقيل: المعنى حتّى يعلم أولياؤنا المجاهدين منكم. وأضاف العلم إلى نفسه تعظيماً لهم كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يؤذون أولياء اللّه وقيل: المعنى حتّى

١ـ نورالبراهين، ج٢، ص٥١٥، و الصافي، ج٥، ص٣٠، و بحار الانوار، ج٢٧، ص٢٣٨، و نور الثقلين، ج٥، ص٤٥، و مجمع البيان، ج٩، ص١٧٧.

نعلم جهادكم موجوداً لأنّ الغرض أن تفعلوا الجهاد فيثيبكم على ذلك ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نختبر أسراركم بما يستقبلونه من أفعالكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: امتنعوا عن اتّباع دين الله ومنعوا غيرهم عن اتّباعه تارة وبالإغواء اخرى قيل: المراد هم أهل الكتاب قريضة والنضير وقيل: المراد كفّار قريش يدلّ على القول الأوّل قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ تبيّن لهم صدق محمّد وهو نعته ﷺ في التوراة ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: خالفوه وعاندوه وعادوه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: بعد ما عرفوا أنّه رسول الله ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بذلك ﴿شَيْـًٔا﴾ وإنّما ضرّوا أنفسهم ﴿وَسَيُحْبِطُ﴾ الله ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فلا يرون لها ثوابا في الآخرة.

وفي هذه الآية دلالة على أنّ هؤلاء الكفّار كانوا قد تبيّن لهم الهدى فارتدّوا عنه ولم يقبلوه عنادًا وهم المنافقون وقيل: المراد رؤساء الضلالة جحدوا الهدى طلبا للجاه والرياسة لأنّ العناد يضاف إلى الخواصّ.

فإن قيل: إنّ في أوّل السورة قال سبحانه: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بصيغة الماضي فكيف قال: يحبط أعمالهم في المستقبل؟

فالجواب أنّ المراد من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في أوّل السورة المراد المشركون وهم من أوّل الأمر كانوا مبطلين وكانت أعمالهم على غير شريعة والمراد من الّذين كفروا في هذه الآية أهل الكتاب وكانت لهم أعمال قبل الرسول فأحبطها بسبب تكذيبهم الرسول ولا ينفعهم إيمانهم ويجوز أن يكون المراد من الأعمال في هذه الآية الأخيرة مكايدهم في القتال وذلك قد تحقّق منهم والله سيبطله حيث يكون النصر للمؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ إشارة إلى

حصول العمل بعد حصول العلم، ودوموا على الإطاعة والعمل ولا تشركوا فتبطل أعمالكم أو المعنى لا تتركوا طاعة الرسول فيبطل أعمالكم كما أبطل أهل الكتاب بسبب عدم طاعتهم للرسول وتكذيبهم إيّاه ويؤيّد المعنى الثاني قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وقيل: المراد أن تبطلوا أعمالكم بالرياء وقيل: المراد بالكبائر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ مرّ تفسيره ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: صبروا على الكفر حتّى ماتوا على كفرهم ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أبدا لأنّ لفظ «لن» للتأييد.

﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أي لا تتولّوا ولا تضعفوا عن القتال ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أي: ولا تدعوا الكفّار إلى المسالمة والمصالحة ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: وأنتم القاهرون الغالبون وقيل: إنّ الواو للحال أي إذا كنتم غالبين وتكون الغلبة لكم لا تصالحوهم فعلى المعنى الأوّل إخبار من اللّه على غلبتهم على الكافرين أي أنتم أيّها المؤمنون أعلى يدا وقدرة ومنزلة آخر الأمر وإن غلب الكفّار في بعض الأحوال ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بالنصرة ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: لن ينقصكم من ثوابكم شيئا والترة النقص من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا من أخ أو حميم والمعنى مأخوذ من أفردته من قريبه يشبه إضاعة عمل العامل بوتر الواتر، ومنه قوله عليه السلام: **«من فاتته صلاة العصر فكأنّما وتر أهله وماله»**[1] أي أفرد عنهما قتلا ونهبا.

١ـ عوالي اللئالي، ج ١، ص١٢٩، و نور الثقلين، ج٥، ص٤٦، و وسائل الشيعة، ج١٨، ص٢٤٨، و مواهب الجليل، ج٣، ص٤٣، و مسند أحمد، ج٢، ص١٤٥، و بحار الانوار، ج٩٨، ص١٥٤، و سنن النسائي، ج ١، ص٢٣٨، و السنن الكبرى، ج ١، ص٤٤٥.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾

ثمّ حثّ الله سبحانه على طلب الآخرة فقال: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: سريعة الفناء والانقضاء ومن اختار الفاني على الباقي كان جاهلا ومنقوصاً والّذي خلقها هو أعلم بها ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا﴾ بالله ورسوله وتتّقوا معاصيه ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ وجزاء أعمالكم في الآخرة.

﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ كلّها في الصدقة وإن أوجب عليكم الزكاة في بعض أموالكم وقيل: معنى الآية لا يسألكم أموالكم لأنّ الأموال كلّها لله فهو أملك لها وهو المنعم باعطائها وقيل: لا يسألكم الرسول على أداء الرسالة أموالكم أن تدفعوها إليه ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ يقال: أحفى شار به إذا استأصله وأحفى في المسألة إذا لم يترك شيئا من الإلحاح وبالغ فيه أي إن يسألكم جميع أموالكم ويجهدكم بمسألة جميعها ﴿تَبْخَلُوا﴾ بها ولا تعطونها ويظهر بغضكم وعداوتكم لله ولرسوله ولكنّه فرض عليكم ربع العشر والضمير في ﴿وَيُخْرِجْ﴾ راجع إلى الله وقرئ نخرج بالنون وبالتاء مع فتح التاء والراء ورفع ﴿أَضْغَانَكُمْ﴾

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: أنتم أيّها المخاطبون هؤلاء الموصوفون ﴿تُدْعَوْنَ﴾ فيه توبيخ عظيم وتحقير لشأنهم ﴿لِتُنفِقُوا﴾ في سبيل الله أي إنّما أمرتم بإخراج ذلك للإنفاق ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطاعته وهو يعمّ الزكاة والغزو وصرفه إلى المستحقّين من إخوانكم. ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ بما

فرض اللّه عليه ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ لأنّه يحرمها مثوبة جسيمة ثمّ يلزمه عقوبة عظيمة والمراد أنّ معطي المال أحوج إليه من الفقير الآخذ فبخله بخل على نفسه وذلك أشدّ البخل لأنّه إنّما يبخل بالخير والفضل في الآخرة عن نفسه كمن يبخل عن اجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض ثمّ حقّق ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عمّا عندكم من الأموال ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ إلى ما عند اللّه من الخير والرحمة ولا يأمركم بالإنفاق لحاجة ولكن لتنفعوا بذلك الإنفاق في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ وتعرضوا عن طاعته وعن أمر رسوله ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أمثل وأطوع منكم في أوامر اللّه ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ بل يكونوا خيرا منكم وروى أبو هريرة أنّ ناساً من أصحاب رسول اللّهﷺ قالوا: يا رسول اللّه من هؤلاء الّذين ذكرهم اللّه؟ وكان سلمان إلى جنب رسول اللّهﷺ، فضرب يده إلى فخذ سلمان فقال: **«هذا وقومه والّذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريّا لتناوله رجال من فارس»**[1] وروى أبو بصير عن أبي جعفرعليه السلام قال[2]: **«إن تتولّوا يا معشر العرب يستبدل قوما غيركم يعني الموالي»**. القمّيّ قوله[3]: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ عطف على ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ﴾ أي إن تتولّوا عن ولاية أمير المؤمنين يستبدل قوما خيرا منكم يقومون مكانكم ولا يكونون أمثالكم في معاداتكم وخلافكم وظلمكم لآل محمّدﷺ.

تمّت السورة بحمد اللّه.

١ـ بحار الانوار، ج٦٤، ص١٦٨، و كنزالعمال، ج١١، ص٦٩٠، و تفسيرمجمع البيان، ج٩، ص١٨١.

٢ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٨١، و بحار الانوار، ج٢٢، ص٥٢.

٣ـ تفسير القمي، ج٢، ص٣٠٩.

سورة الفتح

مدنية. فضلها: أبيّ بن كعب قال: «من قرأها فكأنّما شهد مع محمّد صلى الله عليه وآله فتح مكّة»[1].

وفي رواية اخرى فكأنّما بايع محمّد تحت الشجرة[2] قال عمر بن الخطّاب: كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في سفر فقال صلى الله عليه وآله: «انزلت عليّ البارحة سورة هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾» أورده البخاري في الصحيح. عن أنس بن مالك قال: لمّا تراجعنا من غزوة الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا فنحن بين الحزن والكآبة إذ أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾؛ فقال صلى الله عليه وآله: «لقد أنزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدنيا كلّها»[3].

وعن عبد الله بن مسعود قال: أقبل رسول الله من الحديبية فجعلت ناقته تثقل فقدّمنا فأنزل الله ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، فأدركنا رسول الله وبه من السرور ما شاء الله فأخبر صلى الله عليه وآله أنها أنزلت عليه[4]. عبد الله بكير عن أبيه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «حصّنوا أموالكم ونساءكم وما ملكت أيمانكم من التلف

١ـ مستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٤٩، و مجمع البيان، ج٩، ص١٨١.

٢ـ مستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٤٩، و مجمع البيان،ج٩، ص١٨١، و مسنداحمد، ج١، ص٣١، و نور الثقلين، ج٥، ص٤٧.

٣ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٨١، و نور الثقلين، ج٥، ص٤٧، و تفسير الثعلبي، ج٩، ص٤٠، و جامع البيان، ج٢٦، ص٩١.

٤ـ نور الثقلين، ج٥، ص٤٧، و مجمع البيان، ج٩، ص١٨١.

بقراءة إنّا فتحنا لك فتحا مبيناً فإنّه من كان يدمن قراءتها ناداه مناد يوم القيامة حتّى يسمع الخلائق أنت من عبادي المخلصين ألحقوه بالصالحين من عبادي فأسكنوه جنات النّعيم واسقوه الرّحيق المختوم بمزاج الكافور»(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾

المعنى: الفتح ضدّ الإغلاق وهو الأصل ثمّ استعمل في معان كثيرة فمنها الحكم والقضاء والحكومة والنصر ومنها فتح البلدان ومنها العلم نحو قوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾(٢) من ذلك.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي: قضينا لك قضاء ظاهراً وقيل: معناه يسّرنا لك يسراً بيّناً وقيل: أعلمناك علماً ظاهراً وفي الفتح وجوه أحدها: فتح مكّة وثانيها: فتح الروم وغيرها وثالثها: صلح الحديبية والأظهر الأنسب فتح مكّة للمناسبة.

والربط الآخر، السورة المتقدّمة لأنّه سبحانه لمّا قال: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ بيّن تعالى أنّه فتح لهم مكّة وغنموا ديارهم وحصل لهم أضعاف ما

١ـ ثواب الاعمال، ص١١٥، و تفسيرجوامع الجامع، ج٣، ص٣٧٧.

٢ـ سورة الأنعام: ٥٩.

أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك وكذلك لمّا قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ وكان معناه لا تسألوا الصلح من عندكم بل اصبروا فإنّهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية.

فلو قيل: إن كان المراد فتح مكّة فمكّة حينئذ لم تكن فتحت فكيف قال: ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ بلفظ الماضي؟ والمعنى قدّرنا فتحها وحكمنا وما قدّره اللّه فهو كائن لا محالة. نزلت الآية عند مرجع النبيّ ﷺ من الحديبية بشّر في ذلك الوقت بفتح مكّة.

وعن جابر قال: ما كنّا نعلم فتح مكّة إلّا يوم الحديبية وذلك أنّ المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكّن الإسلام في قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير فكثر بهم سواد الإسلام، والحديبية بئر روي أنّه نفد ماؤها وظهر فيها من أعلام النبوّة ما اشتهرت به الروايات.

قال البراء بن عازب: تعدّون الفتح فتح مكّة وقد كان فتح مكّة فتحا ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية والحديبية بئر نزحناها فما وجد فيها قطرة فبلغ ذلك إلى النبيّ ﷺ فأتاها وجلس على شفيرها ثمّ دعا بإناء من ماء فتوضّأ، ثمّ تمضمض ودعا، ثمّ صبّه فيها وتركها ثمّ إنّها أصدرتنا نحن وركابنا[١].

وعن محمّد بن إسحاق بن يسار عن الزهريّ عن عروة بن الزبير عن المسوّر بن مخرمة إنّ رسول اللّه خرج لزيارة البيت لا يريد حرباً فذكر الحديث إلى أن قال: قال رسول اللّه: «انزلوا». فقالوا: يا رسول اللّه ما بالوادي ماء فأخرج من كنانته سهما فأعطاه رجلا من أصحابه فقال له: «أنزل في هذا القليب فاغزره في جوفه». ففعل فجاش بالماء الرواء[٢].

١ـ تاريخ الأسلام، ج٢، ص٣٧٥، و تفسيرالبغوي، ج٤، ص١٨٨، و الدرالمنثور، ج٦، ص٦٨.

٢ـ تفسيرمجمع البيان، ج٩، ص١٨٣، و بحار الانوار، ج٢٠، ص٣٤٦.

وعن عروة وذكر خروج النبيّ قال: وخرج قريش من مكّة فسبقوه إلى بلدح وإلى الماء فنزلوا عليه فلمّا رأى النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه سبق نزل صلى الله عليه وآله على الحديبية وذلك في حرّ شديد وليس فيها إلّا بئر واحد فأشفق القوم من الظماء والقوم كثير فنزل فيها رجال يمتحنوها ودعا النبيّ بدلو من ماء فتوضّأ من الدلو ومضمض فاه ثمّ مجّ فيه وأمر أن يصبّ في البئر ونزع سهما من كنانته وألقاه في البئر فدعا الله ففارت بالماء جعلوا يغترفون بأيديهم منها وهم جلوس على شفتها[1].

وروى سالم بن أبي الجعد قال: قلت لجابر بن عبد الله: كم كنتم يوم الشجرة؟ قال كنّا ألفا وخمس مائة، وذكر عطشاً أصابهم قال: فأتى رسول الله بماء في تور فوضع يده فيه فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنّه العيون قال: فشربنا وسقنا وكفانا قال: قلت كم كنتم؟ قال: لو كنّا مائة ألف لكفانا كنّا ألفا وخمس مائة[2]. وروي عن مجمع بن حارثة الأنصاريّ أنّ المراد فتح خيبر قال: شهدنا الحديبية مع رسول الله فلمّا انصرفنا عنها إذا الناس يهزّون الأباعر فقال بعض الناس لبعض: ما بال الناس قالوا: أوحي إلى رسول الله فخرجنا نوجف فوجدنا النبيّ واقفا على راحلته عند كراع الغميم فلمّا اجتمع الناس إليه قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ السورة، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ قال: **«نعم والّذي نفسي بيده إنّه لفتح فقسمت خبر على أهل الحديبية لم يدخل فيها أحدا إلّا من شهدها»**[3].

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وقد فسّر بعض الحشويّة بعض التفاسير الباطلة الّتي لا يقبلها ذو دين مثل أن حملوا الآية على ظاهرها

١ـ بحار الانوار، ج١٨، ص٣٧، و تفسيرمجمع البيان، ج٩، ص١٨٣.

٢ـ كنزالعمال، ج١٢، ص٣٦٧، و بحار الانوار، ج ٢٠، ص٣٤٦، و تفسيرمجمع البيان، ج٩، ص١٨٤.

٣ـ مجمع البيان، ج٩، ص١٨٤، و بحار الانوار، ج ٢١، ص٨.

ونسبوا إليها الصغيرة وأمثالها.

وقال ابن عطاء الخراسانيّ لمّا بلغ سدرة المنتهى ليلة المعراج قدّم هوﷺ وتأخّر جبرئيل فقال لجبرئيل: «أتتركني في هذا الموضع وحدي؟» فعاتبه الله حين سكن إلى جبرئيل فقال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فيكون كلّ من الذنبين بعد النبوّة.

وقال سفيان الثوريّ: ما تقدّم أي ممّا عملت في الجاهليّة وما تأخّر ممّا لم تعمله ويذكر مثل ذلك على طريق التأكيد مثل قولهم: ضرب من لقاه ومن لم يلقه والمعلوم من كلام الثّوريّ أنّه من الحشويّة وإلّا ما حشا فاه بهذا التّبن، فالثور ثور وإن عبد.

وقيل: إنّ ما تقدّم من الذنب بالنسبة إليه يوم بدر وما تأخّر يوم حنين أمّا يوم بدر حيث قال: «اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض أبداً». فعوتبﷺ من أين تعلم أنّي إن أهلكتها لا أعبد أبدا؟ فكان الذنب المتقدّم هذا وقال يوم حنين بعد أن هزم الناس ورجعوا إليه: لو لم أرمهم بكفّ الحصى لم يهزموا فأنزل الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ وهو الذنب المتأخّر.

والصحيح أي ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنب امّتك وما تأخّر بشفاعتك.

وقيل: المراد الوعد بالعصمة قبل الفتح وبعد الفتح والإشارة إلى عموم العصمة كقولهم اضرب من لقيت ومن لا تلقاه مع أنّ من لا يلقى لا يمكن ضربه وهو إشارة إلى العموم وكقول القائل لغيره: «صفحت عن السالف والآنف» وحسنت إضافة ذنوب أمته إليه للاتّصال والسبب بينه وبين أمته ويؤيّد هذا المعنى ما رواه المفضّل بن عمر عن الصادقؑ قال: سأله رجل عن هذه الآية فقال: «والله ما كان له ذنب ولكنّ الله ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة عليّ ما تقدّم من ذنبهم وما تأخّر».

وقيل: ما تقدّم من ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك، وإضافة الذنب إليه لأنه صلى الله عليه وآله كان في صلبه. قوله: ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي من ذنوب امتك بشفاعتك.

وقيل: استغفار الأنبياء لا يكون عن ذنب كذنوبنا وإنّما هو عن أمر يدقّ عن عقولنا.

وقيل: إنّ نسبة الذنب إليه من حيث إنّ شريعته حكمت بأنّه ذنب في شريعته مثل الغيبة مثلا فإنّه صلى الله عليه وآله حكم بأنّها ذنب فحسن الإضافة فذنوب أمته يضاف إليه وإلى شريعته بهذا التقرير فهذا اطمينان له في أمته ولو بعد عقوبة.

وروى عمرو بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ....﴾ قال: «ما كان له ذنب ولا همّ بذنب ولكنّه حمله ذنوب شيعته ثمّ غفرها له»[1].

وقال المرتضى قدّس الله روحه: إنّ الذنب مصدر والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول معا فيكون هنا مضافاً إلى المفعول والمراد ما تقدّم من ذنبهم إليك في منعهم إيّاك عن مكّة وصدّهم لك عن المسجد الحرام فيكون معنى المغفرة على هذا المعنى الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه أي يزيل الله ذلك عنك ويستر عليك تلك الوصمة بما يفتح لك من مكّة ولذلك جعله جزاء على جهاده. قال: ولو أنّه أراد مغفرة ذنوبه لم يكن لقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ معنى معقول لأنّ المغفرة للذنوب لا تعلّق لها بالفتح فلا يكون غرضاً فيه وأمّا قوله: ﴿مَا تَقَدَّمَ ... وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فلا يمتنع أن يريد به ما تقدّم زمانه من فعلهم القبيح بك وبقومك. وقيل في تأويل الآية: إنّ معناه لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك أو المراد بالذنب ترك المندوب والأفضل وحسن ذلك لأنّ من لا يخالف الأوامر فجاز

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص٣١٤، و بحار الانوار، ج١٧، ص٧٦، و مجمع البيان، ج٩، ص١٨٥، و تفسير الصافي، ج٦، ص٤٩٤.

أن يسمّى ذنبا منه ما لو وقع من غيره لم يسمّ ذنبا وذلك الأمر لعلوّ قدره ﷺ ورفعة شأنه.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ في الدنيا بإخلاء الأرض لك عن معانديك بإظهارك على عدوك ونصرة دينك وبقاء شرعك وفي الآخرة برفع محلّك فإنّ يوم الفتح لم يبق للنبيّ عدوّ ذو اعتبار فإنّ بعضهم كانوا اهلكوا يوم بدر والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي يديمك ويثبتك على الصراط المستقيم أو المعنى أن جعل الفتح سببا للهداية إلى الصراط المستقيم لأنّ الجهاد سبب سلوك سبيل اللّه للمؤمنين. ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ ظاهرا غالباً لأنّ بالفتح ظهر النصر واشتهر الأمر إذ صيّر دينه ﷺ أعزّ الأديان وسلطانه أعظم السلطان.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والسكينة أن يفعل اللّه بهم اللطف الّذي يحصل لهم عنده من البصيرة بالحقّ ما تسكن إليه نفوسهم وذلك بكثرة ما ينصب لهم من الأدلّة فهذه النعمة التامّة خاصّة للمؤمنين وأمّا غيرهم فيضطرب نفوسهم لأوّل عارض من شبهة ترد عليهم إذ لا يجدون برد اليقين وروح الطمأنينة في قلوبهم، والسكينة هو سبب ذكرهم اللّه كما قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وقيل: معنى السكينة النصرة للمؤمنين لتسكن بذلك نفوسهم ويثبتوا على القتال. ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي: يقينا إلى يقينهم بما يرون من الفتوح وعلوّ كلمة الإسلام ويزدادوا تصديقاً بشرائع الإسلام وهو أنّهم كلّما أمروا بشيء من الشرائع والفرائض كالصلاة والصيام والصوم والصدقات صدّقوا به وذلك بالسكينة الّتي أنزلها اللّه في قلوبهم ليزدادوا معارفاً على المعرفة الحاصلة عندهم.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: الملائكة والجنّ والإنس والشياطين

يعني لو شاء لأعانكم به. وفي الآية بيان أنّه لو شاء لأهلك الكافرين لكنّه عالم بهم وبما يخرج من أصلابهم فأمهلهم لعلمه بالعاقبة ولم يأمر بالقتال عن عجز واحتياج لكن ليعرض المجاهدين الثواب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فكلّ أفعاله حكمة وصواب.

﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تقدير الآية إنّا فتحنا لك ليغفر لك الله إنّا فتحنا لك ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات ولذلك لم يدخل واو العطف في ليدخل إعلاماً بالتفصيل تجري من تحتها الأنهار أي من تحت أشجارها الأنهار خالدين مؤبّدين لا يزول عنهم نعيماً.

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ وعقاب معاصيهم الّتي فعلوها ويجوز أن يكون المعنى أنزل السكينة على المؤمنين ليزدادوا إيماناً بسبب الإنزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنّات.

فإن قيل: فقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ عطف على قوله: ليدخل، وازدياد إيمانهم لا يصلح سببا لتعذيبهم، بلى والمعنى أنكم بسبب ازديادكم في الإيمان يدخلكم في الآخرة جنّات وبسبب عدم إيمانهم ومخالفتهم لكم وعدم اتّباعهم يزداد الكافر كفرا فيعذّبه به. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ما ذكر من الإدخال والتكفير عند الله أي كائن في علمه وهو فوز عظيم لا يقدَر قدره لأنّه منتهى ما يمتدّ إليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضرّ وتقديم الإدخال في الذكر على التكفير مع أنّ الترتيب في الوجود على العكس للمسارعة إلى ما هو المطلب الأعلى.

وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا

﴿حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ
نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

قدّم سبحانه ذكر المنافقين على المشركين في مواضع من القرآن لأنّهم كانوا أشدّ على المؤمنين من الكافر وأضرّ عليهم لأنّ المؤمن يتوقّى الكافر في معاشرته ولكن يخالط المنافق لعدم علمه بنفاقه ﴿الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ ظنّ السوء ظنّهم أنّ الله لا ينصر الرسول والمؤمنين ولا يرجعهم إلى مكّة ظافرين ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: ما يتربّصونه بالرسول والمؤمنين فهو حالق بهم ودائر عليهم.

والسوء بالضمّ الهلاك والدمار وقرئ بالفتح أي الدائرة الّتي يذمّونها ويسخطونها فهي عندهم دائرة سوء وعند المؤمنين دائرة صلاح وصدق وهل فرق بين السوء والسوء؟ هما كالكره والكره والضعف والضعف من ساء إلّا أنّ الفتح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمّه من كلّ شيء وإمّا السوء بالضمّ فمعناه جار مجرى الشرّ الّذي هو نقيض الخير، يقال: أراد به السوء وأراد به الخير ولذلك أضيف الظنّ إلى المفتوح لكونه مذموماً وأمّا دائرة السوء بالضمّ فلأنّ الّذي أصابهم مكروه وشدّة فصحّ أن يقع عليه اسم السوء كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾[1] أو السوء المصدر والسوء الاسم وهو أيضاً على التقرير المذكور وقيل: على قراءة الضمّ المراد دائرة العذاب وبالفتح المراد ما جعله للمؤمنين من قتلهم وغنيمة أموالهم قوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يجعلهم فيها ﴿وَسَآءَتْ

١ـ سورة الأحزاب: ١٧.

﴿مَصِيرًا﴾ أي: مآلا ومرجعاً ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ وإنّما كرّر فذكرهم أولا لبيان الرحمة بالمؤمنين فقال بعده ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ والثاني لبيان العذاب على الكافرين فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وفيه إشارة إلى ذكر العذاب ولذا ذكر العزّة كقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾[1] وقال: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[2] ولا بأس بذكر بعض قصّة الحديبية وهي أنّ رسول الله أمر في النوم أن يدخل المسجد الحرام ويطوف ويحلّق مع المحلّقين فأخبر أصحابه وأمرهم بالخروج فخرجوا من المدينة فلمّا نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة وساقوا البدن وساق رسول الله ستّة وستّين بدنة فأحرموا من ذي الحليفة ملبّين بالعمرة وقد ساق منهم الهدي مشمرات مجلّلات.

فلمّا بلغ قريشا ذلك بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كمينا لتستقبل رسول اللهﷺ وكان يعارضه على الجبال فلمّا كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر فأذّن بلال فصلّى رسول الله بالناس فقال خالد: لو كنّا حملنا عليهم في الصلاة لأصبناهم فإنّهم لا يقطعون صلاتهم ولكن تجيء الآن لهم صلاة اخرى أحبّ إليهم من ضياء أبصارهم فإذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم فنزل جبرئيل على رسول الله بصلاة الخوف في قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾[3] الآية، وهذه الآية في سورة النساء.

فلمّا كان في اليوم الثاني فنزل النبيﷺ الحديبية وهي على طرف الحرم وكانﷺ يستنفر الأعراب في طريقه معه فلم يتّبعه أحد منهم ويقولون: أيطمع محمّد وأصحابه أن يدخلوا الحرم وقد غزتهم قريش في

١ـ سورة الزمر: ٣٧.

٢ـ سورة القمر: ٤٢.

٣ـ سورة النساء: ١٠٢.

عقر ديارهم فقتلوا فلا يرجع محمّد وأصحابه إلى المدينة.

فلمّا نزل رسول اللّه الحديبية خرجت قريش يحلفون باللّات والعزّى لا يدعون رسول اللّه يدخل مكّة وفيهم عين تطرف فبعث إليهم رسول اللّه أنّي لم آت لحرب وإنّما جئت لأقضي مناسكي وأنحر بدني واخلّي بيني وبينكم وبين لحماتها فبعثوا عروة بن مسعود الثقفيّ وكان عاقلا لبيباً وهو الّذي أنزل اللّه فيه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ فلمّا أقبل إلى رسول اللّه قال: يا رسول اللّه تركت قومك وقد ضربوا الأبنية وأخرجوا العود المطافيل يحلفون باللّات والعزّى لا يدعوك تدخل مكّة وفيهم عين تطرف أفتريد أن تتبرّأ أهلك وقومك؟ فقال النبيّ ﷺ: **«ما جئت إلّا لأقضي مناسكي»**. فقال عروة: واللّه ما رأيت أحدا كاليوم صدّ كما صددت.

ثمّ رجع إلى قريش وأخبرهم فقالت قريش: واللّه لئن دخل محمّد مكّة وتسامعت به العرب لنذلّنّ ولتجترئنّ علينا العرب فبعثوا حفص بن أحنف وسهيل بن عمرو فلمّا نظر إليهما النبيّ ﷺ قال: **«ويح قريش قد نهكتهم الحرب ألا خلّوا بيني وبين العرب فإن أك صادقا فإنّما أجرّ الملك إليهم مع النبوّة وإن أك كاذبا كفتهم ذئبان العرب، لا يسألني اليوم أحد من قريش حاجة ليس للّه فيها سخط إلّا أجبتهم»**.

فلمّا وافى الرجلان قالا: يا محمّد ألا ترجع منّا عامك هذا إلى أن ننظر إلى ما يصير أمر العرب؟ فإنّ العرب قد تسامعت بمسيرك فإذا دخلت بلادنا وحرمنا استذلّتنا العرب واجترأت علينا ونخلّي لك في العام المقبل في هذا الشهر ثلاثة أيّام حتّى تقضي منسكك وتنصرف عنّا فأجابهم النبيّ إلى ذلك وقالوا له: تردّ إلينا كلّ من جاءك من رجالنا ونردّ إليك كلّ من جاءنا من رجالك فقال رسول اللّه: **«من جاءكم من رجالنا فلا حاجة لنا فيه ولكن على أنّ المسلمين بمكّة لا يؤذون في إظهارهم الإسلام ولا يكرهون ولا ينكر عليهم شيء**

يعملونه من شرائع الإسلام» فقبلوا ذلك.

فلمّا أجابهم رسول الله إلى الصلح أنكر عامّة أصحابه وأشدّ ما كان إنكار عمر فقال: يا رسول الله ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟ فقال: «نعم». قال: أتعطي الذلّة في ديننا؟ فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ قد وعدني فلن يخلفني». قال: ولو أنّ لي أربعين رجلا لخالفته.

فرجع سهيل بن عمرو وحفص بن الأحنف إلى قريش فأخبراهم بالصلح فقال عمر: يا رسول الله ألم تقل لنا أن ندخل المسجد الحرام ويحلّق مع المحلّقين؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «أمن عامنا هذا وعدتك؟ قلت لك: إنّ الله عزّ وجلّ قد وعدني أن أفتح مكّة وأطوف وأسعى وأحلق مع المحلّقين».

فلمّا أكثروا عليه قال: «إن لم تقبلوا الصلح فحاربوهم فمرّوا نحو قريش وهم مستعدّون للحرب وحملوا عليهم». فانهزم أصحاب رسول الله هزيمة قبيحة ومرّوا برسول الله فتبسّم صلى الله عليه وآله ثمّ قال: «يا عليّ خذ السيف واستقبل قريشا». فأخذ أمير المؤمنين سيفه وحمل على قريش فلمّا نظروا إلى أمير المؤمنين تراجعوا ثمّ قالوا: أبدا لمحمّد فيما أعطانا؟ فقال: لا. وتراجع أصحاب رسول الله مستحيين وأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله فقال صلى الله عليه وآله: «ألستم أصحابي يوم بدر إذ أنزل الله فيكم ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[1] ألستم أصحابي يوم احد: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾[2] ألستم أصحابي يوم كذا، ألستم أصحابي يوم كذا؟!»، فاعتذروا إلى رسول الله وندموا على ما كان منهم وقالوا: الله أعلم ورسوله فاصنع ما بدا لك.

١ـ سورة الأنفال: ٩.

٢ـ سورة آل عمران: ١٥٣.

ورجع حفص بن الأحنف وسهيل بن عمرو إلى رسول الله فقالا: يا محمّد قد أجابت قريش إلى ما اشترط من إظهار الإسلام وأن لا يكره أحد على دينه فدعا رسول الله بالكتب ودعا أمير المؤمنين وقال له: «اكتب فكتب بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: لا نعرف الرحمن اكتب كما كان يكتب آباؤك بسمك اللّهم فقال رسول الله: «اكتب بسمك اللهم فإنّه اسم من أسماء الله» ثمّ كتب هذا ما تقاضى عليه محمّد رسول الله ﷺ والملأ من قريش. فقال سهيل بن عمرو: لو علمنا أنّك رسول الله ما حاربناك؛ اكتب هذا ما تقاضى عليه محمّد بن عبد الله أتأنف من نسبك يا محمّد؟ فقال النبيّ ﷺ: «أنا رسول الله وإن لم تقرّوا»، ثمّ قال: «امح يا عليّ واكتب محمّد بن عبد الله». فقال عليّ عليه السلام: «ما أمحو اسمك من النبوّة». فمحا رسول الله بيده ثمّ كتب: «هذا ما اصطلح عليه محمّد بن عبد الله والملأ من قريش وسهيل بن عمرو واصطلحوا على وضع الحرب بينهم عشر سنين على أن يكفّ بعضنا عن بعض، وعلى أنّه لا إسلال ولا إغلال[1]، وأنّ بيننا غيبة مكفوفة، وأنّ من أحبّ أن يدخل في عهد محمّد وعقده فعل، ومن أحبّ أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل، وأنّه من أتى محمّدا بغير إذن وليّه ردّه، وأنّه من أتى قريشا من أصحاب محمّد لم يردّه إليه وأن يكون الإسلام ظاهرا بمكّة ولا يكره أحد على دينه ولا يؤذى ولا يعيّر وأنّ محمّدا يرجع عامه هو وأصحابه ثمّ يدخل علينا في العام القابل مكّة فيقيم فيها ثلاثة أيّام ولا يدخل عليها بسلاح إلّا سلاح المسافر وكتب عليّ بن أبي طالب وشهد على الكتاب المهاجرون والأنصار».

قال النبيّ ﷺ: «يا عليّ إنّك أبيت أن تمحو اسمي من النبوّة فو الّذي بعثني بالحقّ نبيّا لتجيبنّ أبناءهم إلى مثلها وأنت مضيض مضطهد»[2] فلمّا كان يوم صفّين

١ـ الأغلال: الخيانة، والإسلال: الاغارة.

٢ـ أورده القلقشندي في صبح الأعشى عند نقله صلح صفين والتراضي بالحكمين.

ورضوا بالحكمين كتب هذا ما اصطلح عليه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان فقال عمرو بن العاص: لو علمنا أنّك أمير المؤمنين ما حاربناك ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان فقال أمير المؤمنين: «صدق الله ورسوله أخبرني بذلك رسول الله».

وبالجملة فلمّا كتبوا الكتاب قامت خزاعة فقالت: نحن في عهد محمّد رسول الله وعقده وقامت بنو بكر فقالت: نحن في عهد قريش وعقدها وكتبوا نسختين: نسخة عند رسول الله ونسخة عند سهيل ورجع سهيل وحفص إلى قريش فأخبروهم وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «انحروا بدنكم واحلقوا رءوسكم». فامتنعوا وقالوا: كيف ننحر ولم نطف بالبيت ولم نسع بين الصفا والمروة؟ فاغتمّ لذلك الرسول وشكا ذلك إلى امّ سلمة فقالت: يا رسول الله انحر أنت واحلق فنحر رسول الله وحلق فنحر القوم على يقين وشكّ وارتياب. فقال النبي ﷺ تعظيما للبادن: «رحم الله المحلّقين». وقال قوم: لم يسوقوا البدن يا رسول الله والمقصّرين لأنّ من لم يسق هديا لم يجب عليه الحلق. فقال رسول الله: «ثانيا رحم الله المحلّقين الّذين لم يسوقوا الهدي». فقالوا: يا رسول الله والمقصّرين فقال: «رحم الله المقصّرين».

ثمّ رحل ﷺ نحو المدينة فرجع إلى التنعيم ونزل تحت الشجرة فجاء أصحابه الّذين أنكروا عليه الصلح واعتذروا وأظهروا الندامة على ما كان منهم وسألوا رسول الله أن يستغفر لهم فنزلت آية الرضوان وهذه القصّة مذكورة في روضة الكافي عن الصادق بزيادة ونقصان من أرادها فليراجع[1].

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ ثمّ خاطب نبيّه فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمّد شاهداً على امّتك بما عملوه من طاعة ومعصية وقبول

١ـ انظر: تفسير القمي، ج٢، ص٣١٠، و تفسير الصافي، ج٥، ص٣٧.

وردَ ﴿شَٰهِدًا﴾ تبليغ الحكم والتكليف ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالجنّة لمن أطاع ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لمن عصى ثمّ بيّن الغرض من الإرسال ﴿لِّتُؤْمِنُوا﴾ وقرئ بالياء فالمعنى ليؤمن هؤلاء الكفّار ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ والهاء راجع إلى النبيّ أي: تنصروه بالسيف واللسان وتعظّموه وتجلّوه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: وتصلّوا لله بالغداة والعشيّ فالضمير في تسبّحوه راجع إلى الله وقيل: معناه وتنزّهوا الله عمّا لا يليق به. وكثير من القرّاء اختاروا الوقف على قوله: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ لاختلاف الضمير فيه وفيما بعده وقيل: الضمائر راجعة إلى الله أي: لتعظّموا الله وتطيعوه كقوله: ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ قال الزمخشري: الضمائر لله ومن فرّق فقد أبعد، وقرئ تعزروه بالتخفيف وكسر الزاي قال ابن عبّاس: المراد من قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر.

وفي هذه الآية دلالة على بطلان مذهب الجبر لأنّه سبحانه صرّح هنا أنّه يريد من جميع المكلّفين الإيمان والطاعة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ المراد بالبيعة هنا بيعة الحديبية وهي بيعة الرضوان بايعوا رسول الله ﷺ على الموت ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يبايعون لأجل الله ولوجهه لأنّ طاعتك طاعته وإنّما سمّيت بيعة لأنّها عقدت على بيع أنفسهم الجنّة للزومهم في الحرب وباعوا أنفسهم.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ كأنّهم في هذه البيعة بايعوا الله من غير واسطة وقوّة الله في نصرة نبيّه فوق أيديهم في النصرة، أي: ثق بنصرة الله لك لا بنصرتهم وإن بايعوك أو أنّ يد رسول الله الّتي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله والله منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام وإنّما المعنى تقرير أنّ عقد الرسول ﷺ والميثاق معه كعقده مع الله من غير تفاوت في الأجر كقوله:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1]. ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أي: نقض ما عقد من البيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ أي يرجع ضرر ذلك النقض عليه وليس له الجنّة والكرامة. ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾ وقرئ عهد والمعنى من ثبت على العهد يقال: وفيت وأوفيت بالعهد وهي لغة تهامة ومن هذه اللغة قوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وقرئ بالنون على التكلّم أي: ثوابا جزيلا.

سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ﴿١١﴾ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥﴾

ثمّ أخبر سبحانه عمّن تخلّف عن نبيّه فقال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ أي: الّذين تخلّفوا عن صحبتك وذلك أنّه لمّا أراد ﷺ المسير إلى مكّة عام الحديبية معتمراً وكان في ذي القعدة سنة ستّ من الهجرة استنفر من أطراف المدينة في الخروج معه ﷺ وهم غفار وأسلم وأشجع ومزينة حذرا من قريش من أن يعرضوا له بحرب أو يصدّ، وأحرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنّه لا يريد حرباً.

١ـ سورة النساء: ٨٠.

فتثاقل عنه كثير من الأعراب وقالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاءوه فقتلوا أصحابه فتخلّفوا عنه واعتلّوا بالشغل فشرح الله حالهم للنبي ﷺ فقال سبحانه: إنّهم يقولون لك إذا عاتبتهم على التخلّف عنك ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ وقرئ بالتشديد عن الخروج معك ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ في قعودنا عنك فكذّبهم الله فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ في الاعتذار بما أخبر عن ضمائرهم أي إنّهم كاذبون في الاعتذار وطلب الاستغفار. ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ أي: فمن يمنعكم من عذاب الله إن أراد بكم سوءا أو نفعاً وغنيمة؟ وذلك أنهم ظنّوا أنّ تخلّفهم عن النبي ﷺ يدفع عنهم الضرّ أو يحصل لهم النفع بالسلامة من المال والأهل ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ أي: إنّه عالم في تخلّفكم وسببه.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: ظننتم أنّهم لا يرجعون إلى من خلّفوا بالمدينة من الأهل والمال وأنّ العدوّ يستأصلوهم ويصطلمهم ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: زيّن الشيطان ذلك الظنّ في قلوبكم وسوّله لكم ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ في هلاك النبي ﷺ وأصحابه وكلّ هذه الأخبار من الغيب وما كان يطّلع عليها إلّا الله فصار معجزا للنبي ﷺ ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي هلكى لا تصلحون الخير وفاسدين.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي: ومن يظنّ بأنّ الله يخلف وعده أو الرسول كاذب فيما قاله فله نار مسعرة معدّة في الآخرة ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ذنوبه ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ إذا استحقّ العقاب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: هؤلاء المتخلّفون أوضح كذبهم بأنّهم إذا أحسّوا بالغنيمة يقولون من تلقاء أنفسهم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ فإذا كان أموالهم

وأهلوهم شغلتهم يوم دعوتكم إيّاهم إلى أهل مكّة فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم أخذ الغنيمة والمراد من المغانم مغانم أهل خيبر وفتحها وغنم المسلمون ولم يكن معهم إلّا من كان معه في المدينة، ووعد الموافقين بالغنيمة والمتخلّفين بالحرمان ووعدهم الله فتح خيبر لمن شهد الحديبية فلمّا انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلّفون: ذرونا نتّبعكم.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي مواعيد الله لأهل الحديبية بغنيمة خيبر خاصّة أراد تغيير ذلك بأن يشاركوهم فيها وقيل: يريد أمر الله نبيّه أن لا يسيّر معه منهم أحدا. ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ بالحديبية قبل خيبر لمن شهد الحديبية يشركهم فيها غيرهم ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ أي: نهى الله أن تتّبعوا أيّها المخلّفون إيّانا في المغانم.

وقال الجبّائي: أراد بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ قوله سبحانه: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾[1]. وهذا غلط فاحش لأنّ هذه السورة نزلت بعد الانصراف من الحديبية وتلك الآية نزلت في الّذين تخلّفوا عن تبوك وكان منصرفه من تبوك في بقيّة رمضان من سنة تسع من الهجرة ولم يخرج بعد ذلك لقتال ولا غزو إلى أن قبضه الله فكيف يكون هذه الآية مرادة بقوله ﴿كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ وقد نزلت بعده بأربع سنين؟

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: فسيقول المخلّفون عن الحديبية لكم إذا قلتم لهم: لن تتّبعونا وسمعوا هذا النهي، يقولون لكم ليس هذا النهي من الله بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنيمة ثمّ قال سبحانه: ليس الأمر على ما قالوه ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ الحقّ وما تدعونهم إليه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلّا فقها قليلاً وشيئا قليلاً.

١ـ سورة المائدة: ٦٤.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ
يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ
يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا
عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ
وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ
يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ
فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾
وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ
النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾

﴿قُل﴾ يا محمّد: للّذين تخلّفوا عنك في الخروج إلى الحديبية ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ وهم قبائل متشعّبة ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ ذوي النجدة والبأس قيل: المراد بالقوم هوازن وحنين وقيل: هوازن وثقيف وقيل: هم بنو حنيفة مع مسيلمة الكذّاب وقيل: هم أهل فارس أو الروم وقيل: هم أهل صفّين أصحاب معاوية قال الطبري: والصحيح أنّ الداعي في قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ هو النبيﷺ لأنه قد دعاهم بعد ذلك إلى غزوات كثيرة وقتال أقوام ذوي البأس فلا معنى لحمل ذلك على ما بعد النبيﷺ وبعد وفاته. ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ معناه أحد الأمرين لا بدّ أن يكون يقع لا محالة وتقديره أو يسلمون ويقرّون بالإسلام وينقادون لكم وفي قراءة ابيّ أو سلموا أي إلى أن يسلموا وعلى هذه القراءة لا يمكن أن يكون المراد من القوم فارس والروم لأنهم يقبل منهم الجزية إذا لم يسلموا. ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ وتجيبوا إلى قتالهم ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وجزاء صالحا ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ عن القتال وتقعدوا عنه ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن

﴿قَبْلُ﴾ مثل يوم الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ بيّن سبحانه من يجوز له التخلّف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكرّ والفرّ وذلك بيان أصناف ثلاثة: الأعمى، فإنّه لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب ولا يمكنه الاحتراز والهرب والأعرج، كذلك والمريض، كذلك وفي معنى الأعرج الأقطع والمقعد أي: ليس على هؤلاء ضيق في ترك الخروج مع المؤمنين في الجهاد. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ المراد من الإطاعة في الآية قبول القتال والجهاد ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: وإن قعدتم عن القتال وتولّيتم وما وافقتم النبيّ في جهاد العدوّ يعذّبكم في الآخرة عذاباً مولما شديدا فقرن اللّه طاعته تعالى بطاعة رسوله ومعصيته بمخالفة رسوله هذا هو الناموس الأكبر والجاه الأوفر.

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يعني: بيعة الحديبية وتسمّى بيعة الرضوان لهذه الآية والشجرة هي شجرة السمرة ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من صدق النيّة لأنّه ﷺ بايعهم على القتال والصبر والوفاء ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ وهي الطمأنينة واللطف المقوّي لقلوبهم ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني: فتح خيبر وقيل: فتح مكّة ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني: غنائم خيبر فإنّها كانت مشهورة بكثرة الأموال والعقار وقيل: غنائم هجر وهوازن بعد فتح مكّة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالباً في أمره ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله، حكم للمسلمين بالغنيمة ولأهل الخيبر بالهزيمة.

ثمّ ذكر سبحانه سائر الغنائم الّتي يأخذونها فيما بعد من الزمان فقال: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ مع النبيّ ومن بعده إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني غنيمة خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ وذلك أنّ

النبيّ ﷺ لمّا قصد خيبر وحاصر أهلها همّت قبائل من أسد وغطفان أن يغيروا على أموال المسلمين وعيالهم بالمدينة فكفّ الله أيدهم عنهم بإلقاء الرعب في قلوبهم وقيل: إنّ مالك بن عوف وعيينة بن حصن مع بني أسد وغطفان جاءوا لنصرة اليهود فقذف الله الرعب في قلوبهم وانصرفوا. ﴿وَلِتَكُونَ﴾ الغنيمة الّتي عجّلها لهم ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على صدقك حيث وعدهم أن يصيبوها فوقع المخبر على طبق الخبر ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ فيكمل اعتقادكم ويقينكم وتفوّضون أموركم إلى صراط الله العزيز وهو الثبات على دين الإسلام وتحمّل مشاقّ الطاعة.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢١)

المعنى: ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم بعد النبيّ والمؤمنين فتوحاً أخر فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ أي: ووعدكم الله مغانم اخرى لم تقدروا عليها بعد فيكون «أخرى» في محلّ النصب، وقيل: المعنى وقرية اخرى لم تقدروا عليها قد أعدّها الله لكم وهي مكّة وقيل: هي ما وعد الله لهم من بعد ذلك اليوم أو المراد بها فارس والروم، عن ابن عبّاس وجماعة قال: كما أنّ النبيّ بشّرهم كنوز قيصر وكسرى وما كانت العرب على قتال فارس والروم بعد وفتح مدائنها بل كانوا خولا لهم حتّى تمكّنوا وقدروا عليها بالإسلام. ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال الفرّاء: أحاط الله بها لكم حتّى يفتحها عليكم فكأنّه قد حفظها ومنعها عن غيركم حتّى تفتحوها وقدّر فتحها لكم وأحاط علمه سبحانه بذلك الأمر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ من فتح القرى وغير ذلك.

ونذكر في هذا المقام نبذا من قصّة خيبر: لمّا رجع ﷺ من الحديبية إلى المدينة مكث بها عشرين ليلة ثمّ خرج منها إلى خيبر، ذكر ابن إسحاق باسناده عن أبي مروان الأسلمي عن أبيه عن جدّه قال: خرجنا مع رسول

الله ﷺ إلى خيبر حتّى إذا كنّا قريباً منها وأشرفنا عليها قال النبيّ ﷺ: «قفوا». فوقف الناس فقال: «اللّهمّ ربّ السماوات السبع وما أظللن وربّ الأرضين السبع وما أقللن وربّ الشياطين وما أضللن إنّا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرّ هذه القرية وشرّ أهلها وشرّ ما فيها أقدموا باسم الله».

وعن سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنيهاتك وكان عامر رجلا شاعرا، فجعل يقول:

لا همّ لو لا أنت ما حجينا ... ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فاغفر فداء لك ما اقتنينا ... وثبّت الأقدام إن لاقينا

وأنزلن سكينة علينا ... إنّا إذا صيح بنا أتينا

وبالصباح عوّلوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السابق؟» قالوا: عامر قال: «يرحمه الله»، قال عمر - وهو على جمل -: يا رسول الله لو لا أمتعتنا به، وذلك أنّ رسول الله ما استغفر لرجل قطّ يخصّه إلّا استشهد قالوا: فلمّا جدّ الحرب وتصافّ القوم خرج يهوديّ وهو يقول:

قد علمت خيبر أنّي مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرّب

إذا الحروب أقبلت تلهّب

فبرز إليه عامر وهو يقول:

قد علمت خيبر أنّي عامر ... شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين فوقع سيف اليهوديّ في ترس عامر وكان سيف عامر فيه قصر فتناول به ساق اليهوديّ ليضربه فرجع ضباب سيفه فأصاب ركبته

والركبة أصل الصلبانة إذا قطعت واقع بين الفخذ والورك فمات منه، قال: فإذا نفر من أصحاب رسول الله يقولون بطل عمل عامر قتل نفسه فقال النبيﷺ: «كذب أولئك بل أوتي عامر من الأجر مركين».

وبالجملة قال: فحاصرناهم حتّى أصابتنا مخمصة شديدة ثمّ إنّ الله فتحها علينا وذلك أنّ النبيﷺ أعطى اللواء عمر بن الخطّاب ونهض من نهض معه من الناس فلقوا أهل خيبر فانهزم عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله يجبّنه أصحاب عمرو يجبّنهم وكان رسول اللهﷺ أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس؛ فلمّا أفاق من وجعه سألﷺ: «ما فعل الناس بخيبر؟» فأخبره فقال: «لأعطينّ الراية غداً رجلا يحبّ الله ورسوله ويحبّ الله ورسوله كرّاراً غير فرّار لا يرجع حتّى يفتح الله على يديه»[1].

وروى البخاري[2] ومسلم[3] عن قتيبة بن سعيد قال: حدثنا يعقوب عن عبد الرحمن الإسكندرانيّ عن أبي حازم قال: أخبرني سعد بن سهل أنّ رسول اللهﷺ قال: «يوم خيبر لأعطينّ الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله». قال: فبات الناس يدركوا بجملتهم أيّهم يعطيها فلمّا أصبح الناس غدوا إلى رسول الله، فقالﷺ «أين علي؟» فقالوا: يا رسول الله هو يشتكي عينيه قال: «فأرسلوا إليه». فأتى بهعليه السلام فبصق رسول الله في عينيه ودعا له فبرئ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال عليعليه السلام: «يا رسول الله أقاتلهم حتّى يكونوا مثلنا؟» قال: «انفذ على رسلك حتّى تنزل بساحتهم ثمّ ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فو الله لأن يهدي الله بك

١ـ تفسيرمجمع البيان، ج٩، ص٢٠١، و الكافي، ج٨، ص٣٥١.

٢ـ تفسيرمجمع البيان، ج٩، ص٢٠١.

٣ـ الأمالي، ص٣٠٦، و العمدة، ص١٤٢، و صحيح البخاري، ج٥، ص٧٦.

رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم». قال سلمة: فبرز مرحب وهو يقول: «قد علمت خيبر أنّي مرحب»

الأبيات، فبرز له عليّ وهو يقول:

أنا الّذي سمّتني أمّي حيدره ضرغام آجام وليث قسوره

أكيلكم بالصاع كيل السندره

فضرب مرحباً ففلق رأسه فقتله، وكان الفتح على يده عليه السلام أورده مسلم في الصحيح.

وروى أبو عبد اللّه الحافظ بإسناده عن أبي رافع مولى رسول اللّه قال: خرجنا مع عليّ حين بعثه رسول اللّه فلمّا دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه يهوديّ فطرح ترسه من يده فتناول عليّ عليه السلام باب الحصن فترّس به عن نفسه فلم يزل في يده وهو يقاتل حتّى فتح اللّه عليه ثمّ ألقاه من يده فلقد رأيتني في نفر مع سبعة أنا منهم نجهد على أن نحرك ذلك الباب فما استطعنا أن نقلبه.

وعن ليث بن أبي سليم عن أبي سليم عن أبي جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام قال: «حدثني جابر بن عبد اللّه الأنصاري أنّ عليّا حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه فافتتحوها وأنّه حرك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلا». قال: وروي من وجه آخر عن جابر ثمّ اجتمع عليه سبعون رجلا فكان جهدهم أن أعادوا الباب[1].

وبإسناده[2] عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان عليّ عليه السلام يلبس في الحرّ والشتاء القباء المحشوّ الثخين وما يبالي الحرّ فأتاني أصحابي فقالوا: إنّا

١ـ بحار الانوار، ج ٢١، ص ٤، و مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٠٢.

٢ـ بحار الانوار، ج ٢١، ص ٤، و مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٠٢، و تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٤١٢.

رأينا من أمير المؤمنين شيئا فهل رأيت؟ فقلت: وما هو قالوا: رأيناه يخرج علينا في الحرّ الشديد في القباء المحشوّ وما يبالي الحرّ ويخرج علينا في البرد الشديد في الثوبين الخفيفين وما يبالي البرد فهل سمعت في ذاك شيئا؟ فقلت: لا فقالوا: فاسأل أباك عن ذلك فإنّه يسمر معه فقال: ما سمعت في ذلك شيئا فدخل على عليّ عليه السلام فسمر معه ثمّ سأله عن ذلك فقال عليه السلام: «أو ما شهدت خيبر؟» قلت: بلى قال: «أفما رأيت رسول الله ﷺ حين دعا أبا بكر فعقد له ثمّ بعثه إلى القوم فانطلق فلقي القوم ثمّ جاء بالناس وقد هزم؟» فقال: بلى: قال: «ثمّ بعث عمر فلقي القوم فقاتلهم ثمّ رجع وقد هزم فقال رسول الله: لأعطينّ الراية غدا رجلا يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله يفتح الله على يده كرّارا غير فرّار فدعاني وأعطاني الراية ثمّ قال: اللّهمّ اكفه الحرّ والبرد فما وجدت بعد ذلك حرّاً ولا برداً».

وهذا كلّه منقول في كتاب «دلائل النبوّة» للإمام أبي بكر البيهقيّ.

ثمّ لم يزل رسول اللّه يفتح الحصون حصناً حصناً ويحوز الأموال حتّى انتهوا إلى حصن الوطيخ والسلالم وكان آخر حصون خيبر وحاصرهم رسول اللّه ﷺ بضع عشرة ليلة.

قال ابن إسحاق لما افتتح حصن ابن أبي الحقيق أتي رسول اللّه بصفيّة بنت حيّ بن أخطب وبأخرى معها فمرّ بهما بلال وهو الّذي جاء بهما على قتلى اليهود فلمّا رأتهم الّتي مع صفيّة صكّت وجهها وحثت التراب على رأسها فلمّا رآها رسول اللّه ﷺ قال: «أغربوا عنّي هذه الشيطانة». وأمر بصفيّة فخيّرت خلفه وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أنّه ﷺ قد اصطفاها لنفسه وقال ﷺ لبلال لمّا رأى من تلك اليهوديّة ما رأى: «أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما؟» وكانت صفيّة قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة ربيع بن أبي الحقيق أنّ قمراً وقع في حجرها فعرضت رؤياها

على زوجها فقال: ما هذا إلّا أنّك تتمنّين ملك الحجاز محمّدا ولطم وجهها لطمة اخضرّت عينها منها.

ولمّا أتي بها إلى رسول الله وبها أثر منها فسألها النبيّ ﷺ: «ما هو؟» فأخبرته وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله: أنزل فاكلّمك، قال ﷺ: «نعم». فنزل وصالح رسول الله على حقن دمائهم في حصونهم من المقاتلة وترك الذرّيّة لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ويخلّون بين رسول الله وبين ما كان لهم من مال وأرض وما يكون لهم من كلّ شيء من الصفراء والبيضاء والسلاح والكراع وعلى البزّ إلّا ثوب على ظهر الإنسان فقال رسول الله: «فبرئت ذمّة الله وذمّة رسوله إن كتمتوني شيئا»، فصالحوه على ذلك.

فلمّا سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يحقن دماءهم ويخلّون بينه وبين الأموال ففعل ﷺ وكان ممّن يمشي بين رسول الله وبينهم في ذلك محيصة بن مسعود أحد بني حارثة.

فلمّا نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم الأموال على النصف وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأعمر لها فصالحهم رسول الله على النصف على أنّا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم وصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت أموال خيبر فيئاً بين المسلمين وفدك خاصّة لرسول الله لأنّه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب.

ولمّا اطمأنّ رسول الله أهدت له زينب بنت الحارث بن سلام وهي بنت أخي مرحب شاة مصيلة وقد سألت أيّ عضو منها أحبّ إلى رسول الله ﷺ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها السمّ وسمّت سائر الشاة ثمّ جاءت بها فلمّا وضعتها بين يديه تناول الذراع فأخذها ولاك منها مضغة وانتهش منها ومعه بشر بن البراء بن معروف تناول عظما فانتهش منه فقال رسول الله ﷺ:

«**ادفعوا أيدكم فإنّ كتف هذه الشاة يخبرني أنّها مسمومة**». ثمّ دعاها فاعترفت فقال: «**ما حملك على ذلك؟**» فقالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت: إن كان نبيًا فسيخبر وإن كان ملكا استرحنا منه فتجاوز عنها رسول الله ومات بشر من أكلته الّتي أكل.

ثمّ دخلت أمّ بشر بن البراء على رسول الله ﷺ تعوده في مرضه الّذي توفّي فيه، فقال ﷺ: «**يا أمّ بشر ما زالت اكلة خبز الّتي أكلت مع ابنك تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري**». وكان المسلمون يرون أنّ رسول الله مات شهيدا مع ما أكرمه الله من النبوّة.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

المعنى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قريش يوم الحديبية يا معشر المؤمنين ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ منهزمين بنصرة الله إيّاكم وخذلان الله إيّاهم وقيل: المراد بالّذين كفروا من أسد وغطفان الّذين أرادوا نهب ذراريّ المسلمين ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يواليهم ويدافع عنهم وهذا من الغيب وفي ذلك إشارة إلى أنّ المعدوم معلوم في علم الله.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: هذه سنّتي في أهل طاعتي وأهل معصيتي وعادتي السالفة أنّ كلّ قوم إذا قاتلوا أنبياءهم انهزموا وقتلوا ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ وعادته ﴿تَبْدِيلًا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ

﴿تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

سبب النزول: إنّ المشركين بعثوا أربعين رجلا ـ وقيل: ثمانين رجلا ـ عام الحديبية ليصيبوا المسلمين هبطوا من جبل التنعيم عند صلاة الفجر وقيل: خرج ثلاثون شابًا عليهم السلاح فدعا عليهم النبيﷺ فأخذ اللّه بأبصارهم فأخذهم أصحاب رسول اللّه فخلّىﷺ سبيلهم فنزلت الآية.

المعنى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أيدي كفّار مكّة ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي: في الحديبية لأنها من مكّة وذلك أنّ عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة من المشركين إلى الحديبية فبعث رسول اللّه خالد بن الوليد[1] على جند فهزمهم حتّى أدخلهم حيطان مكّة ثمّ عاد وقيل: إنّ هذا الأمر كان يوم الفتح، وبه استشهد أبو حنيفة على أنّ مكّة فتحت عنوة لا صلحاً.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ فكفّ أيديهم عنكم بالفرار وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ﴾ منّة على المؤمنين بأنّ الظفر كان لكم مع أنّ الظاهر كان يقتضي كون الظفر لهم لكثرة عددهم ولكون البلاد لهم فكان هذا الأمر بعيداً لكونهم لا بدّ لهم الذبّ عن أهليهم وأولادهم ولذا قال تعالى: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وأمّا كفّ المسلمين عنهم أيضاً أمر بعيد لأنّهم بعد أن ظفروا بعدوّهم يقتضي أن يستأصلوهم كما هو عادة العدوّ واللّه تعالى بحسب علمه بالعاقبة كفّ اليدين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ يرى سبحانه من المصلحة.

ثمّ ذكر سبحانه المصلحة والسبب في الصلح فأشار إلى أنّ الكفّ لم

١ـ ولا يستقيم هذا، فإن خالداً لم يسلم حتى الحديبية وقد مر أنه كمن مع مائتي نفر يريدون الغيلة بأصحاب النبيﷺ فأنزل اللّه صلاة الخوف ووقاهم شرهم.

يكن لأمر فيهم لأنّهم كفروا ومنعوك والمسلمين عن المسجد الحرام وكلّ ذلك يقتضي قتالهم والمنع والكفّ عن القتال بالصلح في الحديبية ليس بسببهم لأنّهم كفروا وصدّوا وذلك يقتضي القتال لا الكفّ ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ وجواب لو لا محذوف تقديره لما كفّ الله وإنّما ذلك للرجال المؤمنين والنساء المؤمنات أي رجال غير معلومي الوطء وما تعرفونهم وأنتم غير عاملين بأعيانهم لاختلاطهم مع المشركين أن تطئوهم أي إذا أقدمتم على القتال توقّعوا بكم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم﴾ من جهتهم ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي مشقّة ومكروه مثل الكفّارة بقتلهم ووجوب الدية والتأسّف عليهم والإثم بالتقصير في البحث عنهم وأيضا تعيّر المشركين إيّاكم بأنّكم قتلتم أهل دينكم وجوابَ لو محذوف أي لوطئتم رقاب المشركين وللزمكم القتال معهم فذكر الله أوّلا المقتضي للقتال وهو الكفر والصدّ ثمّ ذكر ما امتنع لأجله مقتضاه وهو وجود الرجال.

﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ عطف على كلمة «كم» في صدّوكم وقرئ الهدي بالجرّ عن المسجد ومعكوفاً حال من الهدي أي منعهم وحبسهم الهدي أن يبلغ محلّه الّذي يكون أن ينحر فيه والحاصل صدّهم الهدي عن محلّ المعهود الّذي هو منى وبالجملة لو لا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين الكافرين غير عاملين أنتم بهم فيصيبكم بذلك مكروه لمّا كفّ الله أيدكم عنهم.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ بذلك الكفّ المؤدّي إلى الفتح بعد ذلك ﴿مَن يَشَآءُ﴾ واللام متعلّق بمحذوف دلّ عليه معنى الكلام تقديره فحال بينكم وبينهم ليدخل الله في رحمته من يشاء يعني من أسلم من الكفّار بعد الصلح.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي لو تميّز المؤمنون من الكافرين لعذّبنا الّذين كفروا من أهل مكّة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالسيف والقتل

بأيديكم ولكنّ الله يدفع بالمؤمنين عن الكفّار فلحرمة اختلاطهم بهم لم يعذّبهم، اعرفوا قدر الصلحاء فإنّ كونهم فيكم مانع عنكم العذاب ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ﴾ الآية.

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

المعنى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ...﴾؛ ﴿إِذْ﴾ تتعلّق بقوله: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أو متعلّق بصدّوكم أو بفعل مقدّر أي: اذكر جعل الكفّار حميّة الجاهليّة أي: الحميّة الناشئة من جهلهم القديم جعلوا هذه الأنفة والعصبيّة ثابتة في قلوبهم وتلك الحميّة أن لا ينقادوا لأحد. وذلك أنّ كفّار مكّة قالوا: قد قتل محمّد وأصحابه آباءنا وإخواننا ويدخلون علينا في منازلنا فتتحدّث العرب أنّهم دخلوا علينا على رغم أنفنا واللّات والعزّى لا يدخلونها علينا فهذه

الحميّة الجاهليّة الّتي دخلت قلوبهم أو المراد أنفتهم من الإقرار لمحمّد بالنبوّة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم حيث أرادﷺ أن يكتب كتاب الصلح في الحديبية.

فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ولمّا جعل الكافرون لأنفسهم حميّة الجاهليّة وانوفتها جعل الله للمؤمنين الطمأنينة في الإيمان والسكينة والتقوية في قلوبهم فما جعل للكافرين بجعلهم وما جعل للمؤمنين بجعل الله والفرق بين الفاعلين ما لا يخفى كما أنّ بين المفعولين مباينة تامّة وأين الحميّة الجاهليّة والسكينة الإلهيّة؟

ثمّ تأمّل في حسن العبارة في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ﴾ عبّر سبحانه بالفاء لا بالواو إشارة إلى أنّ ذلك كالمقابلة تقول: أكرمني فأكرمته للمجازاة والمقابلة ولو قلت: أكرمني وأكرمته لا ينبئ عن هذا المعنى. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ وهي قول (لا إله إلّا الله) عن ابن عبّاس وجماعة وفي «العلل» عن النبيﷺ أنّه قال في تفسير لا إله إلّا الله: «**وهي كلمة التقوى يثقل الله بها الموازين يوم القيامة**»[1]. وفي «الكافي» عن الصادقعليه السلام أنّه سئل عنها فقال: «**هي الإيمان**». وفي «المجالس» عن النبيﷺ قال: «**إنّ عليّا راية الهدى وإمام أوليائي ونور لمن أطاعني وهو الكلمة الّتي ألزمها المتّقين**»[2] وقال عليّعليه السلام في خطبة: «**أنا عروة الله الوثقى و كلمة التقوى**»[3].

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ قيل في الآية تقديم وتأخير والتقدير كانوا أهلها وأحقّ بها أي كان المؤمنون أهل تلك الكلمة وأحقّ بها من المشركين

١ـ علل الشرايع، ج ١، ص ٢٥١، و الأمالي، ص ٢٥٥.

٢ـ الأمالي، ص ٣٧٦، و بحار الانوار، ج ٣٨، ص ١٢٠.

٣ـ التوحيد، ص ١٦٥، و بحار الانوار، ج ٢٤، ص ١٨٤.

وقيل: المعنى وكانوا أحقّ بنزول السكينة عليهم وأهلا لها وقيل: وكان المؤمنون أحقّ بمكّة أن يدخلوها وأهلها وقد يكون حقّ أحقّ من غيره ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ فبيّن سبحانه علمه ببواطن سرائرهم وما ينطوي عليه عقد ضمائرهم.

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾ وبيانه أنّ الله تعالى أرى نبيّه في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنّ المسلمين دخلوا المسجد الحرام فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنّهم داخلون مكّة عامهم ذلك فلمّا انصرفوا من الحديبية ولم يدخلوا مكّة قال المنافقون: ما حلّقنا وما قصّرنا ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله هذه الآية وأخبر أنّه أرى رسوله الصدق في منامه لا الباطل وأنّهم يدخلونه وأقسم على ذلك فقال: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ يعني العام المقبل ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ استثنى الله ممّا يعلم ويستثني الناس في ما لا يعلمون وقيل: إنّ الاستثناء من الدخول وكان بين نزول الآية والدخول مدّة سنة وقد مات منهم أناس في السنة فيكون تقدير الآية: ليدخلنّ كلّكم إن شاء الله لأنّه سبحانه علم أنّ منهم من يموت قبل السنة أو يمرض فلا يدخلها فأدخل الاستثناء لأن لا يقع في الخبر خلف وقيل: إنّ الاستثناء داخل على الخوف والأمن وهذه الأقوال الثلاثة للبصريّين. وقيل: إنّ إن في الآية بمعنى إذ هنا أي إذ شاء الله ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ومعناه: إذ كنتم مؤمنين وهذا القول لا يرتضيه البصريّون. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: محرمين يحلّق بعضكم رأسه أو يقصّر ويأخذ بعض الشعر وفي الآية دلالة على أنّ المحرم عند التحلّل من الإحرام بالخيار إن شاء حلّق وإن شاء قصّر ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ مشركاً حال من فاعل لتدخلنّ أو من آمنين أو من محلّقين أو من مقصّرين أو

استيناف والمعنى لا تخافون بعد ذلك. ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ عطف على ﴿صَدَقَ﴾ أي علم سبحانه عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة أمورا من الحكمة الداعية لتأخّر دخولكم في سنتكم كالسبب لوطوء المؤمنين والمؤمنات أو من المصالح المتجدّدة والمراد بعلمه العلم الفعليّ المتعلّق بأمر حادث بعد ذلك. ﴿فَجَعَلَ﴾ لأجل هذه المصلحة ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من قبل دخولكم ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ والمراد إمّا صلح الحديبية وعمرة القضاء أو فتح خيبر وقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يدفع توهّم حدوث علمه من قوله: ﴿فَعَلِمَ﴾ لأنّ قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يفيد سبق علمه العامّ لكلّ علم محدث.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: إنّ الله هو الّذي أرسل رسوله محمّد بالدليل الواضح وقيل: المراد بالهدى القرآن ودين الحقّ أي الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جميع الأديان وقيل: إن تمام ذلك عند خروج القائم فلا يبقى في الأرض دين سوى دين الإسلام ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ بذلك. ثمّ قال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ نصّ على اسمه لتزول الشبهة وتمّ الكلام هنا. ثمّ أثنى على المؤمنين فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

قيل: بلغ من تشديد المؤمنين على الكفّار أن كانوا يحترزون من ثياب المشركين حتّى لا يلتصق بثيابهم وعن أبدانهم حتّى لا تمسّ أبدانهم قال الصادق عليه السلام: **«أوحى الله إلى نبيّ من أنبيائه قل لمن آمن بي: لا يلبسوا لباس أعدائي ولا يطعموا مطاعم أعدائي ولا يسلكوا ما سلك أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي»**[1] وكان لا يرى مؤمن مؤمنا إلّا صافحه وعانقه ويظهرون لمن خالف دينهم الشدّة والصلابة ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة ولم يستذلّون

١ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص٢٦، و من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص٢٥٢.

ويتسخّرون وعلى الكافرين أقوياء ومتصلّبين. ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ من طرق العامّة المراد عليّ وكان يسمع في كلّ ليلة ألف تكبيرة الإحرام من مصلّاه، إخبار من اللّه في كثرة صلاتهم ومداومتهم عليها ﴿يَبْتَغُونَ﴾ بذلك ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ ويطلبون نعم اللّه ورضاه ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي علامتهم يوم القيامة أن يكون مواضع سجودهم أشدّ بياضاً قال شهر بن حوشب: يكون مواضع سجودهم كالقمر ليلة البدر وقيل: المراد من السيماء الصفرة والنحول في وجوههم وأبدانهم إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما بهم مرض ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي إنّ ما ذكر من وصف المؤمنين هو ما وصفوا به في التوراة. ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ ثمّ ذكر نعتهم في الإنجيل فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ وقيل: ليس بينهما وقف والمعنى ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل جميعا ووصفوا في الكتابين ومثّلوا ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي: فراخه ونبوغه وإنّ هذه الأفراخ لحقت الأمّهات حتّى صارت مثلها فتهوّت ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: فقوى الزرع ذلك الشطء ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي: متن وغلظ ذلك الزرع ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي: قام على قصبه وأصوله فاستوى الصغار مع الكبار وتناهى وبلغ الغاية. ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: يروع ذلك الزرع الزرّاع والأكرة الّذين زرعوه قال الواحدي: هذا مثل ضربه اللّه فالزرع محمّد والشطء المؤمنون حوله وكانوا في ضعف وقلّة كما يكون الزرع في أوّله دقيقاً ثمّ غلظ وقوي وتلاحق فكذلك المؤمنون قوّى بعضهم بعضاً فاستووا على أثر أمرهﷺ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ وإنّما كثّرهم اللّه وقوّاهم ليكونوا غليظاً للكافرين بتظاهرهم واتّفاقهم على الطاعة. ثمّ قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي وعد من أقام على الإيمان والطاعة ﴿مَّغْفِرَةً﴾ أي ستراً على ذنوبهم الماضية ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ وثواباً جزيلاً دائما.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

مدنية إلّا آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾. فضلها: عن أُبيّ بن كعب عن النبي‏ﷺ قال: «من قرأ سورة الحجرات اعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع الله ومن عصاه»[1]. الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله‏عليه السلام قال: «من قرأ سورة الحجرات في كلّ يوم أو في كلّ ليلة كان من زوّار محمّدﷺ»[2].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾

سبب النزول: نزل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٢١٤، و نور الثقلين، ج٥، ص٨٠.

٢ـ ثواب الاعمال، ص١١٥، و مجمع البيان، ج٩، ص٢١٤.

في وفد تميم وهم عطارد بن حاجب بن زرارة مع أشراف من بني تميم منهم الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم في وفد عظيم فلمّا دخلوا المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمّد فآذى ذلك رسول اللّه فخرج إليهم فقالوا: جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا. فقال ﷺ: «قد أذنت». فقام عطارد بن حاجب ـ وكان رجل الفصاحة ـ وقال: الحمد للّه الّذي جعلنا ملوكا الّذي له الفضل علينا والّذي وهب لنا أموالا عظاما نفعل بها المعروف وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثر عددا وعدّة فمن مثلنا في الناس فمن فاخرنا فليعدّ مثل ما عددنا ولو شئنا لأكثرنا من الكلام ولكنّا نستحيي من الإكثار ثمّ جلس.

فقال رسول اللّه ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: «قم فأجبه»؛ فقام ثابت فقال: الحمد للّه الّذي خلق السماوات والأرض خلقة فقضى فيه أمره ووسع كرسيّه علمه ولم يكن شيء قطّ إلّا من فضله أن جعلنا ملوكا واصطفى من خير خلقه رسولا أكرمه نسبا وأصدقه حديثا وأفضله حسبا فأنزل اللّه عليه كتابا وائتمنه على خلقه فكان خيرة اللّه على العالمين ثمّ دعا الناس إلى الإيمان باللّه فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه أكرم الناس أحساباً وأحسنهم وجوهاً فكان أوّل الخلق إجابة واستجابة للّه حين دعاه رسول اللّه نحن فنحن أنصار رسول اللّه وردؤه نقاتل الناس حتّى يؤمنوا فمن آمن باللّه ورسوله منع ماله ودمه ومن نكث جاهدناه في اللّه أبدا وكان قتله علينا يسيرا، أقول هذا واستغفر اللّه للمؤمنين والمؤمنات والسّلام عليكم. ثمّ قام الزبرقان بن بدر ينشد وأجابه حسّان بن ثابت.

فلمّا فرغ من قوله قال الأقرع: إنّ هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا وشاعره أشعر من شاعرنا وأصواتهم أعلى من أصواتنا فلمّا فرغوا أجازهم

رسول الله وأحسن جوائزهم وأسلموا[1].

أقول: وهذا عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم لمّا وردوا على النبيّ ﷺ قال الميدانيّ في مجمع الأمثال: إنّه ﷺ سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان أن يعرّفه فقال: عمرو إنّه مطاع في عشيرته شديد العارضة مانع لما وراء ظهره فقال الزبرقان: يا رسول الله إنّه ليعلم منّي أكثر من هذا ولكنّه حسدني. فقال عمرو: أما والله إنّه لزم المروءة ضيق العطن أحمق الوالد لئيم الخال والله يا رسول الله ما كذبت في الاولى ولقد صدقت في الآخرة ولكنّي رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت وسخطت فقلت أقبح ما وجدت. فقال ﷺ: «إنّ من البيان لسحراً». يعني: إنّ بعض البيان يعمل السحر ومعنى السحر إظهار الباطل في صورة الحقّ والبيان موضوعة اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب مع اللسان وإنّما شبّه بالسحر لحدّة أثره في سامعه وسرعة قبول القلب له.

وقيل: إنّ الوافد كانوا أناسا من بني العنبر كان للنبيّ سبياً من ذراريّهم فأقبلوا إلى فدائهم فقدموا المدينة ودخلوا المسجد وعجّلوا أن يخرج إليهم النبيّ فجعلوا يقولون يا محمّد اخرج إلينا. عن أبي حمزة الثماليّ عن عكرمة عن ابن عبّاس فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وروى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «ما سلّت السيوف ولا أقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف ولا جهر بأذان ولا أنزل الله يا أيّها الّذين آمنوا حتّى أسلم أبناء الأوس والخزرج»[2]. ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ﴾ والمراد من بين يدي الله الأمام لأنّ ما بين يدي الإنسان أمامه والمعنى: لا تقطعوا أمرا ولا تعجلوا به دون الله ورسوله ولا تفعلوا ما تؤثرونه وتتركوا

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٢١٦، و البحار، ج١٧، ص٢١.

٢ـ البحار، ج٢٢، ص٣١٢، و مجمع البيان، ج٩، ص٢١٦.

ما أمركم اللّه ورسوله به ولا تقدّموا أمرا على ما أمركم اللّه به والمفعول وهو أمر محذوف و«قدموا» في الآية بمعنى تقدّم وقيل: معنى الآية لا تقدّموا أعمال الطاعة قبل الوقت الّذي أمر اللّه ورسوله به حتّى قيل: لا يجوز تقديم الزكاة قبل وقتها وقيل: المعنى: لا تمكّنوا أحدا يمشي أمام رسول اللّه بل كونوا له تبعاً وأخّروا أقوالكم واقعاً لكم عن قوله وفعله وقيل: نزلت في قوم ذبحوا الأضحيّة قبل صلاة العيد فأمرهم رسول اللّه ﷺ بالإعادة وقال ابن عبّاس: نهوا أن يتكلّموا قبل كلامه فالمعنى إذا كنتم جالسين في مجلس رسول اللّه ﷺ وسئل عن مسألة فلا تسبقوه بالجواب حتّى يجيب النبي ﷺ أولا وقيل: معناه لا تسبقوه بقول ولا بفعل حتّى يأمركم به.

والأصحّ حمل الآية على الجميع فإنّ كلّ شيء كان خلافاً للّه ولرسوله إذا فعل فهو تقديم بين يدي اللّه ورسوله وذلك ممنوع. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اجتنبوا معاصيه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالكم فيجازيكم بها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ لأنّ فيه أحد الشيئين إمّا نوع استخفاف به فهو الكفر وإمّا سوء الأدب فهو خلاف تعظيم المأمور به. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: غضّوا أصواتكم وليّنوا عند مخاطبتكم إيّاه وفي مجلسه فإنّه ليس مثلكم إذ يجب توقيره من كلّ وجه وقيل: معناه لا تقولوا له: يا محمّد كما يخاطب بعضكم بعضاً بل خاطبوه بالتعظيم والتجليل وقولوا: يا رسول اللّه ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: كراهة أن تحبط أو لئلّا تحبط أعمالكم وقيل: إنّه في حرف عبد اللّه أبي مسعود فتحبط أعمالكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لا تعلمون أنّكم أحبطتم أعمالكم لأنّهم إذا عظّموه استحقّوا الثواب فلمّا فعلوا على خلاف ذلك الوجه استحقّوا العقاب وفاتهم ذلك الثواب فأحبط أعمالهم.

ثمّ مدح سبحانه من يعظّم رسوله ويوقّره فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أصواتهم في مجلسه إجلالاً له ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: أخلصها للتقوى مأخوذ من امتحان الذهب بالنار إذا أذيب حتّى يذهب غشّه وتبقى خالصه وقيل: المعنى: إنّه علم خلوص نيّاتهم لأنّ الإنسان يمتحن الشيء ليعلم حقيقته وقيل: معناه عاملهم معاملة المختبر بما تعبّدهم به من هذه العبادة فخلصوا على الاختبار كما يخلص الذهب الجيّد بالنار ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من الله لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ على طاعتهم.

ثمّ خاطب النبيﷺ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ وهم الجفاة من بني تميم لم يعلموا في أيّ حجرة هوﷺ فكانوا يطوفون على الحجرات وينادونه ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وصفهم الله بالجهل وقلّة العقل والفهم إذ لم يعرفوا قدر النبيّ ولا ما استحقّه من التوقير فهم بمنزلة البهائم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من أن ينادونك من وراء الحجرات في دينهم فيما يحرزونه من الثواب وفي دنياهم باستعمالهم حسن الأدب في مخاطبة الأنبياء ليعدّوا في زمرة العقلاء وقيل: معناه لأطلقت أسراءهم بغير فداء فإنّ رسول الله كان سبى قوما من بني العنبر فجاءوا في فدائهم فأعتق نصفهم وفادى النصف فيقول سبحانه: ولو أنّهم صبروا لكنت تعتق كلّهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب منهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾

سبب النزول: في قوله: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ نزل في الوليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه رسول اللهﷺ في صدقات بني المصطلق فخرجوا يتلقّونه فرحا به وكانت بينهم عداوة في الجاهليّة فظنّ الوليد أنّهم همّوا بقتله فرجع إلى رسول اللهﷺ فقال: «إنّهم منعوا صدقاتهم». وكان الأمر بخلافه فغضب النبيّ وهمّ أن يغزوهم فنزلت الآية عن ابن عبّاس ومجاهد وجماعة.

وقيل: إنّها نزلت فيمن قال للنبيّﷺ إنّ مارية يأتيها ابن عمّ لها قبطيّ فدعا رسول الله عليًا وقال: «يا أخي خذ هذا السيف فإن وجدته عندها فاقتله»، فقال: «يا رسول الله أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكّة المحماة أمضي لما أمرتني أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟» قال النبيّﷺ: «بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب». قال عليّ: «فأقبلت متوشّحاً بالسيف فوجدته عندها فاخترطت السيف فلمّا عرف أنّي أريده أتى نخلة فرقي إليها وشغر برجليه فإذا هو أجبّ أمسح وماله ما للرجال قليل ولا كثير. وذلك بعد أن ألقى نفسه عن النخلة»، قال عليّ‌ؑ: «فرجعت وأخبرت النبيّ»، فقال: للحمد لله الّذي يصرف عنّا السوء أهل البيت[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ أي: بخبر عظيم الشأن من فاسق خارج عن طاعة الله إلى معصيته ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ صدقه من كذبه ولا تبادروا إلى العمل بخبره. ومن قرأ فتثبّتوا فالمعنى توقّفوا فيه وتأنّوا حتّى تثبت حقيقته عندكم ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي: حذراً من أن تصيبوا قوما

١ـ تفسير القمي، ج٢، ص١٠٠، و تفسيرمجمع البيان، ج٩، ص٢٢٠.

في أنفسهم وأموالهم بغير علم بحالهم وما هم عليه من الطاعة والإسلام ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ من إصابتهم بالخطاء ﴿نَٰدِمِينَ﴾ لا يمكنكم تداركه.

وفي هذا دلالة على أنّ خبر الواحد لا يوجب العلم ولا العمل لأنّ المعنى إن جاءكم من لا تأمنون أن يكون خبره كذباً فتوقّفوا فيه وهذا التعليل موجود في خبر من يجوز كونه في خبره كاذباً.

وقد استدلّ بعضهم بالآية على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان عدلا من حيث إنّ الله أوجب التوقّف في خبر الفاسق فدلّ على أنّ خبر العدل لا يجب التوقّف فيه لأنّ دليل الخطاب لا يعوّل عليه عندنا وعند أكثر المحقّقين. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: فاتّقوا الله أن تقولوا باطلاً عنده فإنّ الله يخبره بذلك فتفضحوا وقيل: معناه واعلموا بما أخبره الله من كذب الوليد أنّ فيكم رسول الله فهذه إحدى معجزاته ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لو فعل ما تريدونه في كثير من الأمر لوقعتم في عنت وهلاك يقال: فلان يعنت فلاناً أي: لطلب ما يؤدّيه إلى الهلاك وقد أعنت من العظم إذا هيض بعد الجبر وهذا يدلّ على أنّ بعض المؤمنين زيّنوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد وتطير هذه الهناة كانت تفرط منهم والطاعة تراعى فيها الرتبة فلا يكون الإنسان مطيعاً لمن دونه في الدين وإنّما يكون مطيعا لمن فوقه.

ثمّ خاطب المؤمنين الّذين لا يكذبون فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ أي: جعله أحبّ الأديان إليكم بأن أقام الأدلّة على صحّته مثل وجود النبي ﷺ والكتاب وبما وعد من الثواب عليه ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وجعل هذا الدين محبوبا عندكم بالألطاف الداعية إليه. ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾ بما وصف من العقاب عليه ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ أي: الخروج عن الطاعة إلى المعاصي وعن القصد

والعدل بظلم نفسه ﴿وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ أي: الامتناع من الانقياد وهو شامل لجميع الذنوب والفسوق مختصّ بالكبائر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي: المستثنين بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ هم السالكون إلى الطريق السويّ الموصل إلى الحقّ.

وفي الآية تلوين وعدول حيث ذكر أوّل الآية على وجه الخطاب وآخرها على المغايبة حيث قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ ليعلم أنّ جميع من كان حاله هكذا فقد دخل في هذا المدح كما قال أبو اللّيث.

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ وهذا الفضل والإنعام تعليل لقوله: ﴿حَبَّبَ﴾ ذكره للراشدين فإنّ الفضل والإنعام فعل اللّه والرشد وإن كان مسبّباً عن فعله وهو التحبّب والتكريه لكنّ السلوك والرشد إلى طريق الهداية وقبولها مستند إليهم لأنّهم قبلوا هذا السلوك لأنّ الرشد قائم بالقوم والفضل والإنعام قائمان به تعالى وليس المراد من الفاعل إلّا من قام به الفعل ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ عليم بما بينكم من التمايز والتفاضل حكيم يفعل كلّ ما يفعل بموجب المصلحة والشأن.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ أي فقاتلوا، وأتى بلفظ الجمع باعتبار المعنى فإنّ كلّ طائفة جمع والطائفة جماعة من الناس لكن دون الفرقة والفرقة أكثر عددا من الطائفة.

نزلت الآية في الأوس والخزرج وقع بينهما قتال. وقيل: نزلت في رهط عبد اللّه بن ابيّ بن سلول من الخزرج ورهط عبد اللّه بن رواحة من الأوس والسبب أنّ النبيﷺ وقف على عبد اللّه بن ابيّ فراث حمار رسول اللّه ـ أو بال ـ فأمسك عبد اللّه أنفه وقال: إليك عنّي. فقال عبد اللّه بن رواحة: لبول حمار رسول اللّه أطيب ريحاً منك ومن أبيك فغضب قوم عبد اللّه بن ابيّ

وأعان ابن رواحة قومه ووقع بينهما ضرب بالحديد والأيدي والنعال[١].

وبالجملة إن فريقان من المؤمنين قاتل أحدهما صاحبه فأصلحوا بينها حتّى يصطلحا ولا دلالة في هذا على أنّهما إذا اقتتلا بقيا على الإيمان ويطلق عليهما هذا الاسم ولا يمتنع أن يفسّق إحدى الطائفتين أو يفسّقا جميعا وطائفتان فاعل فعل محذوف وجوبا لا مبتدء لأنّ حرف الشرط لا يدخل إلّا على الفعل لفظا أو تقديرا والتقدير: وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، واقتتلوا يفسّر الأوّل وحذف الأوّل لأنّ الفعل الثاني بيّنه. ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ والصلاح الحصول على الحالة الحسنة النافعة والإصلاح بين الناس إذا تفاسدوا وكانوا مؤمنين من أعظم الطاعات وأتمّ القربات.

قال ﷺ: **«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟»** قالوا: بلى يا رسول الله قال: **«إصلاح ذات البين»**[٢] وفي الحديث: **«المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يخذله ولا يطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلّا بإذنه ولا يؤذيه بقتار قدره إلّا أن يغرف له منها ولا يشتر لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها»**[٣]. ولمّا نزلت الآية قرأها رسول الله عليهم وأصلح بينهم.

فإن قيل: إنّ عبد الله بن ابيّ كان منافقا والآية في طائفتين من المؤمنين. فالجواب أنّ طائفة عبد الله بن ابيّ ما كانوا كلّهم منافقين وفيهم مؤمنون والآية تتناول المؤمنين.

وقال ابن بحير: القتال لا يكون بالنعال والأيدي وذلك كان كذلك وإنّما هذا في المنتظر من الزمان، وهذا بعيد لأنّ المراد من القتل أمر يحصل به

١ـ بحار الانوار، ج٢٢، ص٥٣، و مجمع البيان، ج٩، ص٢٢٠.

٢ـ كشاف القناع، ج١، ص٤٩٩، و كنزالعمال، ج٣، ص٥٨، و تفسيرابن كثير، ج١، ص٥٦٧.

٣ـ تفسير الثعلبي، ج٩، ص٧٩، و تفسير القرطبي، ج١٦، ص٣٢٣.

زهوق الروح وذلك يحصل بأيّ شيء كان على أنّ القتال قد يستعمل مجازا في المضاربة والمحاربة.

﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ وتعدّت واستطالت إحدى الطائفتين وكانت مبطلة ﴿عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ وكانت محقّة ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ أي قاتلوا الطائفة الباغية ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ﴾ أي: ترجع ﴿إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ إلى حالة محمودة وهي المصالحة ورفع العداوة والرجوع إلى حكمه الّذي حكم له وإنّما اطلق الفيء على الظلّ لرجوعه بعد إزالة الشمس فإنّ الشمس كلّما ازداد ارتفاعا ازداد الظلّ انتساخا وزوالا وذلك إلى أن توازي الشمس خطّ نصف النهار فإذا زالت عنه وأخذت في الانحطاط أخذ الظلّ في الظهور والرجوع فلمّا كان الزوال سببا لرجوع ما انتسخ من الظلّ أضيف الظلّ إلى الزوال. فقيل: فيء الزوال، ويطلق أيضاً على الغنيمة لرجوعها من الكفّار إلى المسلمين وتلك الأموال وإن لم تكن أولا للمسلمين لكنّها لمّا كانت حقّهم لإيمانهم كأنّهم كانت لهم فرجعت إليهم.

ومرّ الأصمعيّ بحيّ من أحياء العرب فصحاء فوجد صبيّاً يلعب بالتراب مع الأتراب في الصحراء فقال الأصمعيّ: أين أباك يا صبي؟ فنظر إليه الصبيّ ولم يجب ثمّ قال الأصمعيّ: أين أبيك؟ فنظر إليه ولم يجب كالأوّل ثمّ قال: أين أبوك؟ فقال: قد فاء إلى الفيفاء ليطلب الفيء فإذا فاء الفيء فاء.

﴿فَإِن فَاءَتْ﴾ أي: فإن رجعت عن القتال وأنابت إلى طاعة الله ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي: بينها وبين الطائفة الّتي على الإيمان ﴿بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط والسواء ولا يكون شطط بينهما من الأرش والجنايات ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الدين يلزم نصرة بعضهم لبعض والإخوة

جمع الأخ وأصله المشارك الآخر في الولادة من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع ويستعار لكلّ مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في صفة أو في مودّة أو غيره من المناسبات وقال بعض أهل اللّغة: الإخوة جمع الأخ من النسب والأخوان جمع الأخ من الخلّة والصداقة والآية من قبيل التشبيه البليغ من تشبيه الإيمان بالأب في كونه سببا للحياة كالأب ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات لزوم الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولويّة لتضاعف الفساد فيه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في رعاية الحقوق والأوامر ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ راجين أن ترحموا على تقواكم أو لكي ترحموا وعن سالم عن أبيه أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ومن كان في حاجة أخيه كان اللّه في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرّج اللّه عنه كربة من كروب يوم القيامة ومن سرّ مسلماً يسرّه اللّه يوم القيامة». أورده البخاريّ ومسلم في صحيحيهما.

وفي وصيّة رسول اللّه ﷺ لعليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام: **«يا عليّ سر ميلاً عد مريضاً وسر ميلين شيّع جنازة سر ثلاثة أميال أجب دعوة سر أربعة أميال زر أخا في الله، سر خمسة أميال أجب دعوة الملهوف، سر ستّة أميال انصر المظلوم وعليك بالاستغفار»**[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا

١ـ من لايحضره الفقيه، ج٤، ص٣٦١، و تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٢٢٣.

يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ...﴾ الآية قال ابن عبّاس: نزلت الآية في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وقر فكان إذا أتى مجلس رسول الله وقد سبقوه بالمجلس ووسّعوا له حتّى يجلس في جنبه ﷺ ليسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة عن صلاة الفجر، فلمّا انصرف النبيّ أخذ أصحابه مجالسهم وضاق كلّ رجل بمجلسه، فلا يكاد يوسّع أحد لأحد فكان الرجل إذا جاء لا يجد مجلسا فيقوم على رجليه فلمّا فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله يتخطّى رقاب الناس وهو يقول: تفسّحوا تفسّحوا؛ فجعلوا يتفسّحون حتّى انتهى إلى رسول الله بينه وبينه رجل فقال له: تفسّح فلم يفصل الرجل فقال ثابت: من هذا؟ فقال له الرجل: أنا فلان فقال: بل أنت ابن فلانة يريد أمّاً له كان يعيّر بها في الجاهليّة، فخجل الرجل ونكس رأسه فنزلت الآية.

وروي أنّ قوله: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾ نزل في نساء النبيّ عيّرن أمّ سلمة بالقصر أو أنّ عائشة قالت: إنّ امّ سلمة جميلة لو لا أنّها قصيرة.

وقيل: إنّ الآية نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلما بعد فتح مكّة فكان المسلمون إذا رأوه قالوا: هذا ابن فرعون هذه الامّة فشكا

ذلك للنبيّ فقال ﷺ: «**لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات**»[1] فنزلت الآية، ثمّ صارت الآية عامّة في الرجال والنساء فلا يجوز لأحد أن يسخر من صاحبه أو من أحد من خلق الله. وعن ابن مسعود: إنّي لأخشى لو سخرت من كلب أن أحول كلباً وذلك لأنّ المؤمن ينبغي أن ينظر إلى الخالق فإنّه ضيّعه لا إلى المخلوق. قيل للقمان: ما أقبح وجهك؟ فقال: تعيب بهذا على النقش أو على النقّاش؟

وقيل: في قوله: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ نزل في نساء النبيّ سخرن من امّ سلمة وكانت لابسة ثوب أبيض وسدلت طرفه خلفها فكانت تجرّه فقالت عائشة لحفصة: انظري ماذا تجرّ خلفها كأنّه لسان كلب فهذا كانت سخر منها.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: يمكن أن تكون المطعونة بالعيب والسخريّة خيرا من العائبة عند الله ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يعيب بعضكم بعضاً لأنّ المؤمنين كنفس واحدة. وقيل: اللّمز العيب في المشهد والهمز العيب في المغيب أو اللمز يكون باللّسان وبالعين وبالإشارة والهمز لا يكون إلّا باللّسان. وقيل معنى ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يلعن بعضكم بعضاً ولا تنابزوا بالألقاب، والمراد من اللقب لقب إذا دعي به الإنسان يكرهه، أمّا إذا لا يكرهه مثل الفقيه فلا بأس. وقيل: هو قول التعيّر مثل أن يعمل إنسان شيئا من القبيح ثمّ يتوب منه فيعيّر بما سلف منه عن ابن عبّاس.

وروي أنّ صفيّة بنت حيّ بن أخطب جاءت إلى النبيّ تبكي فقال ﷺ: «**ما وراك؟**» فقالت: إنّ عائشة تعيّرني وتقول: يهوديّة بنت يهوديّين. فقال ﷺ: «**هلّا قلت: أبي هارون وعمّي موسى وزوجي محمّد؟**»، فنزلت الآية عن ابن عبّاس.

وبالجملة النبز القذف باللقب والحاصل أنّه لا تلقّبوا ولا يدعو بعضكم بعضاً بالقاب قبيحة ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بئس الاسم اسم

١ـ كنزالعمال، ج١٣، ص٥٤١، و تهذيب الكمال، ج٢٠، ص٢٤٧.

الفسوق بأن يقول له: يا يهوديّ مثلا وقد آمن، أو المعنى بئس الشيء اكتساب اسم الفسوق لنسبة العيب إلى المؤمنين.

قال صاحب «روح البيان»: الاسم في الآية ليس ما يقابل اللّقب والكنية ولا مقابل الفعل والحرف بل بمعنى الذكر المرتفع لأنه من السموّ والمعنى في الآية بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم في الإيمان.

وقيل: المعنى بئس الاسم اسم يخرجهم عن الإيمان ويدخلهم في الفسوق مع أنّهم دخلوا في الإيمان والطّاعة وهذا المعنى يطابق ما ذكرنا في نزول الآية في حقّ صفيّة.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ من التنابز والمعاصي ويرجع إلى طاعة الله ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ نفوسهم بفعل ما يستحقّون به العقاب وفي الآية دلالة على أنّ الرجل بترك التوبة يدخل مدخل الظلمة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ قيل: هو أن يظنّ بأهل الخير سوءا فأمّا أهل السوء والفسق فلنا أن نظنّ بهم مثل ما ظهر منهم وقيل: إذا ظنّ بأخيه المسلم سوءا لا بأس به ما لم يتكلّم به فإن تكلّم بذلك الظنّ وأبراه أثم وهو قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ يعني: ما أعلنه ممّا ظنّ بأخيه وهذا القول عن المقاتلين يعني: مقاتل بن حسّان ومقاتل بن سليمان. وقيل: إنّما قال تعالى: ﴿كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ لأنّ من جملته ما يجب العمل به ولا يجوز مخالفته وإنّما يكون إثما إذا عمل بظنّه وله طريق إلى العلم بدلا منه فهذا ظنّ محرّم لا يجوز فعله وأمّا ما لا سبيل إلى دفعه بالعلم بدلا منه فليس بإثم ومعناه يجب على المؤمن أن يحسن الظنّ ولا بسيئة في شيء يجد له تأويلا جميلا وإن كان ظاهرة قبيحا ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي لا تتبّعوا عثرات المؤمنين قال أبو عبيدة: التجسّس والتحسّس واحد في المعنى وقرئ في الشواذّ

بالمهملة قال الأخفش: وليس يبعد أحدهما عن الآخر إلّا أنّ بالجيم عمّا يكتم ومنه الجاسوس وبالحاء البحث عمّا تعرفه وحاصل المعنى أنّه لا تتّبعوا عيوب المسلمين العيوب الّتي هم ستروها ولا تبحثوا عمّا خفي. ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ والغيبة ذكر العيب بظهر القلب وفي الحديث إذا ذكرت الرجل بما فيه ممّا يكرهه فقد اغتبته وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهتّه وعن جابر قال: قال رسول اللّه: **«إيّاكم والغيبة فإنّ الغيبة أشدّ من الزنا»** ثمّ قال: **«إنّ الرجل يزني ثمّ يتوب فيتوب الله عليه وإنّ صاحب الغيبة لا يغفر له حتّى يغفر له صاحبه»**.

ونزلت الآية في رجلين من أصحاب النبيﷺ اغتابا رفيقهما وهو سلمان الفارسيّ بعثاه إلى رسول اللّه ليأتي لهما بطعام، فبعثهﷺ إلى اسامة بن زيد وكان خازن رسول اللّه على رحله، فقال اسامة: ما عندي شيء فعاد إليهما فقالا: بخل اسامة وقالا لسلمان: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها ثمّ انطلقا يتجسّسان عند اسامة ما أمر لهما به رسول اللّه فقالﷺ: **«مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟»** ـ والعرب تسمّى الأسود أخضر والأخضر أسود وخضرة اللحم من قبيل الأوّل ـ قالا: يا رسول اللّه ما تناولنا يومنا هذا لحماً قال: **«ظللتم تأكلون لحم سلمان واسامة. فنزلت الآية»**[1].

وعن أبي قلابة قال: إنّ عمر بن الخطّاب حدّث أنّ أبا محجن الثقفيّ يشرب الخمر في بيته هو وأصحابه؛ فانطلق عمر حتّى دخل عليه فإذا ليس عنده إلّا رجل واحد فقال أبو المحجن: يا أمير المؤمنين إنّ هذا لا يحلّ لك قد نهاك اللّه عن التجسّس فقال عمر: ما يقول هذا؟ قال زيد بن ثابت وعبد اللّه بن الأرقم: صدق يا أمير المؤمنين فخرج عمر وتركه.

وخرج عمر بن الخطّاب أيضاً ومعه عبد الرحمن بن عوف فتبيّنت لهما

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٢٢٤، و بحار الانوار، ج٢٢، ص٥٤.

نار فأتيا واستأذن ففتح لهما الباب فدخلا وإذا رجل وامرأة تغنّي وعلى يد الرجل قدح فقال عمر: من هذه منك؟ قال: امرأتي. قال عمر: وما في هذا القدح؟ قال: ماء، فقال: للمرأة ما الّذي تغنّين؟ قالت: أقول:

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه		وأرّقني ألّا حبيب ألاعبه

فو اللّه لو لا خشية اللّه والتقى		لزعزع من هذا السرير جوانبه

ولكنّ عقلي والحياء يكفّني		وأكرم بعلي أن تنال مراكبه

ثمّ قال الرجل: ما بهذا أمرنا يا أمير المؤمنين قال اللّه: ولا تجسّسوا، فقال عمر: صدقت فانصرف. ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ والتأويل أنّ ذكرك بالسوء أخاك المؤمن إذا كان غائبا بمنزلة أن تأكل لحمه وهو ميّت لا يحسّ بذلك ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فكما كرهتم ذلك فاجتنبوا ذكره بالسوء غائبا والغيبة بكسر الغين اسم من الاغتياب وفتح الغين غلط إذ هو بالفتح مصدر بمعنى الغيبوبة.

وحاصل المعنى لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيابه وخلفه والاغتياب هو أن يتكلّم إنسان خلف إنسان أمرا مستورا يسوؤه ويكون فيه ويكون عيبا والتشبيه بأكل لحم الميّت لأنّ لحم الميّت هو المتناهي في كراهة النفوس عن أكله والطباع وكذلك كما أن الميّت لا يؤلمه قطع لحمه وأكله كذلك المغتاب لا اطّلاع له بمن اغتابه لكن إذا سمعه واطّلع عليه تألّم قلبه جدّا من قرض عرضه كما يتألّم من قرض لحمه بل الغالب عنده قرض لحمه أهون من قرض عرضه. وفي قوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من التمثيل فكأن يقول: وحيث كان الأمر كذلك فقد كرهتموه وتحقّق كراهتكم لأكل لحم الميّت فكذلك فليتحقّق نظيره الّذي هو الاغتياب. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ معاصيه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ قابل التوبة رحيم بالمؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ زجر الله سبحانه عن التفاخر بالأنساب نزلت الآية حين أمر النبي ﷺ بلالا ليؤذّن بعد فتح مكّة فعلا ظهر الكعبة وأذّن فقال عتاب بن أسيد وكان من الطلقاء: الحمد لله الّذي قبض أبي حتّى لم ير هذا اليوم وقال الحارث بن هشام: أما وجد رسول الله سوى هذا الغراب؟ يعنون بلالاً.

وقيل: الآية نزلت في أبي هند حين أمر رسول الله بني بياضة أن يزوّجوه امرأة منهم فقالوا: يا رسول الله نتزوّج بناتنا موالينا؟ فنزلت وفي الآية إشارة إلى أنّ الكفاءة بالإيمان والتقوى خلقناكم جميعا من آدم وحواء. ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ والشعب بفتح العين الجمع العظيم المتسبون إلى أهل واحد وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر والعمارة بالكسر تجمع البطون والبطون تجمع الأفخاذ والفخذ تجمع الفصائل والفصيلة تجمع العشائر وليس بعد العشيرة من يوصف به مثالها فخزيمة شعب وكنانة قبيلة وقريش عمارة وقصيّ بطن وهاشم والعبّاس فصيلة وسمّيت شعوبا لأنّ القبائل تنشعب منها كتشعّب أغصان الشجرة وسمّيت القبائل لأنها يقبل بعضها على بعض من حيث كونها من أب واحد وقيل: الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب والأسباط من بني إسرائيل والشعوب من قحطان والقبائل من عدنان. ﴿لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ أي: جعلناكم كذلك لتتعارفوا، وحذفت إحدى التاءين أي ليعرف بعضكم بعضاً بنسبه وأبيه وقومه ولو لا ذلك لفسدت المعاملات وخربت الدنيا ويتعزّى أحد إلى غير آبائه وقد جعلنا خلقتكم كذلك لهذه المصلحة لا للتفاخر بالآباء والقبائل وبالتفاوت والتفاضل ولو لم يكن هذا قرشيًا وذاك تميميًا لم يتميّز بينهما وذلك فيه فساد عظيم. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ فالأكرم عنده سبحانه هو الأتقى وإن كان عبداً حبشياً مثل بلال

الا ترى إلى قوله ﷺ: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»[1] أي ليس الفخر لي بالسيادة بل بالعبوديّة فإنّها شرف أيّ شرف وكفى شرفا تقديم العبد على الرسول في التشهّد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكم وبأعمالكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطن أحوالكم.

ولمّا أبطل سبحانه اعتبار النسب مع أنّه ثابت مستمرّ غير مقدور التحصيل فبطلان اعتبار غيره كالمال والجاه بطريق أولى فغير المتّقي والمؤمن لا قدر له وإن كان قرشيّ النسب وقارون النشب إنّ أكثركم عملا وأتقاكم لمعاصيه أكرم عند الله. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «يقول الله سبحانه يوم القيامة: أمرتكم فضيّعتم ما عهدت إليكم فيه ورفعتم أنسابكم فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتّقون؟ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم»[2].

أبو بكر البيهقيّ بالإسناد عن عباية بن ربعيّ عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله: «إنّ الله عزّ وجلّ جعل الخلق قسمين فجعلني في خيرهم قسماً وذلك قوله وأصحاب اليمين والشمال، فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ثمّ جعل القسمين أثلاثا فجعلني خيرها ثلاثا وذلك قوله ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ...، وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ...، وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾[3] فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ثمّ جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة وذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ....﴾ فإنّي أتقى ولد آدم ولا فخر وأكرمهم على الله ثمّ جعل القبائل بيوتا فجعلني في خيرها بيتا وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[4] وأهل بيتي مطهّرون من الذنوب».

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ الأعراب أهل البادية نزلت الآية في نفر من بني

١ـ عيون اخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ٣٩، و تفضيل أمير المؤمنين، ص ٢٠، و مسند احمد، ج ١، ص ٥.

٢ـ مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣٠، و الكافي، ج ٨، ص ١٨١.

٣ـ سورة الواقعة: ٨ ـ ١٠.

٤ـ سورة الأحزاب: ٣٣.

أسد قدموا المدينة في سنّة حدب فأظهروا الشهادتين وقالوا لرسول الله ﷺ أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواجلها وأتيناك بالعيال والذراريّ ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وو يظهرون الإيمان لأخذ الصدقة ولم يكونوا مؤمنين في السرّ فأمره الله أن يخبرهم بذلك ليكون آية ومعجزة له ﷺ.

﴿قُل﴾ ردًا لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ إذ الإيمان هو التصديق بالقلب ولم يحصل لكم ذلك ﴿وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: دخلنا في السلم مثل أصبح وأمسى أي قولوا: دخلنا في السلم والصلح مخافة أنفسنا أو الطمع ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي قلوبكم في حال غير موطّأة للإيمان، وكلمة ما في ﴿وَلَمَّا﴾ فيها معنى التوقّع مشعر بأنّ هؤلاء يؤمنون فيما بعد. ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي لا ينقصكم من أعمالكم وأجورها وفي مادّة ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ أقوال: يقال: من ألته السلطان حقّه أشدّ الألت وهي لغة غطفان وأهل الحجاز وبنو أسد يقولون: من لاته ليتا وقرئ بالقرآن في اللّغتين لا يلتكم ولا يألتكم هكذا قال الزمخشري[1]: قال رؤبة:

وليلـــة ذات نـــدى ســـربت ولم يلتنـي عـن هواهـا ليـت

ألاتني عن حاجتي أي صرفني عنها وقرأ لا يألتكم في الآية وحجّته قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم﴾ ومن قرأ يلتكم جعل مادّة الكلمة من لات يليت.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتفضّل عليهم.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُل

١ـ جامع البيان، ج٢٦، ص١٨٥، و تفسير الثعلبي، ج٩، ص٩٠.

﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

أي إنّ المؤمنين الّذين ثبتوا على الإيمان ولم يقع في نفوسهم شكّ وترديد فيما آمنوا به وفيه إشارة إلى أنّ فيهم ما يوجب نفي الإيمان عنهم وهو الارتياب مطاوع راب إذا أوقعه المريب في الشكّ في الخبر مع التهمة للمخبر فظهر الفرق بهذا بين الريب والشكّ فإنّ الشكّ تردّد بين نقيضين لا تهمة فيه، وفي كلمة ﴿ثُمَّ﴾ إشعار بأنّ اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس في حال إنشائه فقط بل وفيما يستقبل كما في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا﴾.[1]

﴿وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعتهم على تكثير فنونها من العبادات البدنيّة المحضة والماليّة والمشتملة عليهما معا كالحجّ والجهاد والأمر بالمعروف ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الأوصاف الجميلة ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في دعوى الإيمان لا غيرهم وفي البيان قصر أفراد وتكذيب لأعراب بني أسد ولمّا نزلت الآيتان أتوا رسول اللّه يحلفون أنّهم مؤمنون صادقون في دعواهم الإيمان فأنزل اللّه تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرون اللّه بالدين الّذي أنتم عليه وهو عالم بذلك وهو استفهام توبيخ أي كيف تعلّمون اللّه بدينكم؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأنّه العالم لنفسه ولا يحتاج إلى علم يعلّم به كما أنّه إذا كان قديما موجودا في الأزل لنفسه استغنى عن موجد أوجده.

١ـ سورة الأحقاف: ١٣.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يجعلون المنّة عليك بإسلامهم ﴿قُل﴾ يا محمّد: ﴿لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ وأرشدكم إليه بأن أزاح العلل ونصب لكم الأدلّة عليه ووفّقكم له ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادّعائكم الإيمان. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من طاعة ومعصية وإيمان وكفر.

تمّت السورة.

قال النبيّ رسول اللّه ﷺ: **«فضّلني ربّي بالمفصّل من القرآن».**[1] والمفصّل ما هو بعد الحواميم إلى آخر القرآن وسمّيت مفصّلاً لكثرة المفصولات فيها بسطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ لأنّها سور قصار يقرب فصل كلّ سورة من الاخرى فكثر التفصيل فيها.

وأوّل من نقل الخطّ الكوفيّ إلى الخطّ المعروف بالنسخ عليّ بن مقلة وزير المقتدر باللّه والقادر باللّه العبّاسيّ ثمّ جاء ابن البوّاب وزاد في تحسين الخطّ النسخ وهذّب طريقة ابن مقلة وكساها بهجة وحسنا ثمّ ياقوت المستعصميّ المعروف وختم فنّ الخطّ وأكمله بحيث لا مزيد عليه إلى الآن.

قيل: أوّل من تكلّم بالعربيّة أو خطّ بالعربيّة يعرب بن قحطان وكان يتكلّم بالعربيّة والسريانيّة. وقيل: إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

١ـ بحار الانوار، ج١٦، ص٣٣٠، و زادالمسير، ج٧، ص١٧٦.

سورة ق

السورة مكيّة غير قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾. من قرأ سورة ق هوّن الله سكرات الموت.

عن أبي حمزة الثماليّ عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**ومن أدمن في فرائضه ونوافله وسّع الله رزقه وأعطاه كتابه بيمينه وحاسبه حسابا يسيراً**»[1]. لمّا ختم الله تلك السورة بذكر الإيمان وشرائطه للعبيد افتتح هذه السورة بذكر ما يجب الإيمان به من القرآن وأدلّة التوحيد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ
هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا
تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ
فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

﴿قٓ﴾ أي: هذه السورة مسمّاة بـ(ق)، قال ابن عبّاس: هو اسم من أسماء الله. وقال محمّد بن كعب: هو مفتاح بعض أسماء الله مثل القادر والقدير والقديم والقاهر والقريب والقابض والقاضي والقدّوس والقيّوم فيكون

١ـ ثواب الاعمال، ص١١٥، و وسائل الشيعة، ج٤، ص٨٠٦.

التأويل: أنا القادر. وقيل: ق اسم من أسماء القرآن.

وقيل: قسم أقسم اللّه به أي بحقّ القائم. وقيل: معناه قل يا محمّد: والقرآن المجيد. وقيل: المعنى قف يا محمّد على أداء الرسالة وعند أمرنا ونهينا والعرب تقتصر من كلمة على حرف، مثل قول الشاعر:

«قلت لها: قفي، فقالت: ق»

أي وقفت. وقيل: معناه قضي الأمر وما هو كائن.

وقيل: المراد بحقّ القلم الّذي يرقم القرآن في اللوح المحفوظ وفي الصفائح. قال ابن عطا: أقسم سبحانه بقوّة قلب حبيبه حيث تحمّل الخطاب ولم يؤثّر ذلك فيه لعلوّ مقامه بخلاف موسى فإنّه خرّ صعقا في الطور من سطوة تجلّي النور.

وقيل: ق جبل محيط بالأرض كإحاطة العين بسوادها وهو أعظم جبال الدنيا خلقه اللّه من زمرّدة خضراء منه خضرة السماء والسماء ملتزقة به فليست مدينة من المدائن وقرية من القرى إلّا وفيها عرق من عروقه وملك موكّل به واضع يده على تلك العروق فإذا أراد بقوم هلاكاً أوحى إلى ذلك الملك فحرّك عرقا فخسف بأهلها. قال أبيّ بن كعب الزلزلة لا تخرج إلّا من ثلاثة إمّا لنظر اللّه بالهيبة إلى الأرض وإمّا لكثرة الذنوب من بني آدم وإمّا لتحريك الحوت الّذي عليه الأرضون السبع تأديبا وتنبيها للخلق. قيل: قال ذو القرنين: يا قاف أخبرني بشيء من عظمة اللّه فقال: إنّ شأن ربّنا لعظيم وإنّ من ورائي مسيرة خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم بعضها بعضاً لو لا ذلك لاحترقت من نار جهنّم.

قيل: لمّا خلق الأرض على الماء تحرّكت ومالت فخلق اللّه من الأبخرة الغليظة الصاعدة من الأرض بسبب هيجانها الجبال حتّى تسكن فسكن ميل

الأرض وذهبت تلك الحركة وطوّق سبحانه الأرض بجبل محيط بها وهو من صخرة خضراء وطوّق الجبل بحيّة عظيمة رأسها بذنبها.

وفي الخبر إنّ لقاف في السماء سبع شعب لكلّ سماء شعبة منها فالسماوات السبع مقبّبة على شعبة وخلق الله ستّة جبال من وراء قاف وقاف سابعها وهي موتودة بأطراف الأرض على الصخرة وقاف وراءها على الهواء وكذلك بحر محيط بجبل قاف وحوله جبل قاف آخر والسماء الثانية مقبّبة عليه وكذلك من وراء ذلك بحار محدقات بجبل قاف على عدد السماوات السبع وإنّ كلّ سماء منها مقبّبة عليه وإنّ في هذه البحار وفي سواحلها وبينها المحدقة بها ملائكة لا يحصى عددهم إلّا الله ويعبدون الله حقّ عبادته وما وراء جبل قاف فهو من حكم الآخرة لا من حكم الدنيا.

قال بعض المفسّرين: إنّ لله سبحانه من وراء جبل قاف أرضا بيضاء كالفضّة المجلاة طولها مسيرة أربعين يوما للشمس ويسير الشمس في طرفة عين مسافة ثلاثمائة وستّون ضعف وجه الأرض وفي كلّ هذه الأمكنة المذكورة ملائكة شاخصون إلى العرش لا يعرف الملك منهم من يكون إلى جانبه من الملك من هيبة الله تعالى ولا يعرفون ما آدم وما إبليس هكذا حالهم إلى يوم القيامة ويوم القيامة تبدّل أرضنا هذه بتلك الأرض. روي أنّ الله تعالى خلق ثمانية آلاف عالم الدنيا منها عالم واحد وإنّ الله تعالى خلق في الأرض ألف امّة سوى الجنّ والإنس ستّمائة في البحر وأربعمائة في البرّ وكلّ مستفيض منه تعالى جلّ جلاله.

جواب القسم في قوله: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ محذوف ويدلّ عليه ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ وتقديره: إنّكم مبعوثون فقالوا: أنبعث إذا متنا وصرنا ترابا وقيل: جواب القسم محذوف لكن تقديره والقرآن الكريم المعظّم الّذي

هو ذو الشرف الواسع إنّ محمّدا رسول الله ويدلّ على هذا المحذوف قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ وحسبوا أنه لا يوحى إلّا إلى ملك ويعجبون أن جاءهم من جنسهم منذر وحاصل المعنى أنّه أقسم بجبل قاف الّذي به بقاء دنياكم وبالقرآن المجيد الّذي به بقاء دينكم أنّ فراعنة قريش ما كذّبوك ببرهان بل عجبوا لهذا الأمر أنّك منهم وأنّهم يحيون بعد البعث. ﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ والحالة أنّ إنكارهم لنبوّتهﷺ عجيب لأنّهم من فرط جهلهم عجبوا أن يكون الرسول بشرا وأوجبوا أن يكون الإله حجرا.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي: أحين نموت فتفارق أرواحنا أشباحنا ونصير ترابا لا فرق بيننا وبين تراب الأرض نرجع ونبعث كما ينطق به النذير والهمزة للإنكار أي لا نرجع ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى محلّ النزاع أي هذا الخبر ﴿رَجْعٌۢ﴾ وردّ ﴿بَعِيدٌ﴾ جدّا عن الأوهام والصدق وغير كائن.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ردّ لاستبعادهم أي نحن على رجعهم في غاية القدرة فإنّ من عمّ علمه إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكل من لحومهم وعظامهم كيف يستبعد رجعه إيّاهم أحياء وعبّر بمن لأنّ الأرض لا تأكل على ما قيل عجب الذنب فإنّه كالبذر لأجسام بني آدم وفي الحديث كلّ ابن آدم يبلى إلّا عجب الذنب فمنه خلق وفيه تركب والعجب بفتح العين وسكون الجيم أصل الذنب ومؤخّر كلّ شيء وهو هاهنا عظم لا جوف له قدر ذرّة أو خردلة يبقى من البدن ولا يبلى.

وقال الرقرائيّ: المراد من العجب جوهر فرد وجزء واحد وهو صورة هيولى النفس الحيوانيّة القابلة لأجزاء العناصر فإذا أراد الله الإعادة ركّب على ذلك العظم سائر البدن وأحياه غير أبدان الأنبياء والصدّيقين والشهداء فإنّها لا تبلى على ما نصّ به الأخبار الصحيحة وحفظ ما تنقص الأرض إنّما هو

ليعود بعينه يوم القيامة ولو كانت غيرها فكيف كان تشهد الجلود والأيدي والأرجل على الكفرة ومن قال غيرها فقد خالف كتاب الله والحديث. قال أهل الكلام: إنّ الله يجمع الأجزاء الأصليّة الّتي حصل وجود الإنسان معها حال التولّد وهي العناصر الأربعة ويعيد روحه إليه سواء سمّي ذلك الجمع إعادة المعدوم بعينه أولم يسمّ.

فإن قيل: إنّ البدن الثاني ليس هو الأوّل لما ورد في الحديث من أنّ أهل الجنّة جرد مرد وإنّ الجهنّميّ ضرسه مثل جبل أحد فيلزم التناسخ وهو تعلّق الروح ببدن إنسان آخر وهو باطل.

قلنا: إنّما يلزم إن لم يكن البدن الثاني مخلوقا من الأجزاء الأصليّة للبدن الأوّل فلا يلزم التناسخ جدًا والتغاير في الوصف لا يوجب التغاير في الذات كما أنّ الخضرﷺ يصير شابًا على كلّ مائة وعشرين سنة مع أنّ البدن هو البدن الأوّل قال ابن عبّاس: إنّ إبليس إذا مرّت عليه الدهور وحصل له الهرم عاد إلى ثلاثين سنة.

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أي: حافظ لعددهم وأسمائهم وأشخاصهم وهو اللوح المحفوظ لا يشذّ عنه ومحفوظ من النسيان والدروس.

ثمّ أخبر سبحانه بتكذيبهم فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو القرآن أو الرسول ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: مختلط لأنّهم كانوا يقولون مجنون وتارة قالوا شاعر وتحيّروا في أمره لجهلهم ولم يثبتوا على أمر واحد وكذلك في القرآن تارة قالوا إنّه سحر ورجز ومرة قالوا مفترى قال الحسن: ما ترك قوم الحقّ إلّا مرج أمرهم واختلط.

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾
وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾

تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾

ثمّ أقام سبحانه الدلائل على كونه قادراً على البعث أي أفلم يتفكّروا في بناء السماء مع عظمها ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ بغير علاقة ولا عماد ﴿فَوْقَهُمْ﴾ بحيث يشاهدونها متى ما نظروا ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بما فيها من الكواكب على نظام بديع ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ وشقوق واختلاف وصدوع حتّى يختلف النظم. والفرجة بضمّ الفاء معناها الشقّ والصدع و بالفتح التفصّي من الهمّ. قال الشاعر:

ربّما تكره النفوس من الأمر ... له فرجة كحلّ العقال

واستعير الفرج للشعر وفي عهد الحجّاج أتى (ولّيتك الفرجين) يعني: خراسان وسيستان والمراد موضع المخافة والمراد من قوله: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ سلامتها من العيب لملاستها وهذا لا ينافي وجود الأبواب والمصاعد وسمّي القباء المشقوق فرجاً.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أبسطناها وفرشناها على وجه الماء مسيرة خمسمائة عام من الكعبة وهذا دليل على أنّ الأرض مبسوطة وليست على شكل الكرة ولو أنّه يمكن لأنّه لا منافاة بين بساطتها وكرويّتها لسعتها. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالا راسيات في الأرض ثوابت إذ لو لم تكن لكانت مضطربة مائلة إلى الجهات المختلفة كما كانت قبل إذ روي أنّ الله لمّا خلق الله الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة: ما هي بمقرّ أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة ممّ خلقت والتعبير عن الجبال بالإرساء للإيذان بأنّ إلقاءها لإثبات الأرض بها والتأويل إلى رجال الله فإنّهم أوتاد الأرض والعمد المعنونة للسماء فإذا انقرضوا ولم يوجد في

الأرض من يقول: اللّه اللّه فسدت السماوات والأرض. ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ أي: من كلّ صنف من النباتات ما هو حسن طيّب من الثمار والأشجار والبهجة حسن اللون وظهور السرور فيه.

﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾ علّتان للأفعال المذكورة معنى أي فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيرا ﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ راجع إلى ربّه بالنظر والاستدلال في بدائع صنائعه والتبصرة معرفة منن اللّه على العبد والذكرى عدّها على نفسه في كلّ حال ليشتغل بالشكر ولا يذهل عنه. ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ أي: كثير البركة والدوام والمنافع لحياة الأناسيّ والحيوان وغيرها ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿جَنَّٰتٖ﴾ كثيرة أي أشجار ذوات أثمار فذكر المحلّ وأراد الحالّ ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ والحصيد المحصود بحذف الموصول نحو مسجد الجامع لئلّا يلزم إضافة الشيء إلى نفسه والمعنى وحبّ الزرع الّذي شأنه أن يحصد من البرّ والشعير وأمثالهما ممّا يقتات به.

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ أي: طوالا ومنه سبق فلان على أصحابه علاهم ويجوز أن يكون معناه حوامل من قولهم أبسقت الشاة إذا حملت فيكون من باب أفعل فهو فاعل ﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ أي: منضود بعضه فوق بعض والطلع ما يطلع من النخلة وهو الكمّ قبل أن ينشقّ وما في الطلع شيء أبيض يشبهون الشعراء الأسنان به ورائحته كالمنيّ وقشر كلّ ثمرة وغلافه يسمّى الكفرى بضمّ الكاف والفاء وتشديد الراء ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أي. لرزقهم. ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ وتذكير ميتا باعتبار البلد والمكان أي أرضا جدبة لا نماء فيها ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ أي: مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور وحاصل المعنى كما أنزلنا من السماء الماء فأخرجنا به النبات من الأرض وأحيينا البلدة الميّت رزقا للعباد يكون خروجكم.

العيّاشيّ عن الصادق عليه السلام قال: «أترى الله أعطى من أعطى من كرامته عليه ومنع من منع من هوان به عليه لا ولكنّ المال مال الله يضعه عند الرجل ودائع وجوّز لهم أن يأكلوا قصدا ويشربوا قصدا ويلبسوا قصدا وينكحوا قصدا ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ويلمّوا به شعثهم فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالا وينكح ويركب حلالا ومن عدا ذلك كان عليه حراما». ثمّ تلا ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1] أترى الله ائتمن رجلا على مال خوّل له أن يشتري فرساً بعشرة آلاف ويجزيه فرس بمائة درهم ويشتري جارية بألف دينار ويجزيه جارية بعشرين دينارا ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[2].

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾

ذكر سبحانه الأمم المكذّبة تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وتهديدا للكفّار فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل أهل مكّة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وكانوا بنو شيث وبنو قابيل ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ أيضاً كذبوا.

قيل: كانت الرسّ بئرا بعدن لامّة من بقايا ثمود وكان لهم ملك عادل حسن السيرة يقال له العليس ـ كزبير ـ وكانت البئر تسقي المدينة كلّها

١ـ سورة الأنعام: ١٤١ وسورة الأعرف: ٣١.

٢ـ تفسيرالعياشي، ج٢، ص١٣، و تفسيرالميزان، ج٨، ص٩٣.

وباديتها وجميع ما فيها من الدوابّ والغنم والبقر وغير ذلك وكانت لها بكرات كثيرة منصوبة عليها ورجال كثيرون موكّلون بها وحياض كثيرة تملأ للناس وآخر للدوابّ وآخر للغنم والبقر وكذلك ولم يكن لهم ماء غيره فطال عمر الملك فلمّا جاءه الموت طلي جسده بدهن ليبقى صورته ولا تتغيّر وكذلك كانوا يفعلون بالشرفاء.

وبعد أن مات الملك شقّ ذلك عليهم ورأوا أنّ أمرهم قد فسد وضجّوا بالبكاء واغتنمها الشيطان فدخل في جثّة الملك فكلّمهم بأنّي لم أمت ولكنّي نفيت عنكم حتّى أرى صنيعكم بعدي ففرحوا وأمر لخاصّته أن يضربوا له حجابا بينه وبينهم ويكلّمهم الشيطان من ورائه كيلا يعرف الموت في صورته فنصبوه صنما من وراء حجاب لا يأكل ولا يشرب وأخبرهم أنّه لا يموت أبدا وأنّه إله لهم وذلك كلّه تكلّم به الشيطان على لسانه فصدّق كثير منهم وارتاب بعضهم وكان المؤمن المكذّب منهم أقلّ من المصدّق واتّفقوا على عبادته.

فبعث اللّه لهم نبيّا كان الوحي ينزل عليه في النوم دون اليقظة وكان اسمه حنظلة ابن صفوان فأعلمهم أنّ الصورة صنم لا روح له وأنّ الشيطان فيه وأنّ الملك لا يجوز أن يكون شريكا للّه وأوعدهم ونصحهم وحذّرهم سطوة ربّهم فعادوه وآذوه وهو يتعهّدهم بالموعظة والنصيحة حتّى قتلوه وطرحوه في البئر وعند ذلك حلّت لهم النقمة فباتوا شباعا رواء وأصبحوا والبئر قد غار ماؤها وتعطّل رشاؤها فصاحوا بأجمعهم وضجّت البهائم عطشا حتّى عمّهم الموت وخلّفهم في أرضهم السباع والثعالب والضباع وتبدّلت جنّاتهم بالسدر والشوك فلا تسمع فيها إلّا عزيف الجنّ وهو جرس يسمع في المفاوز باللّيل.

وقيل: الرسّ بئر قرب اليمامة أو بئر قرب آذربايجان أو واد نعوذ باللّه من

سطواته قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[١].

﴿وَثَمُودُ﴾ أي: وقوم ثمود كان نبيّهم صالح وهو ثمود بن عاد وهو الآخرة وعاد الاولى هو عاد الإرم ﴿وَعَادٌ﴾ أي: قوم عاد وكان نبيّهم هود﵇ ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ وهو فرعون موسى ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ لاشتراكهم معه في النسب بالمصاهرة وغيرها لا في الدين. قيل: ما من أحد من الأنبياء إلّا ويقوم معه قومه إلّا لوط يقوم وحده ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم من بعث إليهم شعيب غير أهل مدين وكانوا يسكنون أيكة غيضة تنبت المقل والسدر والأراك ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحميريّ ملك اليمن. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي: فيما أرسلوا به من الشرائع أي كلّ هؤلاء كذّبوا رسلهم وردّ جميع الرسل لاتّفاق الرسل على التوحيد والحشر وهؤلاء أشركوا وكذّبوا البعث فكذّبوا جميع الرسل ولو أن يكذّبوا رسولا واحدا ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فوجب عليهم وعيد وهي كلمة العذاب والوعيد يستعمل في الشرّ خاصّة والوعد في الخير والشرّ.

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ العيّ بالأمر العجز عنه والهمزة للإنكار والمعنى أفعجزنا عن الخلق الأوّل وهو الإبداء والإنشاء أوّل مرّة حتّى يتوهّم عجزنا عن الخلق الثاني وهو الإعادة وما اعتاض لنا خلقة بالأوّل حتّى نعني بإعادتهم بعثهم أي ليس كذلك مثل ما يزعمون ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي بل هم في ضلال وشكّ من إعادة الخلق جديدا واللبس منع من إدراك المعنى بما هو كالستر له وخلق جديد إشارة إلى النشأة الثانية وقوبل الجديد بالخلق لمّا كان المقصود بالجديد القريب العهد بالقطع من الثوب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ يعني: نوع بني آدم ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي: ما يحدّث به قلبه ويكنّ في نفسه ولا يظهره لأحد من المخلوقين ﴿وَنَحْنُ

١ـ سورة الأنفال: ٢٥.

﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ بالعلم ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وهو عرق يتفرّق في البدن يخالط الإنسان في جميع أعضائه. وقيل: هو عرق الحلق أو هو عرق متعلّق بالقلب أي نحن أقرب إليه من قلبه بمنزلة ذلك العرق في قربه للشخص وفي ذلك العرق مجاري الروح.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ التلقّي الأخذ والتلقّن بالحفظ والكتابة أي يأخذ الحفيظان الموكّلان بالإنسان ما يتلفّظ به وفي الحديث أن مقعد ملكيك على ثنيّتك ولسانك قلمهما وريقك مدادهما وأنت تجري فيما لا يعنيك لا تستحيي من الله ولا منهما ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ هو أشرف الجوارح وفيه القوّة التامّة ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ هو مقابل اليمين أي عن جانب اليمين ﴿قَعِيدٌ﴾ أي: قاعد فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه وقيل: يطلق الفعيل على الواحد والمتعدّد كقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يرى به من فيه من خير أو شرّ والقول أعمّ من الكلمة والكلام ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ ملك يرقب قوله ويكتبه والخير يكتبه صاحب اليمين والشرّ صاحب الشمال وهو ﴿عَتِيدٌ﴾ أي: مهيّأ لكتابة ما أمر به وهذا التهيّؤ لكليهما والإفراد حيث لم يقل رقيبان عتيدان مع وقوفهما معا لما أنّ كلًّا منهما رقيب لما فوّض إليه لا لما فوّض إلى صاحبه.

واختلف فيما يكتبانه فقيل: يكتبان كلّ شيء حتّى أنينه في مرضه. وقيل: إنّما يكتبان ما فيه أجر ووزر وهو الأظهر كما ينبئ عنه قوله: كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيّئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات آمر على كاتب السيّئات فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا وإذا عمل سيّئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعلّه يسبّح أو يستغفر.

وإنّ الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه وعند جماعه ولذكر الكلام في الجماع وعند قضاء الحاجة أشدّ كراهة لأنّ الحفظة تتأذّى من الحضور في ذلك الموضع الكريه لأجل كتابة الكلام ولذا يحمد الله بقلبه عند العطاس في بيت الخلاء وكذا الضحك في هذه الحالة.

في هذا الحديث (أنّ ملائكة اللّيل وملائكة النهار يصلّون معكم العصر فيصعد ملائكة النهار وتمكث ملائكة اللّيل فإذا كان الفجر نزل ملائكة النهار ويصلّون الصبح فيصعد ملائكة اللّيل وتمكث ملائكة النهار وما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله في أوّل الصحيفة خيرا وفي آخرها خيرا إلّا قال لملائكته: اشهدوا أنّي غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة وفي الحديث نظّفوا لثاثكم فأمر بتنظيفها لئلّا يبقى وضر الطعام فتتغيّر النكهة ويتأذّى الملكان الحافظان لأنه طريق القرآن ومقعد الملكين عند نائبه).

وعن مجاهد قال: أبطأ جبرئيل على النبيّ ﷺ ثمّ أتاه فقال ﷺ: «له ما حبسك يا جبرئيل؟» قال: «وكيف آتي وأمّتك لا يقصّون أظفارهم ولا يأخذون من شواربهم ولا ينقو براجمهم ولا يستاكون» والبرجمة بضمّي الباء والجيم وسكون الراء وهو ظهر عقدة كلّ مفصل من قصبة الأصابع فظهر العقدة يسمّى ببرجمة وما بين العقدتين يسمّى راجبة فلكلّ إصبع برجمتان وثلاث رواجب إلّا الإبهام فإنّه له برجمة وراجبتين فأمر بتنقيته لئلّا يدرن فيبقى فيه الجنابة ويحول الدرن بين الماء والبشرة والجنب لا يقربه الملائكة إلى أن يتطهّر.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ السكرة استعارة لشدّة الموت وغمرته الذاهبة بالعقل وعبّر عن وقوعها بالماضي إيذانا بتحقّقها وغاية اقترانها حتّى كأنّها قد أتت وحضرت كما قيل: قد أتاكم الجيش ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بأمر الله الّذي هو حقّ وواقع لا محالة. ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: يقال له: يا إنسان

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الموت الّذي كنت منه تحيد وتهرب وتميل وكنت تفرّ منه. وقيل: إنّ نفس المؤمن المطيع تنسلّ انسلال القطرة من السقاء وينزل عند الموت أربعة من الملائكة ملك يجذب النفس من قدمه اليمنى وملك يجذبها من قدمه اليسرى وملك يجذبها من يده اليمنى وملك يجذبها من يده اليسرى فيجذبونها أطراف البنان ورؤوس الأصابع وأمّا الفاجر فينسلّ روحه كالسفود من الصوف المبلول وهو يظنّ أنّ بطنه ملئت شوكا وكأنّ نفسه يخرج من ثقب إبرة وكأنّ السماء انطبقت على الأرض وهو بينهما.

فإن قيل: إنّ المحتضر مع هذه الشدّة لم لا يصيح كما يصيح من به ألم من الضرب وغيره؟ لأنّه إنّما يستغيث ويصيح المضروب لبقاء قوّته في قلبه وجوارحه ولسانه لكن ينقطع صوت المحتضر من الشدّة لأنّ الكرب قد بولغ فيه وغلب على كلّ موضع من جسده فهو كلّ قوّة وأضعف كلّ جارحة ولم يترك له قوّة الاستغاثة وربما كشف للميّت عن الأمر الملكوتيّ قبل أن يغرغر فعاين الملائكة على صور هي حقايق أعماله فإن كانت أعماله حسنة يراهم على صورة حسنة وإن كانت سيّئة فعلى صورة قبيحة فذلك الّذي يشخص بصره وقد تظهر صفات قبح الأعمال عند الموت فالمغتاب تقرض شفاهه بمقاريض من نار والسامع للغيبة يسلك في أذنيه نار وآكل الحرام يقدّم له الزقّوم كذلك إلى آخر أعمال العبد.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وهي النفخة الثانية نفخة البعث والنافخ إسرافيل وقد سبق الكلام في معنى الصور ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك النفخ ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: يوم إنجاز الوعيد الواقع في الدنيا عبارة عن العذاب الموعود به وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنّه يوم الوعد أيضاً لبيان التهديد والتهويل.

وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا

عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البرّة والفاجرة ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ويختلف كيفيّة السوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملا أي مع كلّ نفس ملكان أحدهما يسوقه إلى المحشر والآخر يشهد بعمله خيرا أو شرّا ويمكن أن يسوق سائق الكافر إلى النار والشهيد يشهد بمعصيته ويسوق المؤمن إلى الجنّة ويشهد الشهيد بطاعته.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمر أو سهو يعتري من قلّة التحفّظ والتيقّظ أي يقال له: أيّها الشخص لقد كنت في الدنيا في غفلة وذهول من هذا اليوم وغوائله والخطاب للكافر. ﴿فَكَشَفْنَا﴾ أي: أزلنا ﴿عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الّذي كان على بصرك بسبب الغفلة والجهل وقيل: المراد من الغطاء القبر أي أخرجناك منه ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ونافذ تبصر ما كنت تنكره وتستبعده في الدنيا فأنت حينئذ حديد البصر والبصيرة والإنسان وإن خلق من عالمي الغيب والشهادة فالغالب عليه في البداية والشهادة وهي العالم الحسّي فيرى بالحواسّ الظاهرة العالم المحسوس وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب فمن الناس من يكشف الله غطاءه عن بصر بصيرته فيجعل بصره حديدا يبصر رشده وذلك بسبب إطاعته وقبوله الحقّ ومنهم من يكشف بصر بصيرته يوم القيامة وهم الكفّار.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ يعني: الملك الشهيد عليه، وهو المرويّ عن الباقر والصادق عليهما السلام؛[1] وقيل: المراد من القرين الشيطان الّذي قبض له وقيل من الإنس ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ فلو كان المراد الملك الشهيد فالمعنى هذا حسابه حاضر لديّ في هذا الكتاب أي يقول لربّه: كنت وكّلتني به فما كتبت به من عمله حاضر عندي وإنّ المراد به الشيطان أو القرين من الإنس فالمعنى هذا العذاب حاضر عندي معدّ بسبب سيّئاته.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ هذا خطاب للملكين الموكّلين به وهما السائق والشهيد وبحذف الإسناد عن أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا كان يوم القيامة يقول الله لي ولعليّ: ألقيا في النار من أبغضكما وأدخلا الجنّة من أحبّكما. وذلك قوله: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾»[2] والعنيد الذاهب عن الحقّ ومعاند له والعناد أقبح الكفر والعنيد المعجب بما عنده ويميل عن الحقّ ويردّه وهو عارف به قيل: مشتقّ من العند وهو عظم يعترض في الحلق. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ الّذي أمر الله به من بذل المال في وجوهه ﴿مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ ظالم معتد حدود الله ذو ريب وشاكّ أو شاكّ في الله وفيما جاء من عنده قيل: الآية نزلت في الوليد بن المغيرة حين استشاره بنو أخيه في الإسلام فمنعهم فيكون المراد بالخير الإسلام.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ من الأصنام والأوثان وغيرها ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ هذا تأكيد للأوّل فكأنّه يقول سبحانه: افعلا ما أمرتكما به فإنّه مستحقّ لذلك ومن طريق العامّة دليل ورد أيضاً من طريق الخاصّة بينما النّاس في الحساب إذ بعث الله عنقا من النار يتكلّم فيقول: ائتوني بثلاثة: بمن

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٢٤٣، و بحار الانوار، ج٨، ص٢٦٦.

٢ـ الأمالي، للطوسي، ص ٢٩٠، و تفسير القمي، ج٢، ص٣٢٤، و تفسيرمجمع البيان، ج٩، ص ٢٤١.

دعا مع اللّه إلها آخر وبمن قتل نفسا بغير حقّ وبجبّار عنيد فيلقطهم من الناس كما يلقط الطير الحبّ الجيّد ثمّ يصيّرهم في نار جهنّم.

وأيضا بهذا الطريق في الحديث يخرج عنق من النار قبل الحساب والناس وقوف قد ألجمهم العرق وتصدّعت القلوب لهول المطلع فإذا أشرف على الخلائق له عينان ولسان فصيح يقول: يا أهل الموقف إنّي وكّلت منكم بثلاثة وذلك ثلاث مرّات إنّي وكّلت بكلّ جبّار عنيد فتلقطهم من بين الصفوف كما تلقط الطير حبّ السمسم فإذا لم يترك أحدا في الموقف نادى نداء ثانيا يا أهل الموقف إنّي وكّلت بمن آذى اللّه ورسوله فيلقطهم كذلك فإذا لم يترك أحدا منهم نادى ثالثا يا أهل الموقف إنّي وكّلت بمن ذهب يخلق كخلق اللّه وهم الّذين يصوّرون الكنائس لتعبد تلك الصور والّذين يصوّرون الأصنام وينحتون الأحجار والأخشاب ليعبدوها من دون اللّه فيلقطهم من بين الصفوف كما يلقط الطائر حبّ السمسم فإذا أخذهم اللّه عن آخرهم وبقي الناس وفيهم المصوّرون الّذين لا يقصدون بتصاويرهم عبادتها حتّى يسألوا عنها لينفخوا فيها أرواحا تحيا بها وليسوا بنافخين فيقفون ما شاء اللّه ينتظرون ما يفعل اللّه بهم والعرق قد ألجمهم.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: شيطانه الّذي أغواه وسمّي به قرينا لأنّه يقرنه في العذاب أو قرينه السوء من الإنس وهم علماء السوء من المتبوعين ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي: ما أضللته أي ما أوقعته في الطغيان باستكراه ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ﴾ من الإيمان ﴿بَعِيدٍ﴾ وهذا مثل قول الشيطان ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾[1].

﴿قال﴾ اللّه لهم: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ ولا يخاصم بعضكم بعضاً عندي ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ في دار التكليف ولم تنزجروا وخالفتم أمري.

١ـ سورة ابراهيم: ٢٢.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ إنّ الّذي قدّمت لكم في دار الدنيا من أنّي أعاقب من جحدني وكذّب رسلي لا يبدّل بغيره ولا يتخلّف ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ بل هو الظالم لنفسه وإنّما قال: ﴿بِظَلَّـٰمٍ﴾ على وجه المبالغة ردّاً على من أضاف الظلم إليه ولأنّه لو صدر عنه تعالى ظلما جزئيّاً بالنسبة إلى عدله كثير عظيم.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ يتعلّق يوم بقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ﴾ الآية، أو متعلّق بالذكر ذلك اليوم الّذي نقول فيه لجهنّم هل امتلأت من كثرة ما ألقي فيك من العصاة ﴿وَتَقُولُ﴾ جهنّم: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي: تطلب الزيادة. وقيل: معناه الكفاية أي لم يبق مزيد لامتلائها وقيل: طلب الزيادة منها كان قبل دخول جميع أهل النار فيها. ويجوز أن يكون طلب الزيادة على أن يزاد في سعتها وأمّا الوجه في كلام جهنّم فقيل: خرج مخرج المثل مثل قوله:

امتلأ الحوض وقال قطني ... مهلا رويدا قد ملأت بطني

وقيل: يخلق لجهنّم آلة الكلام لأنّ من ينطق الأيدي والأرجل والجلود قادر على أن ينطق جهنّم وقيل: إنّه خطاب لخزنة جهنّم ومعناه ما من مزيد كقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾[1].

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن

١ـ سورة فاطر: ٣.

لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾

لمّا أخبر عمّا أعدّه للكافرين عقّبه بذكر ما أعدّه للمتّقين فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي: قربت الجنّة وازّيّنت للذين اتّقوا الشرك والمعاصي ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أي: مكانا غير بعيد بحيث ينظرون إليها قبل دخولها وتقرّب الجنّة بأن يسهل للمتّقين مسيرهم إليها ويراد بهم الخواصّ.

وأهل الجنّة ثلاثة أصناف: قوم يحشرون إلى الجنّة مشاة وهم الّذين قال فيهم: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾[1] وهم عوامّ المؤمنين. وأمّا خاصّ الخاصّ فهم الّذين قال فيهم: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: يقال لهم من قبل الله أو على لسان الملائكة عند مشاهدة الجنّة ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدل من المتّقين أي لكلّ توّاب رجّاع إلى الطاعة أو لكلّ مسبّح ﴿حَفِيظٍ﴾ لما أمر الله به متحفّظ من الخروج إلى ما لا يجوز من سيّئة.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ الخشية خوف يشوبه تعظيم وقيل: انزعاج القلب عند القلب عند ذكر السيّئة أي: هو من خاف الله وأطاعه وآمن بثوابه وعقابه ولم يرده وقيل: المراد من قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي في الخلوة بحيث لا يراه أحد ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: دام على ذلك بالقلب والاعتقاد إذ لا عبرة للإنابة إلّا إذا كان من القلب ومقبل عليه تعالى بالكلّيّة ومعرض عمّن سواه.

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ يقال لهم: ادخلوا الجنّة ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي: متلبّسين بسلامة من العذاب أو بسلام من الله وملائكته ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الزمان الممتدّ الّذي

١ـ سورة الزمر: ٧٣.

٢ـ سورة الشعراء: ٩.

وقع في بعض منه ما ذكر أو هذا اليوم يوم خلودكم وتأبيدكم في الجنّة وخلود الأمر بقاؤه على الحالة الّتي هو عليها.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ من فنون المفرّحات كائنا ما كان سوى الخبائث فإنّهم لا يشاءونها لأنّ اللّه يعصم أهل الجنّة من شهوة قبيحة مثلا مثل اللواط وما شابهها ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي وعندنا زيادة على ما يشاءونه ممّا لم يخطر ببالهم أو الزيادة على قدر استحقاقهم من الثواب بأعمالهم.

ثمّ خوّف كفّار مكّة فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: كثيرا أهلكنا قبل هؤلاء الكفّار من القرون الّذين كذّبوا رسلهم ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي الّذين أهلكناهم كانوا أكثر عددا وعدّة ولم يتعذّر علينا إهلاكهم ﴿وَكَمْ﴾ هنا للتكثير خبريّة وقعت مفعول أهلكنا ﴿فَنَقَّبُوا فِى الْبِلَادِ﴾ أي: فتحوا المسالك وخرقوا البلاد وقطعوا المفاوز ودوخوا وأذلّوا وقهروا أهلها وتصرّفوا في أقطارها لشدّة بطشهم وسطوتهم ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: هل كان لهم من محيص عن الموت ومنجأ من العذاب والمحيص المهرب.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكر في هذا البيان وفي هذه السورة ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكرة وعظة ﴿قَلْبٌ﴾ سليم يدرك به ما يضرّه وما ينفعه وله علم وفهم وعقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: ألقى سمعه إلى ما يتلى عليه من الوحي ولكن بشرط أن يكون الملقي حاضر الذهن وكلمة ﴿أَوْ﴾ لتقسيم المتفكّر إلى الفقيه والمتعلّم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ والمراد من ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من أصناف المخلوقات في ستّة أيّام ولو شاء لكان خلقها في أقلّ من لمح البصر ولكنّه تعالى منّ لنا التأنّي بذلك فإنّ العجلة من الشيطان إلّا في ستّة مواضع: أداء الصلاة إذا دخل الوقت،

ودفن الميّت، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب وحلّ، وإطعام الضيف إذا نزل، وتعجيل التوبة إذا أذنب. ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ للّغوب التعب أي ما أصابنا من هذه الخلقة العظيمة نصب وتعب وعيّ.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: ما يقوله المشركون في شأن البعث وإنكارهم فإنّ من فعل هذه الأفاعيل قادر على بعثهم وفي الآية إشارة إلى تربية النفوس بالصبر على ما يقول الجاهل من كلّ نوع من المكروهات وبيان طريق تزكيتها من الصفات المذمومة بملازمة الذكر والتسبيحات والتحميدات بقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: فنزّهه عن جميع ما لا ينبغي في ساحة جلاله ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وقيل: هما وقت الفجر والظهر والعصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني المغرب والعشاء. وقيل: وسبّحه بعض اللّيل ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ وأعقاب الصلاة وأواخرها إذا انقضت والركوع والسجود يعبّر بهما عن الصلاة لأنهما أعظم أركانها كما يعبّر بالوجه عن الذات لأنّه أشرف أعضائها فحينئذ المراد التسبيح بعد كلّ صلاة. وقيل: المراد من أدبار السجود الركعتان قبل الفجر عن عليّ بن أبي طالب والحسن بن عليّ عليهما السلام[1] وجماعة. وقيل: المراد من النوافل بعد المفروضات وقيل: إنّه الوتر من آخر اللّيل روي ذلك عن الصادق عليه السلام.

وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

١ـ تفسير مجمع البيان، ج٩، ص ٢٥٠، و انظر، بحار الانوار، ج٧٩، ص٣٢٨، و ج١٦، ص٢٠٨.

أي ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ حديث يوم النداء فحذف المضاف. واصغ إلى النداء أي بوقعه وذلك يوم القيامة والبعث والنشور وهي النفخة الثانية وقيل: إنّه ينادي مناد من صخرة بيت المقدس أيّتها العظام البالية والأوصال المتقطعة قومي لفصل القضاء وما أعدّ الله سبحانه عزّ وجلّ لكم من الجزاء. وقيل: إنّ المنادي هو إسرافيل يقول: يا معشر الخلائق قوموا للحساب وإنّما قال: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ لأنّ الخلائق يسمعون كلّهم على حدّ واحد في السماع ولا يخفى على أحد قريب ولا بعيد فكأنّهم نودوا من مكان يقرب النداء منهم.

أو المكان القريب المراد قربه إلى السماء، فإنّ بيت المقدس أقرب من جميع الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً أو عشر أميال.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ بدل من يوم ينادي والصيحة المرّة الواحدة من الصوت الشديد أي إنّها كائنة لا محالة ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ ذلك يوم الخروج من القبور وهو من أسماء يوم القيامة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أخبر سبحانه عن نفسه أنه هو الّذي يحيي الخلق بعد أن كانوا جماداً أمواتا وتكرير الضمير للتأثير والاختصاص والتفرّد ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ للجزاء في الآخرة لا إلى غيرنا فليستعدّوا للقائنا.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ بحذف إحدى التاءين أي تتصدّع عن الناس والأموات ويخرجون من القبور متسرّعين إلى إجابة الداعي من غير التفات إلى يمين وشمال ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾ أي: هذا الأحياء من القبور بعث وجمع وسوق ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ وهيّن وهو كلام معادل لقول الكفّار حيث قالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ وتقديم الجارّ والمجرور لتخصيص اليسير به تعالى.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من نفي البعث وتكذيب الآيات وفي الكلام تسلية للنبيّ ﷺ وتهديد للكفّار ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي بمسلّط تقسرهم

على الإيمان وإنّما أنت مذكّر. ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي عظهم بمواعظ القرآن من يخاف وعيدي فإنّهم المنتفعون به كما قال: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وكما قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾[2] وأهل القرآن أهل الله وخاصّته فيرون الحقّ بالحقّ ولا يتّعظ بمواعظ القرآن إلّا الخائفون على إيمانهم بل خائفون على كلّ من أنفاسهم وإنّما يتّعظ النفوس القابلة لتذكير القرآن ووعيده.

وكان رسول الله يخطب بسورة في كثير من الأوقات لاشتمالها على ذكر الله والثناء علمه وبيان علمه تعالى بما يوسوس به النفوس وما يكتبه الملائكة على الإنسان من طاعة ومعصية وتذكير الموت وسكرته وأحوال القيامة وأهوالها والشهادة على الخلق وأعمالهم وتذكير الجنّة والنار والصحّة والخروج والمواظبة على الصلاة.

تمّت السورة.

١ـ سورة الذاريات: ٥٥.

٢ـ سورة يس: ١١.

سورة الذاريات

مكية. قال أبيّ بن كعب عن النبيّ: «من قرأها في يومه أو ليلته أصلح الله له معيشته وأتاه برزق واسع ونوّر له في قبره بسراج يزهر إلى يوم القيامة»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا
﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ
لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي
غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ
﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

ختم الله سورة ق بالوعيد وافتتح هذه السورة أيضاً بالوعيد روي أنّ ابن الكوّاء سأل أمير المؤمنين عليّا وهو يخطب على المنبر فقال: ما الذاريات؟ قال: «الرياح يقال ذرت الريح التراب إذا طيّرته». قال ابن الكوّاء: فما الحاملات وقراً؟ قال عليه السلام: «السحاب». قال: فما الجاريات يسراً؟ قال: «السفن» قال: فالمقسّمات أمراً؟ قال: «الملائكة»[2].

١ـ ثواب الاعمال، ص١١٦، و تفسيرجوامع جامع، ج٣، ص٤٢٥.

٢ـ انظر: كنزالعمال، ج٢، ص٥٦٥، و تفسيرمجمع البيان، ج٩، ص٢٥٤، و تفسيرمجاهد، ج٢، ص٦١٥.

وقيل: الجاريات هي السحاب تجري يسرا إلى حيث أمر اللّه إلى البقاع. وقيل: هي النجوم السبعة السيّارة: الشمس والقمر وزحل والمشتري والمرّيخ والزهرة وعطارد أقسم اللّه بهذه الأشياء لكثرة منافعها للعباد أو التقدير بربّ هذه الأشياء.

قال أبو جعفر والصادق عليهما السلام: **«إنّه لا يجوز لأحد أن يقسم إلّا باللّه واللّه سبحانه يقسم بما يشاء من خلقه».**[1] والذاريات صفة الرياح وحذفت الموصوفات والتقدير والرياح الذاريات ذروا روي أنّه لو حبس اللّه الريح عن الأرض ثلاثة أيّام ما بقي على وجه الأرض إلّا نتن[2].

وعن أبي أمامة قال: قال رسول اللّه[3]: **«ليبيتنّ قوم من أمّتي على أكل وشرب ولهو ولعب ثمّ ليمسخنّ قردة وخنازير وليصيبنّ أقواما من أمّتي خسف وقذف باتّخاذهم القيان وشربهم الخمور وضربهم الدفوف ولبسهم الحرير ولينسفنّ أحياء من امّتي الريح كما نسفت عادا»**، والنسف القلع من الشيء من أصله. ثمّ ذكر المقسم عليه بعد ذكر المقسم به فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ من الثواب والعقاب صدق لا بدّ من كونه اسما وضع موضع المصدر والعائد محذوف أي: إنّ الّذي توعدونه من الجزاء والبعث لذو صدق مثل قولهم: تامر ولابن ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ أي: إنّ الجزاء على الأعمال حاصل وكائن فإنّ من قدر على هذه الأفعال البديعة قادر على البعث والجزاء ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ والحبك جمع حباك والمعنى الطرائق الّتي هي مساير الكواكب ومسالك الملائكة.

فأقسم سبحانه بها وقال: ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ في

۱ـ مجمع البيان، ج۹، ص۲۵٤، و تفسير الصافي، ج۵، ص٦٧.

۲ـ بحار الانوار، ج۵۷، ص٤، و تفسير الرازي، ج١٤، ص١٤٢.

۳ـ انظر: المعجم الصغير، ج١، ص٦٢، و انظر: ذكرأخبارإصبهان ، ج١، ص١٢۵.

شأن القرآن بقولهم: إنّه سحر أو شعر واختلاق وأساطير أو إنّكم في قول مختلف في حقّ محمّد فبعضكم يقول: شاعر وبعض يقول: ساحر كذّاب أو إنّكم منكم مكذّب به ومنكم مصدّق به ومنكم شاكّ فيه ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ ورجل مأفوك مصروف عن الحقّ إلى الباطل أي يصرف عن القرآن أو الرسول من انصرف بسبب عدم قبول الدلائل ويحرم نفسه من الإيمان وينصرف عن هذه السعادة لجحوده وإنكاره.

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ دعاء عليهم كقوله: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾[1] وجرى هذا الكلام مجرى لعن وقبح، والخرص تقدير القول بلا حقيقة ومنه خرص الثمار وكلّ قول مقول عن ظنّ وتخمين يقال: خرص من حيث إنّ صاحبه لم يقله عن علم بل اعتمد عليه بالتخمين كفعل الخارص في خرصه وكلّ من قال قولا على هذا النحو يسمّى كاذبا وإن كان قوله مطابقا للقول المخبر به فالخراصون في الآية المراد الكذّابون وتقدير الآية قتل هؤلاء الكذّابون.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ من الجهل والضلال، والغمرة معظم الماء أي الجهالة غمرتهم ﴿سَاهُونَ﴾ أي غافلون.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي: متى يوم الجزاء إنكارا واستهزاء وسؤالهم لا على وجه الاستفهام والاستفادة لمعرفته، وحذف المضاف أي متى وقوع يوم القيامة فأجيبوا بأن يقع.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ والظرف منصوب بفعل مقدّر أي يقع يوم هم على النار يعذّبون كما يفتن الذهب بالنار.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: مقولا لهم هذا القول إذا عذّبوا والقائل خزنة النار: ذوقوا جزاء كفركم وقوله: ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: كفركم مرادا بالكفر عاقبة الكفر وهو العذاب.

١ـ سورة عبس: ١٧.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ
﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقّٞ
لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٞ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي
ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

ثمّ ذكر سبحانه ما أعدّه لأهل الجنّة فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ أي: المحترزين عن الكفر والمعاصي والمتّصفين بالإيمان والمعرفة والطاعة في بساتين والتنكير للتعظيم أو للتكثير مثل قولهم: إنّ له لإبلا وإنّ له لغنما ولي أنهار جارية.

﴿ءَاخِذِينَ﴾ قابلين لكلّ ما أعطاهم من الثواب متلقّين بالقبول لأنّه في غاية الجودة ومنه قوله[1]: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يقبلها ويرضاها ثمّ علّل استحقاقهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل دخول الجنّة أي في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ يفعلون الطاعات ويحسنون إلى غيرهم بضروب الإحسان.

﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ الهجوع النوم أي كانوا يهجعون في طائفة قليلة من اللّيل و«ما» مزيدة لتأكيد معنى التقليل أي يذكرون ويصلّون أكثر اللّيل وينامون أقلّه وبعض فسّروا هذا الحديث «نوم العالم عبادة» قالوا: فمن يعبد لا يكون نائماً قيل: نزلت الآية في شأن الأنصار حيث كانوا يصلّون في مسجد النبيّ ﷺ ثمّ يمضون إلى قبا وبينهما ميلان.

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ السحر السدس الأخير من اللّيل لاشتباهه بالضياء كالسحر يشبه الحقّ وهو باطل أي هم مع قلّة هجوعهم وكثرة تهجّدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار وهذا دليل على أنّهم غير معجبين بأعمالهم وخائفين من التقصير وتقديم الظرف في الآية للاهتمام ورعاية الفاصلة ولعلّ

١ـ سورة التوبة: ١٠٤.

يستغفرون استصغاراً لفعلهم.

قيل: يا رسول الله كيف الاستغفار؟ قال ﷺ: قولوا: «اللّهمّ اغفر لنا وارحمنا وتب علينا إنّك أنت التوّاب الرحيم». في الحديث: «إنّ أحبّ أحبّائي إليّ الّذين يستغفرون بالأسحار أولئك الّذين إذا أردت بأهل الأرض سيّئا صرفت بهم عنهم»[1]. وكان النبي ﷺ إذا قام من اللّيل يتهجّد قال: «اللّهمّ لك الحمد أنت الحقّ ووعدك ولقاؤك حقّ وقولك حقّ والجنّة حقّ والنار حقّ والنبيّون حقّ ومحمّد حقّ والساعة حقّ اللّهمّ لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكّلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدّمت وما أخّرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدّم وأنت المؤخّر لا إله إلّا أنت ولا حول ولا قوّة إلّا بالله»[2].

وفي الحديث قال داود عليه السلام: «يا جبرئيل أيّ من اللّيل أفضل قال: لا أدري إلّا أنّ العرش يهتزّ وقت السحر ولا يهتزّ العرش إلّا لكثرة تجلّيات رحمة الله فرحا لأهل السهر وإمّا طرباً لأنين المذنبين والمستغفرين في ذلك الوقت وإمّا تعجّباً لكثرة عفو الله ومغفرته في ذلك الوقت وإمّا تعجّبا من حسن لطف الله على عباده الأبقين الهاربين منه مع غنائه عنهم ثمّ مع ذلك هم غافلون في نومهم وهو تعالى يتوجّه إليهم ويدعوهم بقوله: هل من سائل هل من مستغفر هل من تائب هل من نادم هل من يقرض غير عدوم؟ وإمّا تعجّبا من غفلات أهل الغفلة بنومهم في ذلك الوقت وحرمانهم من البركة واعلم أنّ الله أمر نبيّه بإحياء اللّيل لأنّ هذه الطريقة أقرب طرق إلى الله للمقبل الصادق وما يطيقها إلّا المتمكّن الصابر»[3].

قال ﷺ: «فرض عليّ قيام الليل ولم يفرض عليكم». قال أهل التحقيق:

١ـ تفسير ابن زمنين، ج٤، ص٢٨٤.

٢ـ صحيح البخاري، ج٢، ص٤٢، و سنن النسائي، ج٣، ص٢٠٩، و صحيح مسلم، ج٢، ص١٨٤.

٣ـ انظر: مستدرك الوسائل، ج١٢، ص١٤٦، و تفسير الثعلبي، ج٣، ص٣٠.

وذلك لأنّه روح العالمﷺ ومداره فكيف يكون لله وليّ كامل يبخل بنفسه على الله متكاسل وبتكاسله يخرب العالم ويشتدّ جهل أهله كما أنّ الروح إذا ضعف اختلّ الجسد وقواه ومن هنا تعرف شدّة توغّل الأنبياء والأتقياء في العبادات وكلّما قرب الإنسان من الكمال اشتدّ تكليفه. قيل: إنّ إلياس النبيّ عليه السلام أتى إليه ملك الموت ليقبضه فبكى فقال له: أتبكي وأنت راجع إلى ربّك؟ فقال: بل أبكي على ليالي الشتاء ونهار الصيف الأحباب يقومون ويصومون ويجذبون ويتلذّذون بمناجاة محبوبهم وأنا رهين التراب فأوحى الله إليه قد أجّلناك إلى آخر الدهر لحبّك خدمتنا فتمتّع.

﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾ أي: نصيب وافر يوجبون على أنفسهم ويعدّونه واجباً عليهم تقرّبا إلى الله ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ أي لطالب الجدوى ولحاجة المستجدي ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أي: المتعفّف الّذي يحسبه الناس غنيّا فيحرم الصدقة أو المحروم الممنوع من الخير والرزق بترك السؤال أو ذهاب المال وخراب الضيعة أو مدبر الأيّام ولعلّ تخصيص الذكر بالسائل والمحروم ولم يذكر سائر المستحقّين لأنّ ذلك حقّ سوى الصدقة المفروضة كما قالﷺ: «**إنّ في المال حقّاً سوى الزكاة**.»[1] أي قد يقع في المال حقّ واجب سوى الزكاة وهو الحقوق الّتي تلزم عند ما يعرض من الأحوال مثل النفقة على الوالدين إذا كانا فقيرين وما يجب من إطعام المضطرّ وحمل المنقطع.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ أي: دلائل واضحة على وجود الصانع وعلمه وقدرته من حيث إنّها مدحوّة كالبساط الممهّد وفيها مسالك للمتقلّبين في أقطارها والسالكين في مناكبها وكيف وفيها سهل وجبل وبرّ وبحر وعيون

١ـ جوامع الجامع، ج١، ص١٧٨، و فقه السنة، ج١، ص٤١٦، و الكشاف، ج١، ص٣٣١، و الدرالمنثور، ج٣، ص٤٩.

ومعادن متفنّنة وألوان النبات والألوان والطعوم والحيوان ودبّر سبحانه لكلّ تدبيراً لبقاء نوعه وإنّما خصّ الموقنين لأنّهم يتأمّلون فيها فيحصل لهم العلم بموجبها.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: وفي أنفسكم أيضاً آيات وشواهد على خالقيّته ووحدانيّته ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي أفلا ترون أنّكم متنقلون من صفة إلى اخرى مثل أن كنتم نطفاً فصرتم أحياء جنينا ثمّ كنتم أطفالا فصرتم شباباً ثمّ كهولاً فهلّا دلّكم ذلك على أنّ صانعاً ومقدّراً يقدّر ويدبّر هذه الأمور فساعة تجوع وساعة تشبع وتغضب وترضى وهذه الأمور كلّها من آيات اللّه وتصرّفه.

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ فينزل اللّه إليكم بأن يرسل الغيث والمطر عليكم فيخرج به من الأرض أنواع ما تقتاتونه وتلبسونه وتنتفعون به وكذلك اختلاف المطالع والمغارب الّتي يترتّب عليه اختلاف الفصول الّتي هي مبادئ حصول الأرزاق ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثواب لأنّ الجنّة على ظهر السماء السابقة تحت العرش قرب سدرة المنتهى أو أنّ كلّ ما توعدون من الخير والشرّ والشدّة والرخاء وغيرها مكتوب مقدّر في السماء.

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أقسم سبحانه بنفسه ذكر الربّ لأنّه في بيان التربية بالرزق ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي ما توعدون لحقّ وواقع قيل: إنّ رسول اللّه قال: «**قاتل الله أقواما أقسم الله لهم بنفسه فلم يصدّقوه**» ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي: كما أنّه لا شكّ لكم في أنّكم تنطقون ينبغي أن لا تشكّوا في حقيقته وإنّما اختصّ التمثّل بالنطق في التشبيه لأنّه مختصّ بالإنسان وهو أخصّ صفاته.

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ

﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا
خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً
لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

لمّا قدّم الوعد والوعيد ذكر بشارة إبراهيم عليه السلام ومهلك قوم لوط تخويفا للكفّار فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ يا محمّد وهذا اللّفظ يستعمل إذا أخبر الناس بخبر ماض فيقال: هل سمعت خبر كذا وإن علم أنّه لم يأته ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ عند الله وذلك لأنّهم كانوا ملائكة كراماً. وقيل: المراد بالمكرمين لأنّ إبراهيم أكرمهم ورفع مجالستهم وخدمهم بنفسه وسمّاهم ضيفاً مع أنّهم لم يأكلوا من طعامه لأنّهم دخلوا مدخل الأضياف واختلف في عددهم فقيل: كانوا اثني عشر ملكا وقيل: كان جبرئيل ومعه سبعة أملاك وقيل: ثلاثة جبرئيل وميكائيل وملك آخر.

والضيف في الأصل مصدر ضافه ولذلك يطلق على الواحد والجماعة وأصل معنى الضيف الميل وهو مأخوذ من مال إليك نزولاً بك.

وفي الراوية إنّ الله أوحى إلى إبراهيم ـ وهو أوّل من سنّ القرى ـ أكرم الضيف فكان يعدّ لكلّ من أضيافه شاة مشويّة فأوحى إليه أكرم أضيافك فجعله ثورا فأوحى إليه أكرم فجعله جملاً فأوحى إليه أكرم فتحيّر فيه فعلم أنّ إكرام الضيف ليس في كثرة الطعام فخدمهم بنفسه فأوحى إليه: الآن أكرمت الضيف. قيل: لا عار للرجل ولو كان سلطاناً أن يخدم ضيفه وأبويه ومعلّمه.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وتقديره هل أتاك حديثهم الواقع وقت دخولهم عليه ﴿فَقَالُوا سَلَٰمًا﴾ أي: نسلّم عليك سلاما والفاء لبيان أنّ السّلام وقع بعد

الدخول ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم سلام فحيّاهم إبراهيم بتحيّة أحسن من تحيّتهم لأنّ تحيّتهم كانت بالجملة الفعليّة الدالّة على الحدوث حيث نصبوا سلاماً وتحيّته بالجملة الاسميّة الدالّة على الثبوت والدوام ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: تصوّر إبراهيم في نفسه هؤلاء قوم منكرون لا أعرفهم وذلك أنّه عليه السلام ظنّ أنّهم من الإنس.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: ذهب إليهم خفياً وإنّما راغ مخافة أن يمنعوه من تكلّف الأكل ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ وكان مشويّا لقوله في آية اخرى: ﴿حَنِيذٍ﴾ فكان عامّة مال إبراهيم ذلك الوقت البقر فجاء به ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ بأن وضعه لديهم ليأكلوا فلم يأكلوا ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ عرض عليهم الأكل وامتنعوا من الأكل.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وظنّ أنّهم يريدون به سوءا قيل: إنّهم قالوا: نحن لا نأكل بغير ثمن قال إبراهيم: كلوا وأعطوا ثمنه قالوا: وما ثمنه؟ قال: إذا أكلتم فقولوا: بسم اللّه وإذا فرغتم قولوا: الحمد للّه فعجبت الملائكة من قوله.

وبالجملة لمّا رآهم لا يأكلون أوجس في نفسه الخوف. والوجس الصوت الخفيّ في النفس وأضمر الخوف وذلك أنّ من العادة من يجيء بالشرّ والضرّ أن لا يتناول من طعام من يريد إضراره ومن المشهور: إنّ من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك. ولمّا أحسّت الملائكة بخوفه ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ إنّا رسل اللّه. وقيل: مسح جبرئيل العجل بجناحه فقام يمشي حتّى لحق بامّه فعرفهم إبراهيم وأمن منهم.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ والغلام المبشّر به هو إسماعيل وقيل: هو إسحاق لأنّه من سارة وهذه القصّة لها فلمّا سمعت سارة امرأة إبراهيم البشارة أقبلت في ضجّة (وقيل: في جماعة عن الصادق عليه السلام) وأخذت تصيح وتولول

ومعنى الصرّة الصيحة الشديدة يقال: صرّ إذا صوّت ومنه صرير الباب وصرير القلم ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجّبا ولطمت وجهها والصكّ ضرب الشيء بالشيء العريض ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي أنا عجوز عاقر فكيف ألد؟

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي: كما قلنا لك إنّك ستلدين غلاماً ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بخفايا الأمور.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: فما شأنكم ولأيّ أمر جئتم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ كأنّه قال: قد جئتم لأمر عظيم ولا يستعمل الخطب إلّا في أمر عظيم ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ متمادّين في الآثام. وقيل: المجرم فاعل الجرائم وهي صعاب المعاصي والمراد به قوم لوط.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ بعد ما قلبنا قراهم وجعلنا عاليها سافلها ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي: طين متحجّر وهو السجّيل طبخت بنار جهنّم مكتوب عليها أسماء القوم ولو لم يقل من طين لتوهّم من الحجارة البرد بقرينة إرسالها من السماء ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة من السومة أي العلامة معلمة ببياض وحمرة أو بسيما يتميّز بها عن حجارة الأرض أو المراد من المسوّمة المرسلة من سوّمت الماشية أي أرسلتها لترعى ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: في خزانة ربّك ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدّ في الفجور وقيل: المراد من السرف هاهنا الشرك عن ابن عبّاس.

﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ الفاء فصيحة مفصحة عن محذوف كأنّه قيل: فباشروا ما أمروا به فأخرجنا بقولنا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ الآية ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي في قرى قوم لوط ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنّ الله أمر لوطاً بأن يخرج هو ومن معه من المؤمنين ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يعني: لوطا وبيته وصفهم الله بالإيمان والإسلام إذ كلّ مؤمن هو مسلم. ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ أي في مدائن قوم

لوط أبقينا ﴿ءَايَةً﴾ وعلامة ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فيخافون مثل عذابهم ويعتبرون به دون من عداهم من ذوي القلوب الفاسدة بأنّهم لا يعدّونها آية كما أنّ أكثر الحاجّ حين المرور بمدائن لا يلتفتون وكان النبيّ يبكي حين المرور بمثل هذه المواضع وينكس رأسه ويأمر بالبكاء والتباكي.

واعلم أنّ المعتبر في باب النجاة الحشر مع أهل الصلاح وحسن اتّباعهم بالاتصال المعنويّ لا الاختلاط الصوريّ وإلّا نجت امرأة لوط وابن نوح فعلى العاقل المسترشد باتّباع الكامل والاحتراز عن أهل الفساد سيّما الناقص في العقل والدين.

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ عطف على قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ فقصّة إبراهيم ولوط معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه.

أي: وجعلنا في إرسال موسى إلى فرعون وإنجائه وما لحق فرعون وقومه من الغرق آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾ أي: وقت إرسالنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ صاحب ملك مصر ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هو ما ظهر على يده من المعجزات والسلطان مصدر يطلق على المتعدّد وعلى الواحد.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: أعرض فرعون وثنى عطفه والتولّي كناية عن

الإعراض والباء للتعدية مثل قوله: ﴿وَنَئَا بِجَانِبِهِ﴾ والركن بمعنى الطرف والجانب وقيل: المراد فتولّى فرعون بما يتقوّى به من الملك والعسكر والجنود فإنّ الركن اسم لما يركن إليه الإنسان والركن مستعار لجنوده نسبتهما بالركن الّذي يتقوّى البنيان به. ﴿وَقَالَ﴾ هو أي موسى ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ و (أو) في الآية بمعنى الواو كقوله: ﴿مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[1] وتأمّل في حمق فرعون أنّه نسب إلى موسى صفتين متناقضتين لأنّ السحر لا يعلمه إلّا من له حذاقة وإدراك والجنون زوال هذه الأمور.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ النبذ طرح الشيء وإلقائه لقلّة الاعتداد به فطرحناهم في بحر القلزم وأخذناه والحال أنّه مستحقّ للملامة أو مليم نفسه.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ عطف على ما تقدّم أي: وفي قوم هود وهم العاديّون آيات إذ أرسلنا على أنفسهم أصالة وعلى دورهم وأموالهم وأنعامهم تبعا الريح العقيم، العقم هزمة يقع في الرحم فلا يقبل التوليد شبّه إهلاكهم وقطع دابرهم بإعقام النساء الّتي لا يلدن ولا يعقبن استعارة تبعيّة، وهو الدبور كما قال ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[2] وهي تجيء من جانب المغرب فإنّ الصبا تجيء من جانب المشرق. وقيل: هي الجنوب مقابل الشمال وتجيء من شمال من يتوجّه إلى المشرق.

﴿مَا تَذَرُ﴾ أي: ما تترك، وأماتوا ماضيه ومصدره واسم فاعله وما نطق بها ﴿مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: جرت على ذلك الشيء ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ مثل الشيء البالي المتفتّت رمّ العظم أي بلى وفتّت قال ابن عبّاس: ما أرسل

١ـ سورة الصافات: ١٤٧.

٢ـ بحار الانوار، ج١١، ص٣٦٣، و مسند احمد، ج١، ص٢٢٣، و مجمع البيان، ج٤، ص٤٧٦، و البخاري، ج٢، ص٢٢.

على عاد من الريح إلّا مثل خاتمي هذا.

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي وفي قوم صالح آيات جعلنا ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا﴾ أي: انتفعوا بالحياة الدنيا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى وقت العذاب وهو آخر ثلاثة أيّام الأربعاء والخميس والجمعة فإنّهم عقروا الناقة يوم الأربعاء وهلكوا بالصيحة يوم السبت وقال لهم صالح: تصبح وجوهكم غدا مصفرّة وبعد غد محمرّة واليوم الثالث مسودّة ثمّ يصبحكم العذاب فكان كذلك ولون جهنّم أسود فعند الهلاك صاروا إلى لون جهنّم.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن الامتثال به وأمر ربّهم على لسان صالح من قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ ولمّا رأوا العلامات الّتي بيّنها صالح من تغيير ألوانهم حسب ما أوعد عمدوا إلى قتله فنجاه اللّه إلى أرض فلسطين وأخذتهم الصاعقة قيل: أتتهم صيحة من السماء فيها صوت صاعقة فتقطّعت قلوبهم وقيل: اهلكوا بالصاعقة حقيقة بأن جاءت نار من السماء فأهلكتهم جميعا ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها لأنّها جاءت معاينة بالنهار وهذا القول أقوى لأنّ الصيحة لا ينظر إليها وإنّما تسمع بالإذن ويمكن الجمع بأنّ معها صيحة جبرئيل.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ وهذا كقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[1] فما قدروا على القيام فضلاً عن الهرب ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ بغيرهم. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح ﴿مِّن قَبْلُ﴾ هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الحدود في الكفر والمعاصي وهو علّة لإهلاكهم.

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾

١ـ سورة الأعراف: ٧٨.

وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ
﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾
أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ
فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ
﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو
ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ
﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

نصب السماء على الاشتغال أي: وبنينا السماء بأيد أي: بقدرة. والقوة هاهنا بمعنى القدرة بسبب قدرتنا لأنّ القوّة عبارة عن شدّة البنية وصلابتها المضادّة للضعف والله منزّه عن ذلك لكنّ القدرة هي الصفة الّتي بها يتمكّن من الفعل وتركه بالإرادة تقول: أيد يايد أيدا أي قوي واشتدّ ولما في البدن من القوّة قيل: يد، وأيّدتك أي قوّيتك وقوّيت يدك ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون بيان لسعة قدرته والمعنى موسعون السماء وجاعلوها واسعة أو موسعون الرزق.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: فرشناها ومهّدناها من تحت الكعبة ليستقرّوا عليها ويتقلّبوا كما يتقلّب أحدهم على فراشه ومهاده قال مكحول الشاميّ: إنّ ما بين أقصى الدنيا إلى أدناها مسيرة خمسمائة سنة مائتان من ذلك في البحر ومائتان ليس يسكنها أحد وثمانون فيها يأجوج ومأجوج وعشرون فيها سائر الخلق لكن هذا القول وأمثاله لا يوجب العلم به ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي: فعلنا ذلك على حسب المصالح النافعة للعباد.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من أجناس الموجودات ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾

صنفين ونوعين مختلفين كالذكر والأنثى والسماء والأرض واللّيل والنهار والصيف والشتاء والإنس والجنّ والأشياء كلّها مركّبة من تركيب يقتضي كونه مصنوعاً وإنّه لا بدّ له من صانع ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فعلنا ذلك كلّه من البناء والخلقة ليعرفوا أنّه خالق الكلّ وأنّه المستحقّ للربوبيّة والخلق مستحقّ للعبوديّة وكلّ شيء في عالم الملك وهو عالم الأجسام له اتّصال بعالم الملكوت وهو عالم الأرواح وقائم به وملكوته قائم بقدرته تعالى.

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ قل يا محمّد لقومك: إذا كان الأمر كذلك وهو الخالق لكلّ شيء فاحذروا عصيانه وفرّوا إليه لتنجوا من عقابه كي تفوزوا بثوابه وحاصل المعنى فرّوا بما سوى اللّه إلى اللّه ومن المعصية إلى الطاعة ومن الجهل إلى العلم ومن العذاب إلى الرحمة ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ﴾ لكم من أمره وجهته منذر ومخوّفكم من عصيانه لا من قبل نفسي.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ كأنّه قيل: وفرّوا من أن تجعلوا معه إلها غيره ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي: من هذا الجعل المنهيّ عنه ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وفي الآية تأكيد لما قبله لأنّ هذا الأمر مورد التأكيد لأنّه لا يغفر أن يشرك به.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: إنّ أمر الّذين من قبلهم من الأمم السالفة بالنسبة إلى رسلهم كذلك مثل تكذيب قريش والمشركين إيّاك ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ في حقّ ذلك الرسول ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ وأنت لا تأس على تكذيب قومك إيّاك فسلّى نبيّه ﷺ.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ إنكار وتعجّب من أمر المكذّبين أي أوصى الأوّلون الآخرين بهذا القول الشفيع حتّى اتّفقوا عليه؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن التواصي واتّفاقهم على هذا الأمر لبعد الزمان وعدم تلاقيهم في وقت واحد وإثبات الطغيان الّذي هو قبيح لأنّ الطغيان شامل لكلّ قبيح وبيان أنّ

نفوسهم متمرّدة عن قبول الخير فما أتاهم رسول إلّا استكبروا وأنكروا أمره. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وأعرض عن جدالهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ على التولّي بعد ما بذلت المجهود وكرّرت لهم البيان والدليل ولست بملوم بسبب العجز عن هدايتهم وقبولهم الكفر.

قال المفسّرون: لمّا نزلت هذه الآية حزن رسول الله والمؤمنون وظنّوا أنّ الوحي قد انقطع وأنّ العذاب قد حلّ حتّى نزلت الآية ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فطابت نفوسهم والمعنى عظ بالقرآن من آمن من قومك فإنّ الذكرى تنفعهم كما قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1]. والمذكّر يكون تذكيره بأمور تسعة: الاول: أن يذكّرهم نعم الله عليهم حتّى يشكروا. والثاني: أن يذكّرهم مثوبات المحن والبلايا حتّى يصبروا. والثالث: يذكّرهم عقوبة المعاصي حتّى يمتنعوا ويتوبوا. الرابع: أن يذكّرهم عداوة الشيطان ومكائده حتّى يحترزوا. الخامس: أن يذكّرهم زوال نعمة الدنيا وفناءها حتّى ينقلعوا عن محبّتها. السادس: أن يذكّرهم الموت حتّى يتداركوا ما فات. السابع: أن يذكّرهم أهوال القيامة ووقوعها وأحوال النار وعقوباتها كي يخافوا ولا يطغوا. الثامن: أن يصف لهم درجات الجنّة ونعيمها كي يرغبوا في الطاعة. التاسع: أن يذكر لهم مقام القهر والعظمة والجلال ومقام الرحمة والإفضال كي يخافوا ويرجوا.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وقرئ بياء المتكلّم في يعبدون ولعلّ تقديم ذكر الجنّ في الآية لتقدّمه على الإنسان في الوجود أي إنّ خلقهم لأجل إظهارهم العبوديّة والذلّة بالأفعال المخصوصة الّتي هي العبادة الوصفيّة حتّى يتخضّعوا لربّهم بالوجه المشروع الوارد لا بجعلهم من عند

١ـ سورة ق: ٣٧.

أنفسهم وهي رحمة منه وتفضّل على عباده بإيصال الخير إليهم بسبب الامتثال ويكفي في تحقّق معنى التعليل هذا الاعتبار في مدلول اللّام وأنّه غنيّ عن عبادة كلّ عابد وإرادة الفاعل لها فليست من مقتضيات اللّام حتّى يلزم من عدم صدور العبادة عن البعض تخلّف المراد عن الإرادة كما في قوله: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1] والخلقة لمعرفته والعبادة كاشفة عن المعرفة.

والأشاعرة أنكروا صحّة توجيه أفعال اللّه معنىً وإن كان واقعاً لفظاً تمسّكا بأنّ اللّه مستغن عن المنافع فلا يكون فعله لمنفعة راجعة إليه ولا إلى غيره لأنّه قادر على إيصال تلك المنفعة من غير توسيط العمل فلا يصلح أن يكون غرضاً فعندهم لام التعليل يكون استعارة تبعيّة تشبيها لعادة العباد.

ولكنّ أكثر الفقهاء من العامّة وجلّ العلماء من الخاصّة والمعتزلة قالوا بصحّة توجيه تعليل أفعال اللّه لمنفعة عائدة إلى عباده تمسّكا بأنّ الفعل الخالي من الغرض عبث والعبث من الحكيم محال وقالوا: إنّ مراد اللّه جائز أن يتخلّف عن إرادته إذا كان من الأفعال الاختياريّة للعباد ومصداق هذا القول هذه الآية بعينها لأنّ وضع اللام في ليعبدون بيان أنّ العبادة هي الغرض من خلق الجنّ والإنس ومعلوم أنّ بعضاً منهم لم يعبدوه فيخلف مراده عن إرادته ولا يلزم من هذا البيان أنّه كان محتاجا لهذا الغرض حتّى ينافي الألوهيّة وهو تعالى مستكمل بذاته قبل القبل في أزل الآزال لكن بروز آثار الأسماء يتحقّق بعد الكونيّة.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي: تعالى شأنه متعاليا عن أن يكون كسائر السادة مع عبيدهم حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم وتهيّة أرزاقهم ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي: يطعموني أي مستغن عن جميع ذلك وما

١ـ سورة ابراهيم: ١.

أريد منهم رزقي بل أتفضّل عليهم برزقهم وفي الآية تعريض بأصنامهم فإنّهم كانوا يحضرون لها المآكل فربّما أكلتها الكلاب والثعالب ثمّ بالت عليها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ وهو من قصر الصفة على الموصوف أي لا رازق إلّا الله ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ على جميع خلقه متين وشديد في القوّة والقوّة يعبّر بها عن القدرة والمتنان مكتنفا الصلب. قال أهل التحقيق: اعتبروا باللبيب الطالب للأرزاق وحرمانه وبالطفل العاجز وتواتر الأرزاق عليه لتعلموا أنّ الرزق طالب وليس بمطلوب، قيل: من خاصيّة اسم الرزّاق لسعة الرزق أن يقرأ قبل صلاة الفجر في كلّ ناحية من نواحي البيت عشرا يبدأ باليمين من ناحية القبلة قال السهرورديّ المداوم عليه يقضي حاجته من الملوك وولاة الأمر فإذا أراد ذلك وقف مقابلة المطلوب وقرأه سبع عشر مرّة ومن تلاه عشرين يوما على الريق رزق ذهنا جيّدا.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب رسول الله ووضعوا مكان التصديق تكذيباً وهم أهل مكّة ﴿ذَنُوبًا﴾ أي: نصيباً وافراً من العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ﴾ أي: مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحكيّة وهذا المعنى مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب وهو الدلو العظيم قال: لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أصله بياء المتكلّم أي: لا يطلبوا منّي أن أعجل في المجيء بالعذاب لأنّ له أجلاً معلوماً نازل بهم في وقته المحتوم وهو جواب لقولهم: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وكان المستعجل النضر بن الحارث وأصحابه فأمهل إلى يوم بدر ثمّ قتل في ذلك اليوم.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ والويل أشدّ من العذاب والشقاء وواد في جهنّم ووضع الموصول موضع ضميرهم إشعاراً بعلّة الحكم وهو الكفر ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ وقيل: المراد من يوم يوعدونه يوم بدر وقيل: يوم القيامة وهو الأصحّ.

تمّت السورة بحمد الله.

سورة الطور

مكية. عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرء الطور في المغرب. روى محمّد بن هشام عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من قرأ سورة الطور جمع الله له خير الدنيا والآخرة»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ
الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ
تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ
فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم
بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا
تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾

﴿وَالطُّورِ﴾ الواو للقسم، والطور الجبل بالسريانيّة. قال ابن عبّاس: الطود كلّ جبل ينبت. قال الشاعر:

لو مرّ بالطور بعض ناعقة ... ما أنبت الطور فوقه ورقه

1ـ وسائل الشيعة، ج٤، ص٨٩٢، و جوامع الجامع، ج٣، ص٤٣٧، و مجمع البيان، ج٩، ص ٢٧٠، وتفسير الصافي، ج٥، ص٨٣.

وقيل: هو جبل محيط بالأرض، الأظهر الأشهر هو جبل مخصوص وهو طور سنين يعني: الجبل المبارك وهو جبل واقع بمدين سمع موسى عليه السلام فيه كلام اللّه ومحلّ قدم الأحباب وقت سماع الخطاب أو بين الشام ومدين بالقرب من أيلة كان إذا جاء موسى للمناجاة ينزل عليه غمام فيدخل في الغمام ويتكلّم وهو الجبل الّذي دكّ عند التجلّي وهناك خرّ موسى صعقا وهذا الجبل قيل: إذا كسرت حجارته يخرج من وسطها شجر العوسج ويعظّم اليهود شجرة العوسج لهذا السبب.

﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ مكتوب على وجه الانتظام فإنّ السطر ترتيب الحروف المكتوبة والمراد به القرآن وقيل: هو الكتاب الّذي كتبه اللّه لملائكته في السماء يقرءون فيه ما كان وما يكون وآخر سطر في اللوح المحفوظ: «سبقت رحمتي غضبي من أتاني بشهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله وأنّ عليّاً وليّ الله ادخله الجنّة». وقيل: هو صحائف الأعمال الّتي يخرج الى بني آدم يوم القيامة لقوله: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[1] وقيل: هو التوراة كتبه اللّه لموسى وهو مناسب بالطور.

﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ الرقّ الجلد الّذي يكتب فيه، شبه كاغذ استعير لما يكتب فيه الكتابة من الصحيفة وهو ضدّ الغليظ والمنشور خلاف المطويّ نشر الثوب والصحيفة أي بسطها والتنكير للتفخيم.

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ قيل: هو الكعبة البيت الحرام معمور بالحاجّ والمعتمرين وقيل: هو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة تعمره الملائكة. قال أمير المؤمنين: «يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ثمّ لا يعودون إليه أبدا». وروي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «البيت المعمور في السماء الرابعة فيه نهر يقال له الحيوان يدخل

ـــــــــــــــ
١ـ سورة الإسراء: ١٣.

فيه جبرئيل كلّ يوم وإذا خرج انتفض منه انتفاضة جرت منه سبعون ألف قطرة يخلق الله من كلّ قطرة ملكا يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور فيصلّون ثمّ لا يعودون أبدا وحرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض»[١]. وقيل: في السماء السابعة، وسمّي بالضراح ـ بضمّ الضاد المعجمة ـ من التنحية والإبعاد أي رفع وأبعد. ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ عن الأرض مقدار خمسمائة عام.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أي: المملوء، وقيل: هو الموقد المحمى بمنزلة التنوّر وتحمى البحار يوم القيامة فتجعل نيراناً يفجر بعضها في بعض ثمّ يفجر إلى النار ورد به الحديث، وعلى كون المراد من المسجور هو البحر المحيط الأعظم الّذي منه مادّة البحار وهو بحر لا يعرف له ساحل والبحار الّتي على وجه الأرض خلجان منه وفي هذا البحر عرش إبليس وفيه مدائن يطفو على وجه الأرض وهي أهلة من الجنّ وفيه قصور تظهر على وجه الماء ثمّ تغيب وتظهر وفيه من الجزائر المسكونة والخالية ما لا يعلمه إلّا الله، قال أمير المؤمنين عليه السلام[٢]: «هو بحر تحت العرش عمقه كما بين سبع سماوات إلى سبع أرضين فيه ماء غليظ يقال له بحر الحيوان يمطر منه على الموتى ماء كالمنيّ بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً فيبيتون في قبورهم».

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ لنازل بهم حتما والمراد عذاب الآخرة للكفّار هو جواب القسم ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ يدفعه والفرق بين الدفع والرفع أنّ الدفع يستعمل قبل الوقوع والرفع يستعمل بعد الوقوع ومعلوم أنّ كلّ معصية وفعل قبيح ووصف ذميم فهو عذاب حكميّ ونار معنويّ والعذاب الصوريّ أثر ذلك وليس من خارج عن الإنسان أمّا في الدنيا فلأن التلبّس بسبب الشيء تلبّس بالشيء.

١ـ بحار الانوار، ج٥٥، ص٥٥، و مجمع البيان، ج٩، ص٢٧٢، و تفسير الصافي، ج٥، ص٧٧.

٢ـ عمدةالقاري، ج١٩، ص١٩٣، و تفسير الثعلبي، ج٩، ص١٢٥، و تفسيرالغوي، ج٤، ص٢٣٧.

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ يوم ظرف لواقع، بيان لوقوع العذاب الأكبر في ذلك اليوم والمور الاضطراب قيل: تدور السماء كما تدور الرحى وتنكفئ بأهلها كما تنكفئ السفينة وقيل: يختلج أجزاؤها بعضها في بعض ويموج أهلها بعضهم في بعض ويختلطون وهم الملائكة وذلك من الخوف ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ وتزول من أماكنها حتّى تستوي الأرض، وتسير الجبال كما تسير السحاب ثمّ تنشّ أثناء السير حتّى تصير آخره كالعهن المنفوش لهول ذلك اليوم وتأكيد الفعلين بمصدر لهما للإيذان بغرابتها بحيث لا يدرك كنه غرابتها.

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ والفاء فصيحة أو بمعنى المجازاة والتقدير إذا وقع ذلك الأمر فويل لمن كذّب بآيات اللّه ورسله وكذّب بالبعث وهو لا ينافي تعذيب غير المكذّبين من أهل الكبائر لأنّ الويل والعذاب الشديد إنّما هو للمكذّبين باللّه ورسوله ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ خائضين في الدنيا بالتكذيب والاستهزاء والأباطيل من الأقوال والأفعال شبّه التخبّط بالباطل بخوض الماء وغوصه.

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ الدعّ الدفع الشديد أي: يدفعون إليها ذلك اليوم دفعا عنيفاً بأن تغلّ أيديهم إلى أعناقهم ويجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار دفعا على وجوههم وفي أقفيتهم حتّى يردوها.

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ﴾ يقال: لهم والقائل خزنة النار قبل الورود هذه النار ﴿ٱلَّتِى كُنتُم ﴾ في الدنيا ﴿بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ ﴾ تقريع لهم حيث كانوا يسمّونه سحراً وكنتم تقولون

للقرآن النّاطق بهذا الخبر سحر فهذا الأمر سحر أيضاً؛ والفاء سببيّة لا عاطفة لئلّا يلزم عطف الإنشاء على الإخبار ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي: أترون هذا العذاب أم لا ترون.

ثمّ يقال لهم: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ وقاسوا حرّها وشدائدها ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ لا خلاص لكم منها ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ خبر مبتدء محذوف دلّ عليه فاصبروا أولا تصبروا أي الأمر سواء عليكم في الصبر وعدمه ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تعليل للاستواء حيث إنّ الجزاء على كفرهم واجب الوقوع حتما والغفلة عن خالق البريّات والشرك به توقد نار الحسرات.

وفي الآية إشارة إلى التحذير ومراتب الخوف كما أنّ الآية الّتي تليها إشارة إلى مرتبة الرجاء فإنّ الأمن والقنوط كلاهما ممنوع بل كفر فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ عن الكفر والمعاصي ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ﴾ النعيم الخفض والدعة والترفه والاسم النعمة بفتح النون والنعيم النعم الكثيرة أي إنّهم في لين عيش من الملبوس والمأكول، وأيّة جنّات وأيّة نعيم كاملة الصفات؟

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾

إن المتقين في الجنّة ﴿فَٰكِهِينَ﴾ متلذّذين من النعم ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ من الكرامة ﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ صانهم الله عن عذاب النار والجحمة شدّة تأجّج النار ومنه الجحيم ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ أي يقال لهم من قبل

خزنة الجنّة دائما: كلوا واشربوا ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ صفة لمصدر محذوف أي طعاما وشرابا هنيئا وترك الذكر لبيان تنوّعهما وكثرتهما والهنيء والمريء صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغا لا يورث الكور والكسل ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فبيّن أنّ رتب الجنّة بحسب الأعمال لكن يمكن دخولها برحمة الله.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من ضمير كلوا واشربوا أي: معتمدين ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع السرير ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي: مصطفّة بعضها إلى جنب بعض أو المعنى مزيّنة بالذهب والفضّة والجواهر قال الكلبي: صفّ بعضها إلى بعض طولها مائة ذراع يتقابلون عليها في الزيارة وإذا أراد أحدهم القعود عليها اتّضعت وتطأطأت فإذا قعد عليها ارتفعت إلى أصل حالها. ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ واحد الحور حوراء وواحد العين عيناء وإنّما سمّين حوراء لأنّ الطرف يحار في حسنهنّ وعيناء لأنهنّ الواسعات الأعين أو الحور كيفيّة في العين مثل أن يكون البياض في غاية البياض وسواد العين في غاية السواد والباء للسببيّة أي الإلصاق والاتّصال وقع بسبب الحور فالتزويج حينئذ ليس على معنى العقد والنكاح فحينئذ تعدّى بالباء وإلّا فعل التزويج ممّا يتعدّى إلى مفعولين بلا واسطة كقوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾[1] وحاصل المعنى وقرنّاهم بهنّ، وفي الواقعات المحموديّة مذكور أنّ لأهل الجنّة بيوت ضيافة يعملون فيها الضيافة للأحباب يتنعّمون ولكنّ أهليهم لا يظهرن لغير المحارم وعدم ظهورهنّ لا من حيث الحرمة لأنّ الحلّ والحرمة من توابع التكليف ولا تكليف في الجنّة لكن لأجل تكميل اللذّة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مبتدء وخبره ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ أي: نسلهم ﴿بِإِيمَـٰنٍ﴾ متعلّق بالاتّباع والمعنى: واتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمان في الجملة

١ـ سورة الأحزاب: ٣٧.

وفي الآية إيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل إصالة لا إلحاقا ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أولادهم الصغار في الدرجة قال النبي صلى الله عليه وآله[1]: إنّ اللّه تعالى يرفع ذرّيّة المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقرّ عينهم بهم ويكمل سرورهم». ثمّ تلا هذه الآية فحينئذ يحكم بإيمان الولد الصغير تبعاً لأحد أبويه فإنّه تعالى لمّا جعلهم تابعين لآبائهم ولاحقين بهم في أحكام الآخرة فينبغي أن يكونوا لاحقين بهم في أحكام الدينا أيضاً.

﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم﴾ أي ما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق من باب ألت يألت كضرب يضرب ﴿مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي لم ننقص الآباء من الثواب حين ألحقناهم ذرّيّاتهم وفي أطفال المشركين وأهل الفترة والمجانين أقوال كثيرة. قيل: يرسل إليهم يوم القيامة رسول من جنسهم ويدعون إلى الإيمان ويمتحن المؤمن منهم بإيقاع نفسه في النار هناك فمن قبل الدعوة ولم يمتنع عن الإيقاع في النار خلص وإلّا دخل جهنّم وقيل في أطفال الكافرين يكونون خدّام أهل الجنّة وقيل يلحقون بآبائهم في النار تبعاً لآبائهم وهذا القول بعيد جدّا وقال آخرون: إنّهم في الجنّة لكونهم غير مكلّفين وتوقّف طائفة فيه.

﴿كُلُّ امْرِئٍ﴾ عاقل ﴿بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ فهو بمكتسباته مرهون والرهن ما يوضع وثيقة للدين أي كلّ إنسان مرهون عند اللّه بالعمل الصالح والإيمان اللّذين هما دين عليه فإن عمل به وأدّاه فكّ رقبته من الرهن وإلّا أهلكها قال النبي صلى الله عليه وآله لكعب بن عجزة: «**لا يدخل الجنّة لحم نبت من السحت، يا كعب الناس صنفان، فمبتاع نفسه فمعتقها وبايع نفسه فموبقها**»[2].

١ـ تفسير الثعلبي، ج٩، ص١٢٨، و انظر: تفسير الصافي، ج٥، ص٧٩، و المستدرك، ج٢، ص٤٦٨، و الكشاف، ج٤، ص٢٤.

٢ـ مسنداحمد، ج٣، ص٣٢١، و المجازات النبويه، ص١٠٩، و المستدرك، ج٤، ص٤٢٢، و انظر: صحيح ابن حيان، ج٥، ص٩.

﴿وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ والإمداد الإتيان بالشيء وبعد الشيء أي أعطيناهم حالا فحالا من جنس الثمار ومن اللّحم من الجنس الّذي يشتهونه.

﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ يتعاطفون كأس الخمر والمراد التداول على طريق التجاذب تجاذب الملاعبة لفرط السرور والمحبّة وفي هذه الكيفيّة نوع لذّة ولا يكون التنازع في الآية بمعنى التخاصم إذ لا خصومة في الجنّة بل يعطون الكؤوس ويأخذونها بعضهم بعضاً والكأس لا تسمّى كأسا إلّا إذا كان فيه شراب كما لا تسمّى مائدة ما لم يكن عليها طعام فمعنى كأساً أي خمراً تسمية لها باسم محلّها.

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ والكأس مهموزة مؤنّثة أي لا لغو في شربها ولا يتكلّمون في أثناء الشرب بلغو الحديث واللّغو سقط الكلام وما لا يعتدّ به ويرد لا عن رويّة وفكر فيجري مجرى اللّغاء وهو في الأصل صوت العصافير ونحوها من الطيور ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: ولا يفعلون ما يأثم به فاعله وينسب الإثم من الكذب والسبّ والفواحش كما هو ديدن المنادمين في الدنيا ولا يؤول حالهم في الشرب إلى ما يؤول حال أهل الدنيا.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ الطواف المشي حول الشيء أي ويدور على أهل الجنّة بالكأس ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ جمع غلام وهو الطار الشارب أي مماليك مخصوصون بهم ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ كالدرّ المصون المخزون في الصفاء والبياض والحسن والصباحة ومع ذلك للغلمان في خدمتهم حصول اللّذّة والسرور. قيل للنبيّ: يا رسول اللّه إذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف بالمخدوم؟ فقال ﷺ: «والّذي نفسي بيده إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمرليلة البدر على سائر الكواكب»[1]. وعنه ﷺ: «إنّ أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من

١ـ بحار الانوار، ج٨، ص١٠٢، و مجمع البيان، ج٩، ص٢٧٧، و تفسير جوامع الجامع، ج٣، ص٤٢٢.

خدّامه فيجيبه ألف خادم ببابه لبيك لبيك»[١].

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: يسأل بعض أهل الجنّة بعضاً آخر عن أحواله وأعماله على ما هو عادة أهل المجلس يشرعون في التحادث للانس وكلّهم سائلون ومسؤولون ﴿قَالُوا﴾ أي: السائلون ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي: قبل دخول الجنّة ﴿فِي أَهْلِنَا﴾ في الدنيا ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين من عصيان الله وجلين من العاقبة والمراد من الأهل الأزواج والأولاد والعبيد والإماء والأصحاب ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ وأنعم بالرحمة ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ وحفظنا من عذاب النار النافذة في المسامّ وثقب الجسد مثل المنخر والفم والاذن نفوذ الريح الحارّة الّتي تؤثّر تأثير ألم والإشفاق أرقّ من الخوف والخوف أصلب والشفقة نقيض الغلظة وأصله الضعف من قولهم ثوب شفيق أي رقيق النسج ومنه الشفق للحمرة عند غروب الشمس لأنّها حمرة ضعيفة.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ المصير إلى الله يعنون في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي نعبده ونسأله الوقاية ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ أي: المحسن ﴿الرَّحِيمُ﴾ كثير الرحمة والبرّ خلاف البحر وفي البرّ التوسّع فاشتقّ منه البرّ أي المتوسّع في فعل الخير وبرّ الوالدين التوسّع في الإحسان إليهما.

قال علماء الأخلاق: لا يكون الفقير فقيراً حتّى يكون فيه خصلتان أحدهما: الثقة بالله والثانية: الشكر له فيما زوي عنه من الدنيا ممّا ابتلي به غيره ولا يكمل الفقير حتّى يكون نظره من الله له في المنع أفضل من نظره له في العطاء وعلامة صدقه في ذلك أن يجد للمنع من الحلاوة ما لا يجد للعطاء.

فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ

١ـ تفسير الثعلبي، ج٩، ص١٢٩، و الكشاف، ج٤، شرح ص٢٥، و تفسير الآلوسي، ج٢٧، ص٣٤، تفسير القرطبي، ج١٧، ص٦٩، و تفسير النسفي، ج٤، ص٢٥.

نَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمۡ
تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ
﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ
أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾
أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ
فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا
فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٣﴾

ثمّ خاطب نبيّه فقال: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ ولمّا بيّن سبحانه أنّ في الوجود قوما يخافون الله فأمر نبيّه بالتذكير وفرّع بقوله: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ واثبت على ما أنت عليه من العظمة بما أنزل إليك من الآيات ولا تكترث بما يقولون من الأباطيل.

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾ (نعمت) رسمت بالتاء ووقف عليها بالهاء، أي لست بسبب إنعامه عليك بالنبوّة وزيادة العقل ﴿بِكَاهِنٖ﴾ والكاهن من يبتدع القول ويخبر عمّا سيكون في غير وحي وقيل: الكاهن الّذي يخبر بالأخبار الماضية الخفيّة بضرب من الظنّ كالعرّاف الّذي يخبر عن الأخبار المستقبلة على نحو ذلك ولكون هاتين الصناعتين مبنيّتين على الظنّ الّذي يخطئ ويصيب قال ﷺ: **«من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدّقه بما قال فقد كفر بما أنزل الله على محمّد لأنّ الغيب لا يعلمه إلّا الله»**[1].

ويجوز أن يكون الباء في قوله: ﴿بِنِعۡمَةِ﴾ للقسم فأقسم سبحانه أنّه ﷺ

١ـ بحار الانوار، ج٨٩، ص١٥٢، وكنزالعمال، ج٦، ص٧٤٩، وانظر: عمدةالقاري، ج١٤، ص٦٣، ومسند ابن الجعد، ص٧٧.

ليس بكاهن كما يقولون ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ والجنون زوال العقل وستره وفساده ويحصل بحصول الحائل بين النفس والعقل وهو إذا حصل دائما أو في أكثر أوقات السنة فمطبق وإلّا فدوريّ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ «أم» المكسورة في هذه الآيات منقطعة بمعنى بل لكنّ الخليل قال: ما في سورة الطور من ذكر أم كلمة استفهام وليست بعطف يعني ليست بمنقطعة للتوبيخ ﴿شَاعِرٌ﴾ أي هو شاعر قال المرزوقيّ شارح الحماسة: تأخّر الشعراء عن البلغاء لأنّ ملوكهم قبل الإسلام وبعده ينجّحون بالخطابة ويعدّونها أكمل أسباب الرياسة ويعدّون الشعر دناءة لأنّ الشعر كان مكسبة وتجارة وفيه وصف اللّئيم عند الطمع بصفة الكريم والكريم عند تأخّر صلته بوصف اللّئيم.

وممّا يدلّ على شرف النثر أنّ الإعجاز وقع في النثر دون النظم لأنّ زمن النبيّ ﷺ زمن الفصاحة فلهذا السبب نسبوا الشعر إليه ﷺ وظنّوا أنّه كان يرجو الأجر على التبليغ ولذا قال الله تعالى:[1] ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ وقال:[2] ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾ وقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ من باب الترقّي لأنّ الشاعر أدخل في الكذب من الكاهن وقد قيل: أحسنه أكذبه وكانوا يقولون: لا نعارضه مخافة أن يغلبنا بقوّة كلامه وإنّا نصبر ونتربّص موته وهلكه وحينئذ يتفرّق أصحابه.

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ والمراد بالريب الحوادث الّتي يترقّب ضد مجيء الموت أو حوادث الدهر فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء.

ثمّ قال سبحانه: ﴿قُلۡ﴾ يا محمّد: انتظروا حوادث الدهر و﴿تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي

١ـ سورة الأنعام: ٩٠.

٢ـ سورة يس: ٦٩.

مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ المنتظرين وتربّص الكفّار بالنبيّ قبيح وتربّص النبيّ والمؤمنين بالكفّار حسن والكلام وإن كان بصورة الأمر ولكن معناه التهديد.

﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم﴾ الحلم ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب والحكم وإن كان في الحقيقة ليس هو العقل لكن من مسبّبات العقل ولذا فسّر بالعقل قال المفسّرون: كانت عظماء قريش توصف بالأحلام والعقول فأزرى الله بعقولهم فقال: بل أتأمرهم عقولهم بما يقولونه لك هذه الأقوال السخيفة ولم تثمر عقولهم بأن غيّروا الحقّ عن الباطل. ثمّ أخبر عن طغيانهم فقال: ﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ وقرئ بل هم قوم طاغون يتجاوزون الحدود في المكابرة والعناد.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ هو ترقّ إلى ما هو أبلغ في القبح والإنكار وهو أن نسبوه إلى اختلاق القرآن من تلقاء نفسه وليس الأمر كما زعموا ﴿بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ البتّة لعنادهم فإن كان الأمر كما زعموا ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ ويأتوا بكلام مثل القرآن وإذا قرئ بحديث منوّناً فالضمير في ﴿مِّثۡلِهِۦٓ﴾ راجع إلى القرآن وإذا قرئ على طريق الإضافة فيكون الضمير راجعاً إلى النبيّ ﴿إِن كَانُواْ﴾ فيما يزعمون ﴿صَٰدِقِينَ﴾ فإنّ صدقهم في قولهم يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله لمشاركتهم له ﷺ في العربيّة والبشريّة والفصاحة مع طول الممارسة لهم للخطب والأشعار وقدرتهم على أساليب النظم والنثر وحفظ الوقائع والأيّام ولهم مع ذلك دواع في الإتيان وقد عجزوا ولم يأتوا بمثله ولا بمثل بعضه لأنّ القرآن معجز من حيث معناه وأحكامه وتكاليفه بحيث أن لو اجتمع عقلاء الدنيا بأن يقنّنوا قانوناً في العالم لنظام العالم أكمل وأتمّ من القرآن لا يقدرون ومثله أيضاً لا يقدرون وكذلك معجز من حيث اللّفظ لأنّ القرآن متميّز من خطبة البلغاء ببلوغه حدّ الكمال من إنجاز اللّفظ والتنبيه

الغريب والاستعارة البديعيّة وتلاؤم الحروف والكلمات وفواصل الآيات وتجانس الألفاظ وتعريف القصص والأحوال وتضمين الحكم والأسرار وحسن البيان في الطلب وتمهيد المصالح والأسباب والأخبار عمّا كان وما يكون مع أنّ مادّته ألفاظ العرب وألفاظه ألفاظهم وإنّه منظّم من ما ينظّمون به كلامهم وقد أعجزهم القرآن لفظا ومعنى.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي: أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير محدث وقيل: المعنى أم خلقوا من أجل لا شيء من عبادة وجزاء فحينئذ «من» للسببيّة ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله ولا يطيعونه.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا سئلوا من خلقكم وخلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله، وهم غير موقنين بما قالوا وإلّا لما أعرضوا وأشركوا بعبادته.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ جمع خزانة بالكسر وهو محرز المال أي أعندهم خزائن رزقه ورحمته حتّى يرزقوا من شاءوا ويمسكوها عن من شاءوا حتّى يختاروا لها من اقتضت الحكمة اختياره للنبوّة. ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ الغالبون على الأمور ويدبّروا أمر الربوبيّة ومسلّطون على الناس فيجبرونهم على ما شاءوا مأخوذ من السطر كأنّه يخطّ للمسلّط عليه خطًا لا يجاوزه.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوب إلى السماء والسلّم اسم لما يتوصّل به إلى كلّ شيء رفيع ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ فيمن يستمعون معنى الصعود، و﴿فِيهِ﴾ متعلّق بمحذوف هو حال من فاعل يستمعون وتقدير الكلام يستمعون صاعدين في ذلك السلّم ومفعول يستمعون محذوف أي إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتّى يكونوا واثقين بقولهم أو في بمعنى على كقوله: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ وهو أمر تعجيز أي فليأتوا ما سمعوا

﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجّة واضحة تدلّ على صدق قولهم.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ في الكلام إنكار عليهم حيث جعلوا ما يكرهون للّه وتركيك لعقولهم واختيارهم وذلك أنّ من جعل خالقه أدون حالا منه بأن جعل له ما لا يرضى لنفسه كما قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[1] ومن كان في عنوان هذه الخرافات لم يستبعد منه هذه الحماقات.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ رجوع إلى خطابهﷺ وإعراضاً عنهم أي أتسألهم أجراً على تبليغ الرسالة ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ فهم لأجل إلزام الغرامة يحملون الثقل وفي الكشّاف الغرم أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه من غير جناية منه أو ما يلزم أدائه وكذلك المغرم والغريم من عليه الدين.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: اللّوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه حتّى يتكلّموا في ذلك بنفي أو إثبات في أمر القيامة وغيرها.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يكتفون بهذه المقالات الفاسدة بل يريدون مع ذلك أن يكيدوا بك كيداً وهو كيدهم في دار الندوة وقد مرّ بيانه من القتل والحبس والإخراج في حقّهﷺ والكيد هو الأمر الّذي يسوء من نزل به أو ضرب من الاحتيال وإرادة مضرّة الغير خفية وهو من الخلق الحيلة السيّئة، ومن اللّه التدبير بالحقّ لمجازاة أعمال الخلق قال بعض المفسّرين مثل السدّي: المعنى أنّ هذا البيان من الأخبار بالغيب فإنّ السورة مكّيّة وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي: هم الّذين يحيق بهم كيدهم ويعود إليهم وبال كيدهم لا من أرادوا أن يكيدوه فإنّهﷺ الغالب عليهم حجّة

١ـ سورة النحل: ٥٨.

وسيفاً والمراد ما أصابهم يوم بدر. ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يغنيهم ويحرسهم من عذابه ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزّه نفسه تعالى عمّا ينسبون إليه من الشرك.

وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

﴿وَإِن يَرَوْا﴾ قطعة من العذاب أو من السماء أي إن عذّبناهم بسقوط بعض من السماء عليهم لأن ينتهوا عن كفرهم قالوا: هو قطعة من السحاب من فرط طغيانهم وعنادهم والكفّ هو التغطية كالكسوف والمركوم المتراكم الغليظ أي سحاب هذا تراكم والقي بعضها على بعض ولم يصدّقوا أنّه كسف ساقط للعذاب وحاصل المعنى مثل قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ حتّى شاهدوا بالعين لقالوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ فالمعنى ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا محمّد ودعهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ إلى أن يعاينوا اليوم الّذي فيه يهلكون وقرئ مجهولاً من صعقته الصاعقة ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ من العذاب بأن يتمكّنوا من ردّ العذاب عن أنفسهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بغيرهم في دفع العذاب عنهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي لهؤلاء الظلمة من الكفّار مثل أبي جهل وأصحابه ﴿عَذَابًا﴾ آخر ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي دون عذاب الآخرة والمراد يوم بدر من القتل والأسر وقيل: يريد عذاب القبر وقيل: المراد الجوع والقحط سبع سنين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لفرط جهلهم وعنادهم وعلى العاقل أن يعتقد ويتعلّم علم الآخرة وهو من العلوم الضروريّة الواجبة قال بعض المحقّقين:

العلم علمان: علم تحتاج منه مثل ما يحتاج من القوت فينبغي الاقتصار على قدر الحاجة منه وهو علم الأحكام فينبغي النظر فيه بقدر ما تمسّ الحاجة إليه في الوقت فإنّ تعلّق تلك العلوم إنّما هو بالأحوال الواقعة في الدنيا للعمل حتّى يكون على بصيرة فقط لا غير وعلم ليس له حدّ يوقف عليه وهو العلم المتعلّق بمعرفة اللّه ومواطن القيامة إذ العلم بمواطنها يؤدّي العالم بها إلى الاستعداد لكلّ موطن بما يليق به لأنّ اللّه هو المطالب في ذلك اليوم وهو يوم الفصل فينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة من أمره معدّاً للجواب عن نفسه وعن غيره في المواطن الّتي يعلم أنّه يطالب بالجواب.

ومن المواطن القبر فإنّ اللّه يحيي العبد المكلّف في قبره ويردّ الحياة إليه ويجعله من العقل في مثل الحال الّذي عاش عليه ليعقل ما يسأل عنه وما يجيب به وقد سئل صلى الله عليه وآله لمّا أخبر بفتنة الميّت في قبره وسؤال منكر ونكير وهما الملكان: (قيل: إنّ السائل كان عمر) أيرجع عليّ عقلي؟ قال صلى الله عليه وآله: «نعم». وأنكره الملحدة ومن تمذهب من الإسلاميّين بمذهب الفلاسفة عذاب القبر لكنّهم بمعزل عن الدين القويم والمداد أعزّ من أن يصرفه الإنسان في الاستمداد ببيان سواد وجوههم وقباحة مذهبهم والأحاديث من رواة العامّة والخاصّة في بيان عذاب القبر وضغطته أكثر من أن تحصى وكان صلى الله عليه وآله يدعو ويقول: **«اللّهم إنّي أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجّال»**[1] وينجي المؤمن من عذاب القبر وأهواله خمسة أشياء: الأوّل: الرباط في سبيل اللّه ولو يوماً وليلة و، الثاني: الشهادة بأن يقتل في سبيل اللّه، والثالث: قراءة سورة الملك فإنّ من قرأها كلّ ليلة لم يضرّه الفتّان، والرابع: الموت مبطوناً فإنّه لا يعذّب في قبره، والخامس:

١ـ انظر: إقبال الأعمال، ج٢، ص٢١٩، و بحار الانوار، ج٨٨، ص٧٥.

الوقت، ففي الحديث: «من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة».

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود وحكم ربّك الّذي حكم به وألزمك التسليم له إلى أن يقع عليهم العذاب الّذي حكمنا عليهم ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منّا وخبر استناد جمع العين للإيذان بغاية الاعتناء في الحفظ وبكثرة أسباب الحفظ وتأمّل بين الحبيب ودرجة الكليم حيث أفرد فيه العين وقال ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ وعناية عين الله تعالى على محمّد مستمرّة لا ينقطع لا في حياته ولو أنّ موته عين الحياة كما روي أنّه ينزل على قبر محمّدﷺ كلّ صباح سبعون ألف ملك يضربون أجنحتهم عليه ويحفظونه إلى المساء ثمّ ينزل سبعون ألفا غيرهم فيفعلون به ما فعل الأوّلون وهكذا إلى يوم القيامة. روي عن رسول اللهﷺ أنّ من قال: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثلاث مرّات وقرأ ثلاث آيات آخر سورة الحشر ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلى آخر السورة حين يصبح وكلّ الله به سبعين ألف ملك يحرسونه وكذلك إذا قرأها حين يمسي وكلّ الله به سبعين ألف ملك يحرسه».[1]

﴿وَسَبِّحۡ﴾ أي: نزّهه تعالى عمّا لا يليق به حال كونك متلبّسا ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ على نعمائه ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أيّ مقام قمت. قال سعيد بن جبير: أي قل حين تقوم من مجلسك: سبحانك اللّهم وبحمدك أي سبّح الله متلبّسا بحمده فإن كان ذلك المجلس خيرا ازددت إحساناً وإن كان غير ذلك كان كفّارة له. قال رسول اللهﷺ: «من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه ـ بالغين المعجمة والطاء المهملة وهو كلام الرديء واختلاط أصوات الكلام حتّى لا يفهم ـ فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك

ــــــــــــ

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص ٤٤٠، و نور الثقلين، ص٢٩٣.

وأتوب إليك كان كفّارة له ما لم يعلّق بحق آدميّ كالغيبة»[1]. وكان رسول الله إذا قام لصلاة الليل كبّر عشراً وحمد الله عشرا وسبّح الله عشرا وهلّل عشرا واستغفر عشرا ويتعوّذ من ضيق المقام يوم القيامة.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ يعني صلاة الليل روى زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم عن الباقر والصادق عليهما السلام في هذه الآية قالا: **«إنّ رسول الله كان يقوم من الليل ثلاث مرّات فينظر في آفاق السماء ويقرء الخمس من آل عمران الّتي آخرها ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ ثمّ يفتح صلاة الليل»**. الخبر. وقيل: معناه صلّ المغرب والعشاء الآخرة ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ بكسر الهمزة مصدر أدبر يعني: الركعتين قبل صلاة الفجر عن ابن عبّاس وقتادة وهو المرويّ عن الصادقين والرضا عليهم السلام[2]. وذلك حين تدبر النجوم أي تغيب بضوء الصبح وقيل: يعني: صلاة الفجر المفروضة وقيل: إنّ المعنى لا تغفل عن ذكر ربّك صباحاً ومساء ونزّهه في جميع أحوالك ليلا ونهارا فإنّه لا يغفل عنك.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ إشارة إلى أنه أشقّ على النفس وأثوب وأبعد عن الرياء كما يلوح به تقديمه على الفعل والليل زمان المعراج والصلاة معراج المؤمن فمن أراد أن يتأسّى في الجملة برسول الله فليصلّ بالليل والناس نيام ولشرف ذلك الوقت كان معراجه صلى الله عليه وآله فيه لأقرب الصباح لأنّ في قربه قد يستيقظ بعض النفوس للحاجات وفي ختم هذه السورة بالنجوم وافتتاح الآتية بالنجم أيضاً من حسن الانتهاء والابتداء.

تمّت بعون الله.

۱ـ انظر: سنن الترمذي، ج۵، ص۱۵۸، و كنز العمال، ج۹، ص۱٤۲، و تفسير البغوي، ج٤، ص۲٤۳.

۲ـ مجمع البيان، ج۹، ص۲۸۳، و تفسير الصافي، ج۵، ص۸۳، و بحار الانوار، ج۷۹، ص۳۲۹، و نور الثقلين، ج۵، ص۱٤۳.

سُورَةُ النَّجْمِ

مكّيّة غير آية منها فإنّها نزلت بالمدينة. ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الآية، عدد آيها اثنتان وستّون آية.

فضلها: عن أبيّ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة والنجم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بمحمّد ومن جحد به»[1].

وعن الصادق عليه السلام قال: «من كان يد من قراءة والنجم في كلّ يوم أو في كلّ ليلة عاش محموداً بين الناس»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ
﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾
وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾
فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾

قال صاحب تفسير «روح البيان»: إنّها أوّل سورة جهر بها رسول الله

١ـ تخريب الأحاديث والآثار، ج٣، ص٣٨٦، و نور الثقلين، ج٥، ص١٤٤، و تفسيرجوامع الجامع، ج٣، ص٤٤٧.

٢ـ ثواب الأعمال، ص١١٦، و وسائل الشيعة، ج٤، ص٨٩٢، و بحار الانوار، ج٨٤، ص٣، و مجمع البيان، ج٩، ص٢٨٤.

وجهر بقراءتها في الحرم والمشركون يستمعون نزلت في شهر رمضان من السنة الخامسة من النبوّة ولمّا بلغ صلى الله عليه وآله السجدة سجد معه المؤمنون والمشركون والجنّ غير أبي لهب في رواية أنّه رفع من التراب حفنة إلى جبهته وقال: يكفيني هذا، وفي رواية كان ذلك الوليد بن المغيرة فإنّه رفع تراباً إلى جبهته فسجد عليه لأنّه كان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود وإنّما سجد المشركون.

قال الشيخ إسماعيل الحقّي صاحب تفسير «روح البيان»: لأنّه صلى الله عليه وآله لمّا بلغ إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ ألحق الشيطان به قوله: تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى فسمعه المشركون وظنّوا أنّه من القرآن فسجدوا لتعظيم آلهتهم ومن ثمّ عجب المسلمون من سجود المشركين من غير إيمان والمراد بالغرانيق العلى الأصنام وشبّهت الأصنام بالغرانيق الّتي هي طائر الماء جمع غرنوق بكسر الغين المعجمة وإسكان الراء وهو طير طويل العنق أو الكركي ووجه الشبه بين الأصنام وتلك الطيور أنّ تلك الطيور تعلو وترفع في السماء فالأصنام مشبهة بها في علوّ القدر وارتفاعه. أقول: وقد مرّ بيانه في تفسير سورة الحجّ وهذه الرواية رواها ابن عبّاس قال الطبرسيّ في «المجمع»[1]: إن صحّ الخبر محمول على أنّه كان صلى الله عليه وآله يتلو القرآن فلمّا بلغ إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته صلى الله عليه وآله أنّه يعيبها قال بعض الحاضرين من المشركين: تلك الغرانيق العلى وألقى ذلك في تلاوته توهّم أنّ ذلك من القرآن فأضافه اللّه إلى الشيطان لأنّه إنّما حصل بإغوائه ووسوسته حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن

١ـ مجمع البيان، ج٧، ص١٦٢، و بحار الانوار، ج١٧، ص٨٧.

رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[1] أي: في تلاوته. هكذا أورده المرتضى؆ في كتاب «التنزيه»[2].

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ الواو للقسم أقسم بالنجم والمراد به الثريّا فإنّه اسم غالب عليها ومنه قوله ﷺ: «ما طلع النجم قطّ وفي الأرض من العاهة شيء إلّا رفع».[3] يريد ﷺ الثريّا وتسمّى الثريّا أيضاً بالية الحمل لأنّها تطلع بعد بطن الحمل وهي سبعة كواكب ولا يكاد يرى السابع منها لخفائه تمتحن به الأبصار وكانت قريش تعظمها وتقول: أحسن النجم في السماء الثريّا وكانت رجلتاها عند طلوعها وسقوطها فإذا طلعت بالغداة عدوّها من الصيف وإذا طلعت بالعشيّ عدّوها من الشتاء ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا غرب والهويّ السقوط من علو إلى سفل. وفي تفسير قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أقوال:

الاول: أنّه تعالى أقسم بالنجم الثريّا إذا سقطت وغابت مع الفجر.

والثاني: أقسم بالقرآن إذا نزل نجوماً متفرّقة على النبيّ في ثلاث وعشرين سنة فسمّى القرآن نجماً لتفرّقه في النزول؛ والعرب يسمّي التفريق تنجيماً والمفرّق منجّماً.

والثالث: أنّ المراد به جماعة النجوم إذا هوت وأخفيت وأراد به الجنس وإشارة في أفول النجم إلى طلوعه لأنّ ما يأفل يطلع فاستدلّ بافوله وطلوعه إلى وحدانيّته تعالى وقيل: المراد بهويّه وسقوطه يوم القيامة.

والرابع: يعني به الرجوم من النجوم وهو ما يرمى به الشياطين عند استراق السمع وروت العامة عن جعفر بن محمّد الصادق؈: «أراد بالنجم

١ـ سورة الحج: ٥٢.

٢ـ تنزيه الأنبياء، ص١٥٢ و ١٥٤.

٣ـ تفسيرالبغوي، ج٤، ص٢٤٤، و مسنداحمد، ج٢، ص٣٨٨.

محمداً صلى الله عليه وآله إذا نزل ليلة المعراج والهويّ النزول نزل من السماء السابعة ليلة المعراج[١] ولمّا نزلت السورة وقرأها رسول الله صلى الله عليه وآله جاء عتبة بن أبي جهل[٢] إلى النبيّ وطلّق ابنته النبيّ صلى الله عليه وآله وتفل اللعين في وجهه صلى الله عليه وآله وقال: كفرت بالنجم وبربّ النجم فدعا صلى الله عليه وآله وقال: اللهمّ سلّط عليه كلباً من كلابك. فخرج عتبة مع أبيه إلى الشام فنزل في بعض الطريق وألقى الله إليه الرعب فقال: لأصحابه أقيموني بينكم ليلا ففعلوا فجاء أسد أو كلب فافترسه من بين الناس»[٣].

الخامس: في «المجالس» عن ابن عبّاس قال: صلّينا العشاء الآخرة ذات ليلة مع رسول الله فلمّا سلّم أقبل إلينا بوجهه ثمّ قال: «إنّه سينقضّ كوكب من السماء مع طلوع الفجر فيسقط في دار أحدكم فمن سقط ذلك الكوكب في داره فهو وصيّي وخليفتي والإمام بعدي فلمّا كان قرب الفجر جلس كلّ واحد منّا في داره فلمّا طلع الفجر انقضّ الكواكب في دار عليّ». قال ابن عبّاس ـ وكان أطمع القوم في ذلك ـ: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «يا عليّ والّذي بعثني بالنبوّة لقد وجبت لك الوصيّة والخلافة والإمامة بعدي». فقال المنافقون: لقد ضلّ محمّد في محبّة ابن عمّه وغوى وما ينطق في شأنه إلّا بالهوى فأنزل الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ يعني: في محبّة عليّ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ في شأن عليّ[٤] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ وعن الصادق عن آبائه عليهم السلام ما يقرب منه والقميّ عن الرضا عليه السلام: «إنّ النجم رسول الله»[٥]. وعن الباقر عليه السلام يقول: «ما ضلّ في عليّ وما غوى وما ينطق فيه عن الميل والهوى وما كان ما قاله فيه إلّا عن

١ـ تفسيرالبغوي، ج٤، ص٢٤٤، و سبل الهدي والرشاد، ج٣، ص٢٨.

٢ـ الصحيح: عتبة بن أبي لهب.

٣ـ انظر: المناقب، ج١، ص٧١، و بحار الانوار، ج١٦، ص٣٠٩.

٤ـ تفسيرالأمالي، للصدوق، ص٦٥٩، و بحار الانوار، ج٣٥، ص٢٧٢.

٥ـ تفسير القمي، ج٣، ص٣٤٣، و تفسير الصافي، ج٥، ص٨٥.

الوحي الّذي اوحي إليه»[١] وفي «الكافي» عنه‌عليه السلام: «أقسم سبحانه بمحمّد إذا قبض ما ضلّ صاحبكم بتفضيله أهل بيته وما غوى وما ينطق بفضل أهل بيته بهواه وهو قول الله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ إليه»[٢].

وفي «المجالس» عن الصادق‌عليه السلام: «إنّ رضى الناس لا يملك وإنّ ألسنتهم لا تضبط وكيف تسلمون مما لم يسلم منه رسول الله‌صلى الله عليه وآله وأنبيائه فنسبوا نبيّنا محمّداً إلى أنّه ينطق عن الهوى في ابن عمّه عليّ حتّى كذّبهم الله فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾».

وبالجملة ما عدل‌صلى الله عليه وآله عن الحقّ وما فارق الهوى وما خاب عن إصابة الرشد. وقيل: ما خاب سعيه بل ينال ثواب الله وكرامته.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ جواب القسم. والوحي قد يكون اسماً بمعنى الكتاب الإلهيّ وقد يكون مصدراً وله معان الإرسال والإلهام والكتابة والإشارة إلى أنّ النبيّ‌صلى الله عليه وآله قد فنى عن ذاته وصفاته وأفعاله في ذات الله وصفاته وأفعاله بحيث لم يبق منه لا اسم ولا رسم فكان ناطقاً بنطق الحقّ لا بنطق البشريّة فحينئذ لا يجري عليه الخطرات الشيطانيّة والهواجس النفسانيّة به وهذا معنى قوله: «لست كأحدكم أبيت عند ربّي يطعمني ويسقيني»[٣] وقوله‌صلى الله عليه وآله: «أنا من الله والمؤمنون منّي»[٤].

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ أي علّم القرآن الرسول ونزل به عليه وقرأه عليه وبيّنه له هذا على أن يكون الوحي بمعنى الكتاب وإن كان بمعنى الإلهام فتعليمه

١ـ تفسير القمي، ج ٣، ص٣٣٤، و بحار الانوار، ج١٨، ص٤٠٤، و تفسير الاصفي، ج ٢، ص١٢١٩، و نور الثقلين، ج٥، ص١٤٦

٢ـ الكافي، ج٨، ص ٣٨٠.

٣ـ من لايحضره الفقيه، ج ٢، ص١٧٢، و وسائل الشيعة، ج٧، ص٣٨٨.

٤ـ انظر: مشارق انوارالیقین، ص٤١.

بتبليغه إلى قلبه ﷺ فيكون كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1] ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ من إضافة الصفة إلى فاعلها مثل حسن الوجه والموصوف محذوف أي ملك شديد قواه وهو جبرئيل عليه السلام ويكفيك دليلاً على شدّة قواه أنّه قطع قرى قوم لوط من الماء الأسود تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء حتّى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثمّ قلبها وصاح بثمود صيحة فأصبحوا جاثمين ورأى جبرئيل إبليس يكلّم عيسى عليه السلام في بعض عقبات الأرض المقدّسة فنفخه نفخة بجناحه وألقاه في أقصى جبل في الهند وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده عليه السلام في أسرع من رجعة الطرف.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: حصافة واستحكام في رأيه وعقله ومتانة في دينه والمرّة بالكسر قوّة الخلق والعقل وفلان ذو مرّة أي محكم الفتل وذو مرّة جبرئيل.

﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ عطف على علّمه أي: فاستقام واستقرّ بصورته الّتي خلقه الله عليها وله ستّمائة جناح دون الصورة الّتي كان يتمثّل بها كلّما هبط إلى الأرض كما كان يهبط بالوحي أحيانا بصورة دحية الكلبيّ وأتى إبراهيم في سورة الضيف ولداود في صورة الخصم وذلك أنّ النبيّ ﷺ أحبّ أن يراه في صورته الّتي جعل عليها وكان رسول الله ﷺ بجبل حراء وهو الجبل المسمّى بجبل النور بقرب مكّة فقال جبرئيل: **«إنّ الأرض لا تسعني ولكن انظر إلى السماء»**. فطلع له جبرئيل من المشرق فسدّ الأرض من المغرب وملأ الأفق؛ فخرّ رسول الله كما خرّ موسى في جبل الطور: فنزل جبرئيل في صورة الآدميّين؛ فضمّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه فإنّ الجسد وهو في الدنيا لا يتحمّل رؤية ما هو خارج عن طور العقول.

وما رأى أحد من الأنبياء صورة جبرئيل بصورته غير نبيّنا ﷺ فإنّه رآه

١ـ سورة الشعراء: ١٩٣.

فيها مرّتين مرّة في الأرض وهي هذه ومرّة في السماء ليلة المعراج عند سدرة المنتهى. وروي أنّ حمزة بن عبد المطّلب استدعى من رسول اللّه وقال: أرني جبرئيل في صورته فقال: «إنّك لن تستطيع أن تنظر إليه». قال: بلى يا رسول اللّه أرنيه؛ فقعد ونزل جبرئيل على خشبة في الكعبة كان المشركون يضعون ثيابهم عليها إذا طافوا؛ فقال ﷺ: «ارفع طرفك يا حمزة فانظر». فرفع عينه فإذا قدماه كالزبرجد فخرّ مغشيّاً عليه[1]، وروي أنّه رآه على فرس والدنيا بين كلكلها وفي وجهه أخدود من البكاء لو ألقيت السفن فيه لجرت وإنّما رآه ﷺ مرّتين ليكمل له الأمر مرّة في عالم الكون والفساد واخرى في المحلّ الأعلى وإنّما قام بصورته ليؤكّد أنّ ما يأتيه في صورة دحية هو هو.

فإن قيل: كيف يجوز أن يغيّر الملك صورة نفسه وهل يقدر غير اللّه على تغيير صورة المخلوقين وقد ثبت أنّ جبرئيل أتى رسول اللّه في صورة رجل وقد قيل: إنّ إبليس أتى قريشا[2] في صورة شيخ نجديّ.

فالجواب عنه أنّ التغيير الصورة الّتي هو تغيير التركيب والتأليف لا يقدر عليه إلّا اللّه لكنّ صفة جبرئيل بفعل اللّه وقد جعل اللّه لجبرئيل بأمره هذه القوّة وليس انتقاله ﷺ من صورة إلى صورة يكون بنقض البنية وتفريق الأجزاء وتمزيقها حتّى إذا انقضت بطل الحياة واستحال وقوع الفعل من الجملة ويحتاج إلى إحياء ثان فتكون تلك القدرة من جبرئيل محال وأمّا إبليس فكان ذلك تخييلاً للناظرين وتمويها دون التحقيق كفعل السحرة بالعصيّ والحبال.

قال القاضي أبو يعلى ولا قدرة للشياطين على تغيير خلقهم والانتقال

١ـ الدرالمنثور، ج١، ص٩٢، و الطبقات الكبري، ج٣، ص١٢.

٢ـ عند اجتماعهم في دار الندوة لإطفاء نور اللّه.

في الصورة إنّما يجوز أن يكونوا معلّمين كلمات وملقّنين ضرباً من ضروب الأفعال إذا فعله وتكلّم به نقله اللّه من صورة إلى صورة فيكون قادراً على التصوير والتخييل معنى أنّه قادر على قول إذا قاله أو على فعل إذا فعله نقله اللّه من صورة إلى صورة اخرى والتمثّل بصورة رجل أو غيره ليس معناه أنّ ذاته انقلبت رجلا بل معناه ظهر بتلك الصورة تأنيسا لمن خاطبه والقدر الزائد لا يزول ولا يفنى بل يخفى على الرائي فقط وتعدّد الصور بالتخيّل والتشكّل ممكن كما هو حاصل للجانّ.

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ كناية عن جبرئيل بالأفق المشرق وهو فوق جانب المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء وكان النبيّ صلى الله عليه وآله بحراء جبل النور قرب مكّة وقد مرّ بيانه.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ وقيل: فتدانى وتقديره قرب جبرئيل بعد بعده وعلوّه ثمّ تدلّى أي زاد في القرب مثل قولك: فلان قرب منّي ودنا وقيل: المعنى استوى أي: اعتدل واقفا في الهواء بعد أن كان نزل بسرعة ليراه النبيّ صلى الله عليه وآله بصورته وقيل: إنّ المعنى استوى جبرئيل أي: ارتفع وعلا إلى السماء بعد أن علّم محمّدا وقيل: استوى جبرئيل ومحمّد بالأفق الأعلى يعني: السماء ليلة المعراج وقيل: إنّ التدلّي استرسال مع التعلّق أي استرسل جبرئيل من الأفق الأعلى مع تعلّقه به فدنا من النبيّ صلى الله عليه وآله.

﴿فَكَانَ﴾ أي مقدار امتداد ما بين رسول اللّه وجبرئيل ومسافة بينهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ والقوس ما يرمى به وخصّت بالذكر على عادة العرب وقيل: المراد من القوس ما يقاس به الشيء والمراد مقدار ذراعين يقال: قاس الشيء يقوسه إذا قدّره وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أو أقلّ من ذراعين أو أقلّ من سيتي القوسين ومسافتهما والعباد يخاطبون على لغتهم وهو كقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾

فإنّ التشكيك لا يصحّ على اللّه فـ(أو للشكّ من جهة العباد كما أنّ كلمة لعلّ كذلك في مواضع القرآن والمعنى لو رآهما راء منكم لقال: هو قدر قوسين في القرب أو أدنى والتبس القرب عليه والمراد بيان وتمثيل بملكة الاتّصال وتحقيق استماعه ﷺ لما أوحى إليه.

﴿فَأَوْحَىٰ﴾ أي: جبرئيل ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ أي: محمّد وإضماره قبل الذكر لغاية ظهوره مثل قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾[1] ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ من الأمور العظيمة الّتي لا تفي العبارة أو فأوحى اللّه بواسطة جبرئيل ما أوحى، وفي «العلل»[2] عن السجّاد عليه السلام أنّه سئل عن اللّه هل يوصف بمكان فقال: **«تعالى الله عن ذلك»**. قيل: فلم أسري بنبيّه محمّد إلى السماء قال: **«ليريه ملكوت السماء وما فيها من عجائب صنعه وبدائع خلقه»**. قيل: فقول اللّه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قال: **«ذلك رسول الله دنا من حجب النور فرأى ملكوت السماوات ثمّ تدلّى فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض حتّى ظنّ أنّه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى»**. فحينئذ الضمير في قوله: ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ راجع إلى النبي ﷺ.

وعن الصادق عليه السلام: **«أوّل من سبق إلى الله وذلك أنّه أقرب الخلق إلى الله بالمكان الّذي قال له جبرئيل: لمّا سري به إلى السماء تقدّم يا محمّد فقد وطئت موطئا ما وطئه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل»**[3].

وفي «الأمالي» عن النبي ﷺ قال: **«عرج بي إلى السماء ودنوت من ربّي كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى فقال لي: يا محمّد من تحبّ من الخلق؟ قلت: يا ربّ عليّا قال: فالتفت يا محمّد فالتفت عن يساري فإذا عليّ بن أبي طالب»**.[4] وفي

١ـ سورة فاطر: ٤٥.

٢ـ علل الشرايع، ج١، ص١٣١.

٣ـ تفسير الصافي، ج٥، ص٨٦، و نور الثقلين، ج٥، ص١٤٨، و بحار الانوار، ج٥، ص٢٣٦.

٤ـ تفسيرالأمالي، ص٣٥٢، و تفسير الصافي، ج٥، ص٨٦ ج٧، ص٢٥.

«الاحتجاج» عن السجّاد قال: «أنا ابن من علا فاستعلى فجاء سدرة المنتهى فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى».[1] وفي «الكافي» عن الصادق أنّه سئل كم عرج برسول اللّه فقال: «مرّتين فأوقفه جبرئيل موقفاً فقال له: مكانك يا محمّد فلقد وقفت موقفاً ما وقفه ملك ولا نبيّ إنّ ربّك يصلّي فقال: يا جبرئيل وكيف يصلّي قال: يقول سبّوح قدّوس أنا ربّ الملائكة والروح سبقت رحمتي غضبي فقال: اللّهمّ عفوك عفوك».[2]

قال الصادق عليه السلام: «ما جاء ولاية أمير المؤمنين من الأرض ولكن جاءت من السماء مشافهة».[3] قال الفيض: ولا تنافي بين هذه الأخبار وكلّها صدر من معدن العلم على مقادير الأفهام المخاطبين والمراد من الآية تمثيل المقدار القرب المعنويّ الروحاني بالمقدار الصوريّ الجسمانيّ المكانيّ تعالى اللّه عمّا يقول المشبّهون علوّا كبيرا والمراد من قوسين مقدار طرفي القوس فيكون مقدار مجموع مقدار جعل الطرفين من القوس قوساً على حدة لا أنّه طرفي قوسين متعدّدين فيكون مقدار مجموع القوسين مقدار قوس واحد[4].

مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾

ثمّ بيّن سبحانه ما رآه النبيّ ليلة الأسرى وحقّق رؤيته فقال: لم يكذب

١ـ الاحتجاج، ج٢٢، ص٣٩، و تفسير الصافي، ج٥، ص٨٧.

٢ـ الكافي، ج١، ص٤٤٣، و تفسير الصافي، ج٥، ص٨٧، ج٧، ص٢٦.

٣ـ تفسير الصافي، ج٥، ص٨٧، ج٧، ص٢٦، و بحار الانوار، ج١٨، ص٣٠٧.

٤ـ الصافي، ج٥، ص٨٧.

فؤاد محمّد ما رآه بعينه وما أوهمه الفؤاد إنّه رأى ولم ير بل حقيقة رأى وصدّقه الفؤاد رؤيته.

وقيل: المراد رأى محمّد ربّه بفؤاده وبصيرته لا بعينه روي ذلك عن محمّد بن الحنفيّة عن أبيه عليه السلام[1] فحينئذ يكون بمعنى العلم أي علّمه علما يقينيّا بما رآه بعينه من الآيات الباهرة كقول إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2] وإن كان عالماً قبل ذلك وقيل: المراد ممّا رأى من صورة جبرئيل أي ما قال فؤاده لمّا رآه لم أعرفك لأنّه عرفه بقلبه كما رآه ببصره.

﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أي: أتكذّبون محمّدا فتجادلونه على ما يراه معاينة من صورة جبرئيل أو آيات جلال ربّه وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وآله لمّا أخبر بما رأى ليلة الأسرى أنكروا عليه وتعجّبوا والمماراة المجادلة بالباطل واشتقاقه من مرى الناقة سخت ضرعها لتدرّ ومريت الفرس إذا استخرجت ما عنده من الجري ولمّا كانت رؤية جبرئيل أو الآيات مستمرّة إلى وقت الانتقال صحّ أن يقال بصيغة المستقبل.

القمي: سئل رسول الله عن ذلك الوحي فقال: اوحي إليّ أنّ عليّا سيّد المؤمنين وإمام المتّقين وأوّل خليفة استخلفه خاتم النبيّين فدخل القوم في الكلام فقالوا: أمن الله أو من رسوله فقال الله لرسوله: قل لهم: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ثمّ ردّ عليهم فقال: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أمرت أن أنصبه للناس فأقول: هذا وليّكم من بعدي وإنّه بمنزلة السفينة يوم الغرق من دخل فيها نجا ومن خرج عنها غرق**»[3].

١ـ بحار الانوار، ج١٨، ص٢٨٨، و نور الثقلين، ج٥، ص١٥٣.

٢ـ سورة البقرة: ٢٦٠.

٣ـ تفسير القمي، ج٢، ص٣٣٥، و تفسير الصافي، ج٧، ص٣١، ج٥، ص٨٩.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: رأى جبرئيل في صورته الّتي خلق عليها مرّة اخرى ونزلة منصوب على الظرف الّذي هو مرّة لأنّ الفعلة للمرّة من الفعل فكانت في حكمها في المعنى فيكون تقدير الكلام وباللّه لقد رأى محمّد جبرئيل على صورته الأصليّة مرّة اخرى من النزول وذلك أنّه كان للنبيّ عليه السلام ليلة المعراج عرجات لمسألة التخفيف في أعداد الصلاة المفروضة فيكون لكلّ عرجة نزلة فرأى جبرئيل بصورته الأصليّة في بعض تلك النزلات.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: كان جبرئيل عند السدرة وهي شجرة عن يمين العرش فوق السماء السابعة انتهى إليها علم كلّ ملك أو ينتهي ما يعرج إلى السماء وما يهبط من فوقها وهذه الشجرة حيث انتهى إليه الملائكة فأضيفت إليه وقيل: هي شجرة طوبى وهو مقام جبرئيل وكان قد بقي هناك عند عروجه صلى الله عليه وآله إلى مستوى العرش فقال جبرئيل: لو دنيت أنملة لاحترقت. والظاهر أنّ شجرة السدرة تبق في السماء السابعة عن يمين العرش ورقها كآذان الفيلة نبع من أصلها الأنهار المذكورة في القرآن وينتهي إليها الملائكة وجبرئيل رسول الملائكة إذا لم يتجاوزها فبالحريّ أن لا يتجاوزها غيره فأعلاها لجبرئيل كالوسيلة للنبيّ صلى الله عليه وآله وكما أن خواصّ الامّة يشتركون مع النبيّ في جنّة عدن بدون أن يتجاوزوا إلى مقامه المخصوص به فكذا الملائكة يشتركون مع جبرئيل في السدرة بدون أن يتعدّوا إلى ما خصّ به من المكان وإليها ينتهي علم الخلائق ولا يعلم أحد ما وراءها ولو أنّ ورقة من تلك السدرة وضعت لأهل الأرض لأضاءت الأرض وإضافة السدرة إلى المنتهى إضافة الشيء إلى مكانه كقولك: أشجار البستان وإذا كان الفرض أنّ الضمير المفعول في قوله: ﴿رَءَاهُ﴾ راجع إلى اللّه كما أنّ المرئيّ هو اللّه يعني أنّ محمّدا رأى اللّه مرّة اخرى يعني مرّتين كما كلّم موسى مرّتين فحينئذ

كلمة ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ حال من الرائي لا من المرئيّ لأنّ الله منزّه عن أن يحلّ في مكان أو زمان و﴿عِندَ﴾ متعلّق برأى. قال ابن برجان: الإسراء مرّتين الاولى بالفؤاد وهذه المرّة بالعين ولمّا كان ذلك لا يتأتّى إلّا ينزل بقطع مسافة البعد الّتي هي الحجب عبّر بقوله: ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ وعبّر الوقت بتعيين المكان فقال: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ ولكن جلّ المفسّرين جعلوا الضمير في قوله: ﴿رَءَاهُ﴾ كناية إلى جبرئيل لا إلى الربّ كما قالت عائشة: سألت رسول اللهﷺ عن ذلك فقال ﷺ: **«رأيت جبرئيل نازلا في الأفق على صورته الأصليّة»**[1].

قال صاحب تفسير «روح البيان»: إنّ الشيخ الأكبر قال: إنّ معراجهﷺ أربع وثلاثون مرّة واحدة بجسده والباقي بروحه. قال البقلي: بان الحقّ لحبيبه عند شجرة السدرة لا بالتجسّم كما بان لموسى من شجرة العنّاب.

وبالجملة فعظّم الله بيان شرف السدرة فقال: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ وإضافة الجنّة إلى المأوى مثل إضافة مسجد الجامع أي قرب السدرة جنّة الخلد وهي في السابعة وقيل: هي الجنّة الّتي كان آوى إليها آدمعليه السلام وتصير إليها أرواح الشهداء. وقيل: هي الّتي يأوى إليها جبرئيل والملائكة وهذه الجنّة لا تقتضي الخلود لذاتها فلذلك أمكن خروج آدم منها.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ الغشيان بمعنى التغطية والستر وكلمة ﴿إِذْ﴾ ظرف زمان لرآه قال النبيﷺ: **«رأيت السدرة رفرف»**. أي جماعة من طيور خضر ـ وقيل: يغشاها فراش أو جراد من ذهب ـ ورأيت على كلّ ورقة ملكا قائماً يسبّح الله. فالطيور هم الملائكة وقيل: يغشاها من النور والبهاء والصفاء الّذي يروق الأبصار، وحاصل المعنى: إنّهﷺ رأى جبرئيل في الحال الّتي يغشى فيها السدرة من الملائكة بصورة الفراش يعبدون الله.

١ـ تفسير السمرقندي، ج٣، ص٣٤٠.

والتنكير في قوله: ﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾ لتفخيم الأمر مثل قوله: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾. وقيل: المراد من قوله: ﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾ المراد الملائكة الّذين استأذنوا للقاء النبيﷺ فأذن لهم وقيل لهم: لا تأتوه بغير نثار فجاء كلّ واحد منهم بطبق من أطباق الجنّة عليه من اللّطائف فنثروه بين يديه. وفي الحديث أنّهﷺ اعطي عند السدرة ثلاثا الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن مات من أمته وهو غير مشرك بالله شيئا[1]. ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾ أي ما مال بصر رسول الله أدنى ميل عمّا رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوز مع ما شاهد هناك من الأمور العظيمة المدهشة للعقول وما عدل عن رؤية العجائب الّتي امر برؤيتها ويستفاد من الآية على أنّ رؤيتهﷺ الآيات كانت بعين بصره حقيقة ويقظة لا حكماً وقلباً ولو كانت الرؤية قلبيّة لقال ما زاغ قلبه ولو كان المراد بالبصر بصر قلبه فلا بدّ له من القرينة وهي هاهنا معدومة.

﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ أي: وبالله لقد رأى محمّد ليلة المعراج الآيات الّتي هي كبراها وعظماها ما لا يحيط به نطاق العبارة الّتي منها ما ذكر في الرفارف والسدرة وصورة جبرئيل وغيرها واعلم أنّ القدم منزّه عن الحلول في المكان وكانت الشجرة مرآة لظهور جلاله تعالى جلّ جلاله وكان الإسراء ليلة السابع والعشرين من رجب في السنة الثانية عشر من النبوّة قبيل الهجرة.

قال صاحب تفسير «روح البيان»: إنّ وقوع الإسراء في هذا التاريخ فيه إشكال بل يكون قبل هذا التاريخ لأنّ هذه السورة على ما قيل: نزلت في السنة الخامسة من النبوّة.

وأوّل من رأىﷺ في السماء ليلة الإسراء آدم في السماء الدنيا وكان آدم قبل ذلك في أمن الله وجواره فأخرجه عدوّه إبليس منها وما أشبه

١ـ انظر: صحيح مسلم، ج ١، ص ١٠٩.

حاله ﷺ بحال آدم حين أخرجه أعداؤه من حرم الله وجوار بيته وكربته.

ثمّ رأى ﷺ في السماء الثانية عيسى ويحيى وهما الممتحنان باليهود أمّا عيسى فكذّبته اليهود وآذته وهمّوا بقتله فرفعه الله وأمّا يحيى فقتلوه كذلك يشبه حاله ﷺ بحالهما من أذى اليهود إيّاه ﷺ وهمّوا بإلقاء الصخرة عليه ليقتلوه وسمّوا في الشاة فلم تزل تلك الأكلة تعاوده حتّى قطعت أبهره.

وفي السماء الثالثة لقاؤه ليوسف عليه السلام يشبه حاله حال يوسف وذلك أنّ يوسف ظهر بإخوته بعد ما أخرجوه من بين ظهرانيهم فصفح عنهم وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾[1] الآية، وكذلك نبيّنا ﷺ أسر يوم بدر جملة من أقاربه الّذين أخرجوه من مكّة وفيهم عمّه العبّاس وابن عمّه عقيل فمنهم من أطلق ومنهم من فداه وظفر بعد ذلك عليهم عام الفتح فجمعهم وقال لهم: أقول لكم ما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾.

وكذلك لقاؤه ﷺ إدريس في السماء الرابعة وهو المكان الّذي سمّاه الله مكانا عليّا وهو أوّل من آتاه الله الخطّ بالقلم وهو مؤذّن بحاله رافعة وعلوّ شأنه حين أخاف الملوك وكتب ﷺ إليهم يدعوهم إلى طاعته حتّى قال أبو سفيان: وهو عند ملك الروم حين جاء كتاب النبيّ ورأى ما رأى من خوف هرقل لقد آل أمر ابن أبي كبشة[2] حتّى أصبح يخافه ملك ابن أبي الأصفر وكتب إلى بعض ملوك الأرض فمنهم من اتّبعه على دينه كالنّجاشيّ وملك عمّان ومنهم من هادنه وأهدى إليه وأتحفه كهرقل ملك الشام ومقوقس سلطان مصر ومنهم من تعصّى عليه فأظفر الله عليه فهذا مقام عليّ.

ولقاؤه في السماء السادسة لموسى عليه السلام يؤذن بحاله تشبه بحالة موسى

١ـ سورة يوسف: ٩٢.

٢ـ يلقبون به رسول الله ﷺ لما سيأتي ذيل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾

حين أمر بغزوة الشام على الجبابرة بعد إهلاك فرعون كذلك النبيّ ﷺ غزا تبوك من أرض الشام وظهر على صاحب دومة الجندل حين صالحه على الجزية بعد أن أتى أسيرا وافتتح مكّة وأدخل أصحابه البلد الّذي خرجوا منه.

ثمّ لقاؤه في السماء السابعة لإبراهيم وهو الرافع لقواعد الكعبة المحجوجة ويؤذن بأنّه ﷺ يحجّ هو وأصحابه ويتبع إبراهيم بالحجّ وقيام أمره.

قال أهل التحقيق: إنّ اللّه لا يرى ولا يمكن أن يرى كما هو الحقّ وهذه الآيات دالّة على أنّ محمّدا لم ير اللّه ليلة المعراج وإنّما رأى آيات ربّه المعظمة لأنّه تعالى ختم قصّة المعراج برؤية الآيات حيث قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[1] إلى أن قال: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ ولو كان رآه لكان ذلك أعظم ما يكون من الكرامة وكان يذكره ويختم به.

أقول: ورؤية ذاته تعالى أمر محال غير ممكن ولا يحصل أبدا في الدنيا ولا في الآخرة ولكنّه أظهر سبحانه لحبيبه من قدرته المظاهر العظيمة والآيات الكبرى الّتي مفاتيح الفيض من فيضه الأقدس سبحانه لحبيبه المنتخب من كلّ العالم بحيث صارت حياته ﷺ مادّة حياة العالم كلّه علويّة وسفليّة روحانيّة وجسمانيّة معدنيّة ونباتيّة حيوانيّة وإنسانيّة كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2] وقال: «لو لاك لما خلقت الأفلاك»[3] وقال ﷺ: «أنا من اللّه والمؤمنون منّي»[4].

وكذلك علمه ﷺ فقد علم الأولين والآخرين وفي رواية علم ما كان

١ـ سورة الإسراء: ١.

٢ـ الأنبيا سورة ء: ١٠٧.

٣ـ بحار الانوار، ج١٦، ص٤٠٦، و تفسير الآلوسي، ج ٣٠، ص١٩.

٤ـ انظر: مشارق أنواراليقين.

وما سيكون وصارﷺ ببركة تجلّي صفاته تعالى شأنه له صار آدم بتبعيّته وخلافته خليفة العالم كما أخبر في كتابه العزيز ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وأسجد اللّه الملائكة لتلألؤ نور هذا الحبيب في وجه آدم.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ هي أصنام كانت لهم فاللّات كانت لثقيف بالطائف وأصله من لويه لأنّهم كانوا يلوون عليها ويطوفون بها وهذا الأصل على قراءة الكسائيّ فإنّه كان يقف باللّاة بالهاء ويجعلها من هذه المادة والباقون يقفون بالتاء وأصله من اللّات وأصله من اسم رجل كان بيت السويق للحجّاج بسمن وأقط إذا قدموا وكان رجلا صالحا وكانت العرب تعظم ذلك الرجل بإطعامه في كلّ موسم فلمّا مات اتّخذوا مقعده الّذي كان بيت فيه السويق منسكا ثمّ سنح لهم الأمر إلى أن عبدوا تلك الصخرة الّتي كان يقعد عليها ومثّلوها صنما وسمّوها اللّات أي ملتّ السويق.

والعزّى: تأنيث الأعزّ كانت لغطفان وهي سمرة كانوا يعبدونها؛ فبعث رسول اللّهﷺ خالد بن الوليد، فقطّعها وهو يقول:

يا عزّ كفرانك لا سبحانك ... إنّي رأيت اللّه قد أهانك

قيل: فخرجت من أصلها شيطانة باشرة شعرها واضعة يدها على رأسها وهي تولول فجعل خالد يضربها بالسيف حتّى قتلها وقيل: صنم لا سمرة، وأوّل من اتّخذها ظالم بن أسعد من ملوك اليمن قيل: كانوا يسمعون فيها الصوت فبعث إليها خالد فهدم البيت الّذي هي فيه وأحرق السمرة.

ومناة صخرة لهذيل وخزاعة سمّيت، لأن دماء المناسك تمنى وتراق عندها ومنه منى وفي إنسان العيون: مناة صنم كان للأوس والخزرج. أرسل رسول اللّهﷺ سعد بن زيد الأشهليّ في عشرين فارساً إلى مناة ليهدم محلّها فلمّا وصلوا إلى ذلك الصنم قال السادن لسعد: ما تريد؟ قال: هدم مناة قال: أنت

وذاك فأقبل سعد إلى ذلك الصنم فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب رأسها فقال لها السادن: مناة دونك بعض عصاتك فضربها سعد فقتلها وهدم محلّها.

ووصف مناة بالثالثة تأكيداً لأنّها لمّا عطفت عليها علم أنّها ثالثتهما وللاخرى صفة ذمّ لها وهي المتأخّرة الوضعيّة المقدار لأنّ الأخرى يستعمل في الضعفاء كقوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾[1] أي ضعفاؤهم لرؤسائهم. والاخرى تأنيث الآخر بفتح الخاء وهو في الأصل المتأخّر في الوجود نقل في الاستعمال إلى المغايرة مع الاشتراك مع موصوفه فيما أثبت له وكانت الأوليّة والتقدّم عندهم للّات فيكون مناة من المتأخّر الرتبيّ.

وقيل: إنّ المشركين أرادوا أنّ لآلهتهم من الأسماء الحسنى فسمّوا في مقابلة اسم الله اللات وفي مقابلة العزيز العزّى وفي مقابلة المنّان المناة وكانوا يقولون: إنّ الملائكة وتلك الأصنام بنات الله.

والحاصل في معنى الآية: أخبروني عن حال آلهتكم الّتي تعبدونها واتّخذتموها معبودا هل وجدتم فيها صفة من صفات الألوهيّة من الإيجاد والإعدام والنفع والضرّ لا بل اتّخذتموها آلهة لغاية جهلكم وظلمكم على أنفسكم، والهمزة للإنكار والتبكيت والمفعول الثاني من رأيتم محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره خالقة وكان بعض المشركين يقولون: إنّ الملائكة بنات الله وهذه الأصنام صورتها ويعبدونها فقال سبحانه على سبيل التوبيخ مثل توبيخ الأول: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: الّذي تستنكفون منه تنسبونه إليه تعالى ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ إشارة إلى القسمة القبيحة المستنبطة من الجملة الاستفهاميّة وضيزى فعلى بضمّ الضاد من ضاز يضيز ضيزا إذا جار في الحكم

١ـ سورة الأعراف: ٣٨.

وضازه حقّه إذا بخسه ونقصه أي ما هذا إلّا قسمة الجور.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠)﴾

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ أي ليس تسميتكم هذه الأصنام بأنّها آلهة وأنّها بنات الله إلّا مجرّد الأسامي لا معاني لها ولا مصاديق تحت هذه الأسماء لأنّه لا ضرّ لها ولا نفع وما هي إلّا أسماء ألقيت على جمادات ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي: لم ينزل الله حجّة وكتابا لكم فيها وليس لكم فيما تقولونه حجّة ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ وأسماء خالية عن المسمّيات وضعتموها للأصنام أنتم ومن تقدّم منكم بمقتضى أهوائكم الباطلة. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ التفات إلى الغيبة للإيذان بأنّ تعداد قبائحهم اقتضى الإعراض عنهم وما يتّبعون إلّا توهّم أنّ ما هم عليه حقّا ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ ويشتهونها تأسّياً بأفعال آبائهم وهوى أنفسهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ حال من فاعل يتّبعون وفيه تأكيد لبطلان اتّباع الظنّ وهوى النفس والهدى القرآن والرسول ولم يهتدوا بهما مع أنّ القرآن والرسول والمعجزات من موجبات الهدى وقد أعرضوا لجهلهم.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: ليس للإنسان كلّ ما يتمنّاه وتشتهيه نفسه من الأمور الّتي من جملتها طمعهم الفاسد في شفاعة هؤلاء الجمادات.

ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركـه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وقيل: المعنى أم للإنسان ما اشتهى من طول الحياة وأن لا بعث ولا حشر ولا يتهيّأ له كلّ ما يتمنّاه إذ كلّ ميسّر لما أراد اللّه.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما يتمنّاه فإنّ اختصاص امور الآخرة والاولى به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون له أمر من الأمور التكوينيّة.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إقناط لهم ما طمعوا من شفاعة الملائكة حيث عبدوها وكم خبريّة مفيدة للتكثير ومحلّها الرفع على الابتداء والخبر الجملة المنفيّة أي: وكثير من الملائكة ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ عند اللّه ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء ولا تنفع شيئا من النفع وليس المعنى أنّ الملائكة يشفعون فلا تنفع بل المعنى أنّهم لا يشفعون لأنّه لا يؤذن لهم في الشفاعة كما يفصح عن هذا المعنى ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ لهم في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يشفعوا له ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ ويراه أهلا للشفاعة ويكون مرضيّ الدين ومن أهل التوحيد والإيمان وأمّا من عداهم من أهل الكفر والنفاق فهم من إذن اللّه بمعزل فإذا كان حال الملائكة في أمر الشفاعة كذلك فحال الأصنام الجماديّة والنباتيّة معلومة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وبما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ المنزّهين عن سمات النقص ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: تسمية مثل تسمية الأنثى.

فإن قيل: كيف يصحّ أن يقال: إنّهم لا يؤمنون بالآخرة مع أنّهم كانوا

يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله وكان من عادتهم أن يربطوا مركوب الميّت على قبره ويعتقدون أنّه يحشر عليه؟

فالجواب أنّهم لا يجزمون به بل كانوا يقولون: لا نحشر فإنّ حشرنا فلنا شفعاء بدليل قوله حكاية عنهم: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[1] ثمّ إنّهم ما كانوا يعترفون على الوجه الّذي ورد به الرسل.

واعلم أنّ الملائكة ليسوا بذكور ولا إناث يعني أنّه ليس لهم آلة الرجوليّة ولا آلة الأنوثيّة وما في الحديث من أنّهﷺ قال: «أتاني جبرئيل فعلّمني الوضوء والصلاة فلمّا شرع في الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه»[2] أي: محلّ الفرج من الإنسان.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: يسمّون والحال أنّه لا علم لهم بما يقولون أصلا ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما يتّبعون ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الفاسد وليس في الكلام تكرار لأنّ الأوّل متّصل بعبادتهم اللّات والعزّى ومناة والثاني بعبادتهم الملائكة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ مرّ تفسيره والظنّ لا اعتداد به في شأن المعارف الاصوليّة. والحقّ في الآية يجوز أن يكون بمعنى العلم وقيل: الحقّ في الآية بمعنى العذاب.

ثمّ خاطب نبيّه فقال: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا محمّد ﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ ولم يقرّ بتوحيدنا ومال إلى الدنيا ومنافعها والمراد من الإعراض في الآية أن لا تقابلهم على أفعالهم واحتملهم ولا تدع مع هذا دعاءهم إلى الحقّ.

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الإعراض عن التدبّر في امور الآخرة وصرف الهمّة إلى التمتّع باللذّات العاجلة منتهى علمهم وهو مبلغ خسيس

١ـ سورة السجدة: ٥٠.

٢ـ الجامع الصغير، ج١، ص١٨، و كنزالعمال، ج٩، ص٣٠٢.

لأنّه من طباع البهائم لا تنتظر العافية. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ منك ومن جميع الخلق ﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وعدل عن سبيل الحقّ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فيجازي كلًّا على حسب أعمالهم.

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾

ثمّ أخبر سبحانه عن كمال قدرته فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهذا اعتراض بين الآية السابقة وبين قوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ واللام في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلّق بمعنى الآية السابقة لأنّه إذا كان أعلم بهم جازى كلًّا منهم بما يستحقّه واللام لام العاقبة وذلك أنّ علمه تعالى بالفريقين أدّى إلى جزائهم باستحقاقهم وإنّما يقدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان كثير الملك ولذلك أخبر به في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ﴾ في الآخرة ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ وأشركوا وعملوا بالمعاصي.

﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ ووحّدوا ربّهم لأنّه يعلم حالهم فيعلم ضلال من ضلّ واهتداء من اهتدى ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ أي: بالمثوبة الحسنى الّتي هي الجنّة أو بسبب أعمالهم فالحسنى للزيادة المطلقة والباء لتعدية الجزاء أو المقابلة.

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ صفة للّذين أحسنوا أو بدل منه وكبائر الإثم ما يكبر عقابه من الذنوب وهو ما خصّ عليه الوعيد كالشرك والزنا وقتل النفس وأمثالها ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ جمع فاحشة وهي أقبح الذنوب وأفحشها واختلف في عدد الكبائر قال ابن عبّاس: هي إلى السبعين أقرب، وقيل: إنّ الكبيرة ما أوعد اللّه عليها النار والفاحشة كلّ ذنب فيه الحدّ. ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ والاستثناء منقطع لأنّ معنى اللّمم التقارب والنزول بقربه ويعبّر به عن الصغيرة والصغائر لا تدخل في الكبائر ويمكن أن يكون الاستثناء متّصلا لأنّ الصغيرة داخلة في أفراد الذنوب وليس خارج عنه من حيث الذات بل متفاوتة بالصفة وحاصل المعنى إلّا ما قلّ وصغر فإنّه مغفور ممّن يجتنب الكبائر وإنّ الصلاة الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهنّ إذا اجتنب الكبائر قال سبحانه: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾[1].

قيل في النزول: إنّ نبهان التمّار أتته امرأة لتشتري التمر فقال لها: ادخلي الحانوت فعانقها وقبّلها فقالت المرأة: خنت أخاك ولم تصب حاجتك فندم وذهب إلى رسول اللّه فنزلت الآية.

قال ابن عبّاس: المعنى إلّا أن يلمّ بالمعصية مرّة أو اتّفاقا ثمّ يتوب ولم يثبت عليها وقال بعض المحقّقين: إنّ الذنوب كلّها كبائر على الحقيقة لأنّ الكلّ يتضمّن مخالفة أمر اللّه تعالى لكن بعضها أكبر من بعض عند الإضافة ولا كبيرة أعظم من الشرك وأمّا اللمم فهو من جملة الكبائر أيضاً إلّا أنّ اللّه أراد باللمم الفاحشة الّتي يتوب عنها مرتكبها وهذا قول جماعة من علماء العامّة مثل مجاهد والحسن.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ حيث يغفر الذنوب قال ابن عبّاس: لمن فعل

١ـ سورة النساء: ٣١.

ذلك وتاب ومعناه أنّ رحمته تسع الذنوب مع التوبة ولا تضيق عنه. ثمّ قال سبحانه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِكُمْ﴾ أي بأحوالكم قبل أن خلقكم ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أنشأ أباكم من أديم الأرض أو المراد جميع الخلق أي خلقكم من الأرض بسبب تناول الأغذية الّتي خلقها من الأرض فكأنّه أنشاهم منها ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي علم سبحانه في وقت كونكم أجنّة في الأرحام ما أنتم صانعون وصائرون وإذا علم ذلك منكم قبل وجودكم فكيف لا يعلم ما حصل منكم؟ ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ الفاء لترتيب النهي عن تزكية النفس أي لا تمدحوها بحسن الأعمال ولا تصفوها بالتطهير من الآثام لأنّ كلّ واحد من التخلية والتحلية إنّما يعتدّ به إذا كان خالصا للّه وإذا كان هو سبحانه أعلم بأحوالكم فلا حاجة إلى التزكية للناس فهي شرك خفيّ ومعصية جليّة ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ المعاصي والشرك وأعلم بمن برّ وأطاع وأخلص العمل من نفس العامل وتحقيق أعلميّة اللّه من نفس العامل هو أنّ الإنسان علمه ولو بنفسه علم إجماليّ ومقيّد بقواه البشريّة وهو متناه بحسب تناهي قواه البشريّة وعلمه تعالى به علم مطلق إذ علمه عين ذاته في مقام الأحديّة والعلم المطلق أجمع وأكمل من العلم المقيّد.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ نزلت الآيات السبع ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى﴾ الآيات في عثمان بن عفّان كان يتصدّق وينفق ماله فقال أخوه من الرضاعة، عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح: ما هذا الّذي تصنع؟ يوشك أن لا يبقى لك مال فقال عثمان: إنّ لي ذنوباً وإنّي بما أصنع أطلب رضى اللّه. فقال له عبد اللّه: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمّل عنك ذنوبك كلّها فأعطاه وأمسك بعد ذلك عن الصدقة فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أي: يوم أحد حين ترك المركز ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ ثمّ قطع نفقته إلى قوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾.

﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ من أكدى حافر البئر إذا بلغ الصلابة ولا يمكن الحفر أي قطع وأبخل بعطيّته وفي تاج المصادر أي قطع القليل.

وقيل: نزلت الآية في الوليد بن المغيرة كان يتّبع رسول الله ﷺ وطمع النبي ﷺ في إسلامه فعيّره بعض المشركين وقال له: تركت دين الأشياخ وضلّلتهم؟ فقال: أخشى عذاب الله فضمن أن يتحمّل العذاب عنه وكلّ شيء يخافه في الآخرة إن أعطاه بعض ماله فارتدّ وتولّى عن استماع الكلام النبويّ وأعطاه بعض المشروط وبخل بالباقي. والكلام لا يخلو عن التوبيخ والتهكّم، نعوذ بالله من الحور بعد الكور[1] ومن التنكير بعد التعريف.

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ أي: أعنده علم ما غاب عنه من أمر العذاب فهو يرى ويعلم أنّ صاحبه يتحمّل عنه عذابه.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أي: ألم يخبر ولم يحدّث بما في أسفار التوراة وبما في صحف إبراهيم الّذي أكمل وأتمّ ﷺ ما أمر به وما أوجب الله عليه من كلّ ما امر.

ثمّ بيّن سبحانه ما في صحفهما وهو ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: مكتوب في صحفهما أن لا تحمل نفس حمل اخرى ولا تؤخذ نفس بإثم غيرها والصحيفة الّتي يكتب فيها ويجمع على صحائف وصحف والمصحف مثلّث الميم ما جمع فيه القرآن والصحف.

وعن أبي ذرّ الغفاريّ قال: سألت رسول الله كم من كتاب أنزل الله؟ قال ﷺ: **«مائة كتاب وأربع كتب أنزل الله على آدم عشر صحائف وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل الله التوراة والإنجيل والزبور والفرقان».**

١ـ أي النقص بعد الزيادة.

قال أبو ذرّ: قلت يا رسول الله ما كانت في صحف إبراهيم عليه السلام ؟ قال: «كانت مواعظ وأمثالا منها أيها الملك المغرور المبتلى إنّي لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك كيلا تردّ دعوة المظلوم فإنّي لا أردّها وإن كانت من كافر. وكان فيها أمثال منها: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات ساعة يناجي ربّه فيها ويفكّر في صنع الله وساعة يحاسب نفسه فيما قدّم وأخّر وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال في المطعم والمشرب وغيرهما وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلا على شأنه حافظاً للسانه ومن علم أنّ كلامه من عقله قلّ كلامه إلّا فيما يفيده»[1].

وإنّما قدّم سبحانه في الذكر صحف موسى على إبراهيم لأنّ التوراة عندهم أشهر وأكثر وإنّما وصف سبحانه إبراهيم بالتوفية لأنّه عليه السلام بالغ في الوفاء والابتلاء واحتمل أمورا عظيمة كالصبر على نار نمرود بيقين ثابت حتّى أتاه جبرئيل حين ألقي في النار فقال: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، وعلى ذبح الولد وعلى الهجرة وعلى ترك أهله وولده في واد غير ذي ذرع. روي أنه عليه السلام كان يمشي كلّ يوم يرتاد ضيفاً فإن وجده أكرمه وإلّا نوى الصوم وقد بذل مهجته للنيران وقلبه للرحمن وولده للقربان وماله للإخوان[2].

وبالجملة ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ عطف على قوله: ﴿ أَلَّا تَزِرُ ﴾ أي: وهذا أيضاً ما في صحف موسى وإبراهيم أي ليس له من الجزاء إلّا جزاء عمله والسعي المشي الذريع دون العدو ويستعمل للجدّ في الأمر و«أن» مخفّفة أي إنّ الشأن ليس للإنسان في الآخرة إلّا سعيه في الدنيا من العمل

١ـ الخصال، ص٥٢٥، و بحار الانوار، ج٧٤، ص٧١، و جوامع الجامع، ج٣، ص٧٧١، و تفسير الصافي، ج٥، ص٣١٨.

٢ـ الكشاف، ج٤، شرح ص٣٣، و انظر: تفسيرالبيضاوي، ج٥، ص٢٥٩.

وهو بيان أنّه لا يؤخذ بذنب الغير ولا يعطى ثواب عمل الغير له. قيل: كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى وأمّا هذه الامّة فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم وينفع الله الآباء في الأبناء والأبناء في الآباء وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾[1] ولما روي أنّ امرأة رفعت صبيّاً لها من محفّه وقالت: يا رسول الله ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجره والمؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره». والمراد من الآية أنّ أحدا لا يقدر أن يدفع ويتحمّل عن غيره العقاب وهذا الحكم عامّ في كلّ الأمم والأقرب أن يكون قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ خالصا في السيّئة وأمّا في الحسنة فمن باب التفضّل من العشر إلى السبعمائة وأزيد بطوله ورحمته.

قيل: إنّ من اعتقد أنّ الإنسان لا ينتفع إلّا بعمله كاد أن يخرق الإجماع من الفريقين العامّة والخاصّة وذلك باطل من وجوه:

أحدها: أنّ الإنسان ينتفع بدعاء غيره وهو انتفاع بعمل الغير.

والثاني: أنّ النبيّ يشفع لأهل الموقف في الحساب ثمّ لأهل الجنّة في دخولها ولأهل الكبائر في الإخراج من النار أو قبل الدخول وهذا الانتفاع بسعي الغير.

والثالث: أنّ كلّ نبيّ وصالح له شفاعة وذلك انتفاع بعمل الغير.

والرابع: أنّ الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الأرض وذلك منفعة بعمل الغير.

والخامس: أنّ الله تعالى يخرج من النار من لم يعمل خيرا قطّ بمحض رحمته وهذا انتفاع بغير عملهم.

والسادس: أنّ أولاد المؤمنين يدخلون الجنّة بعمل آبائهم ذلك انتفاع بمحض عمل الغير وكذا الميّت بالصدقة عنه وأنّ الحجّ المفروض يسقط عن

١ـ سورة النساء: ١١.

الميّت يحجّ وليّه عنه ولو بغير ماله وكذا تبرأ ذمّة الإنسان من ديون الخلق إذا قضاها قاض وذلك انتفاع بعمل الغير وكذا من عليه تبعات ومظالم إذا حلّل منها سقطت عنه.

والحاصل قال ابن عبّاس في رواية الوالبيّ: إنّ هذا منسوخ الحكم في شريعتنا لأنّه سبحانه يقول: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[1] ورفع درجة الذرّيّة وإن لم يستحقّوها بأعمالهم ومن قال: غير منسوخ الحكم قال: الآية تدلّ على منع النيابة في الطاعات إلّا ما قام عليه الدليل كالحجّ وهو أنّ امرأة قالت: يا رسول الله إنّ أبي لم يحجّ. قال ﷺ: «فحجّي عنه»[2].

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي ما يفعله الإنسان ويسعى فيه لا بدّ أن يرى فيما بعد ويجازى عليه وبيّن ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ والهاء في ﴿يُجْزَاهُ﴾ عائد إلى السعي أي يرى العبد سعيه يوم القيامة ثمّ يجزى سعيه أوفى الجزاء.

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا

١ـ سورة الطور: ٢١.

٢ـ مجمع البيان، ج٩، ص٣٠١، و صحيح مسلم، ج٤، ص١٠١.

﴿تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾

المنتهى مصدر أي انتهاء الخلق في رجوعهم إلى الله بعد الموت لا إلى غيره فيجازيهم على أعمالهم ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿هُوَ﴾ خلق قوتي الضحك والبكاء وفعل سبب السرور والحزن وقيل: المراد أضحك أهل الجنّة في الجنّة وأبكى أهل النار في النار. وقيل: أضحك الأشجار بالأنوار[1] وأبكى السحاب بالأمطار أو أضحك المطيع بالرحمة وأبكى العاصي بالسخطة والضحك انبساط الوجه من سرور النفس وعجب في القلب والبكاء جريان الدمع على الخدّ عن غمّ في القلب وربّما كان عن فرح يمازجه تذكّر حزن.

قال النبيّ صلى الله عليه وآله لجبرئيل: «**مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً قطّ؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار**».[2] ولقي يحيى عيسى عليهما السلام؟ فتبسّم عيسى في وجه يحيى فقال يحيى: مالي أراك لاهياً كأنّك آمن؟ فقال عيسى: مالي أراك عابساً كأنّك آيس؟ فقالا: لا نبرح حتّى ينزل علينا الوحي فأوحى الله تعالى أحبّكما إليّ أحسنكما ظنّاً بي وفي رواية أحبّكما إليّ الطلق البسّام[3].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره لا خلقاً ولا كسبا فانّ أثر القاتل نقض البنية وتفريق الاتّصالات لكن يحصل الموت عنده بفعل الله على العادة فللقاتل نقض البنية كسبا دون الإماتة وتقديم الإماتة على الإحياء لعلّ لمراعاة الفواصل ولتقدّم العدم قبل الوجود.

﴿وَأَنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ من كلّ الحيوان صنفين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هي الماء القليل ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ وتدفّق وتصبّ في الرحم من أمنى

١ـ جمع النور بالفتح منشأ الأثمار.

٢ـ مسند احمد، ج٣، ص٢٢٤، و السيرة الحلبية، ج٢، ص١٣٧، و كنز العمال، ج٦، ص١٤٠.

٣ـ شرح نهج البلاغه، ابن أبي الحديد، ج٦، ص٣٣٢.

يمنى إمناء أو من مادة قدر إذا القي على قدر يتكوّن منه الولد بقدره المقدّرة بالحكمة البالغة وآدم وعيسى وحوّاء مستثنون من هذا الأمر.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ﴾ أي: على الله ﴿النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ أي: الخلقة الاخرى وهو الإحياء بعد الإماتة وفاء بوعده وفيه تصريح بأنّ الحكمة الإلهيّة اقتضت النشأة الثانية للجزاء وو إيصال المؤمنين إلى كمالهم اللائق بهم ولو أراد تعجيل أجورهم في الدنيا لضاقت ثواب واحد منهم وأقلّ المؤمنين منزلة في الجنّة من له فيها مثل الدنيا عشر مرات فما ظنّكم بالباقي.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ أعطى الغنى وأغنى بعض الناس بالأموال ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ وأعطى بعض الناس القنية واصول المال وما يدّخرون ويخزنون زيادة عن الكفاية. وقيل: أغنى بالقناعة وأقنى بالرضا والاقتناء حفظ المال النفيس، يقال: ليس من لمس درهما صيرفياً ولا من اقتنى دراً جوهرياً وقيل: المعنى أغنى من شاء وأقنى أي حرم من شاء. وقيل: أغنى بالذهب والفضّة والثياب وأقنى بالإبل والبقر والغنم والحشم، وإفراد القنية بالذكر بعد قوله: ﴿أَغْنَىٰ﴾ لأنّها أشرف الأموال والأوفق من المعاني المذكورة في الإقناء الفقر مراعاة لصنعة الطباق ويكون الهمزة في باب الإفعال للسلب والإزالة أي أزال المال.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ كانت خزاعة تعبدها وأوّل من عبدها أبو كبشة من أقوام أجداد النبيّ من قبل امّهاته وكان المشركون يسمّون النبيّ ابن أبي كبشة لمخالفته ﷺ إيّاهم في الدين كما خالف أبو كبشة غيره في عبادة الشعرى والشعرى كوكب معروف نيّر خلف الجوزاء يقال له العبور وهي أشدّ بياضا من الغميصاء وإنّ الشعرى شعريان إحداهما: اليمانيّة وهي المسمّاة بالعبور وثانيتها: الشاميّة وهي المسمّاة بالغميصاء فصّلت المجرّة بينهما، تزعم العرب أنّ الشعرويّين أختا سهيل وأنّ الثلاثة كانت مجتمعة فانحدر السهيل

نحو اليمن وتبعته العبور فعبرت المجرّة ولقيت سهيل وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل فغمضت عينها فكانت أقلّ نورا من العبور فقال أبو كبشة وهو رجل من أشراف خزاعة: إنّ النجوم تقطع السماء عرضا وهذه تقطع طولاً فليس نجم مثلها فاتّخذوها معبودا فقال سبحانه: إنّه خالق للشعرى وهو مربوب ولا يصلح للإلهيّة وكلّ من كان من أهل البدع من الزنادقة والضلالة يقال له: أبو كبشة.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ هي قوم هود اهلكوا بريح صرصر وعاد الاخرى إرم ووصفهم بالأولى لتقدّم هلاكهم بعد قوم نوح بحسب الزمان على هلاك سائر الأمم وعاد الأخيرة هي الّتي قاتلها موسى بأريحاء كانوا تناسلوا من الهزيلة بنت معاوية وهي الّتي نجت من قوم عاد مع بنيها الأربعة عمر وعمرو وعلمو والعتيد وكانت الهزيلة من العماليق فالعاد الأخيرة أيضاً من عاد الاولى ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ أي: وأهلك ثمود قوم صالح فما أبقى أحدا منهم. ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾ عطف عليه أي أهلك قوم نوح ﴿مِّن قَبۡلُۖ﴾ إهلاك قوم عاد وثمود ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أي: قوم نوح ﴿كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ﴾ لنبيّهم ﴿وَأَطۡغَىٰ﴾ من الفريقين لأنّهم كانوا يضربون نوحا حتّى لا يكون به حراك وما أثّرت فيهم دعوته قريبا من ألف سنة وما آمن معه إلّا قليل.

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ هي قرى قوم لوط ائتفكت بأهلها وانقلبت أي أهلك المؤتفكة وأهلها ﴿أَهۡوَىٰ﴾ أي: أسقطها إلى الأرض مقلوبة والأهواء بمعنى الإلقاء وألقاها في الهاوية ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ من فنون العذاب أي أستر تلك المدائن وألبس اللّه المؤتفكة ما ألبسها من الحجارة المنضودة المسوّمة مثل قوله تعالى[1]: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾.

١ـ سورة طه: ٧٨.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ الآلاء: النعم واحدها آلى والتماري: المجادلة والمحاجة والخطاب من باب التعريض بالغير مثل قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1] وجعل الأمور المعدودة نعما مع أنّ بعضها نقم لما أنّها أيضاً نعم من حيث إنّها نصرة للأنبياء والمؤمنين وفيها عظات وعبر للمعتبرين وهلاك أعداء الله من أعظم آلائه الواصلة إلى المؤمنين. وحاصل المعنى بأيّ هذه النعم يشكّون ويتردّدون ويتخاصمون والخطاب لأفراد الامّة ولذا أفرد لاشتمال النبيّ ﷺ على أمته وفيه إشارة إلى أنّه كما نصرت إخوانك من الأنبياء الماضين وأهلكت أعداءهم فكذلك أفعل بك فلا تك قلبك في حرج من عنادهم.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ إشارة إلى القرآن أي هذا القرآن إنذار كائن من قبيل الإنذارات المتقدّمة أو إشارة إلى الرسول فحينئذ النذير بمعنى المنذر لا بمعنى المصدر الّذي هو نذير أي هذا الرسول نذير من جنس المنذرين المتقدّمين وكلّ منذر متأخّر فهو من قبيل النذير المتقدّم لاتّحاد كلمتهم ودعوتهم إلى الله على بصيرة فطوبى لمن تابع وويل لمن خاف.

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ في إيراده عقيب المذكورات إشعار بأنّ تعذيبهم مؤخّر إلى يوم القيامة تعظيما للنبيّ ﷺ والأزف ضيق الوقت وإشارة قرب الساعة ودنوّها وكلّ ما هو آت قريب ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ إذا غشيت الخلق شدائدها وأهوالها لم يكشف عنهم أحد ولم يردّها أي لا يكون نفس كاشفة أو جماعة كاشفة ويجوز أن يكون مصدرا كالعافية والعاقبة والواقية المعنى ليس من دون الله كشف ولا يكشف عنها غيره كقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا

ـــــــــــــ
١ـ سورة الزمر: ٦٥.

هُوَ ﴾[1] أي: ليس لها أنفس قادرة على إزالتها وكشفها عند وقوعها في وقتها إلّا الله ويجوز أن يكون التاء للمبالغة كتاء علامة وقيامة، العارفين بالله المخصوصين بالولاية الكلّيّة مشهودة عنهم ولا يتوقّف شهودهم على وقوع القيامة الظاهرة كما قال سيّد الأولياء أمير المؤمنين: «**لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا فطوبى لمن وصل إلى حقّ اليقين**»[2].

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ استفهام إنكاريّ والعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء قال بعض الحكماء: العجب ما لا يعرف سببه أي أمن هذا الأخبار المتقدّمة ذكرها تعجبون قال الصادق‌عليه‌السلام هذا المعنى[3] أو أفمن هذا القرآن ونزوله من عند الله تعجبون أيّها المشركون وهذا دليل على حدوث القرآن. ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء ولا تبكون انزجاراً وتنبيها من الوعيد ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ ولاهون في الغفلة، وقيل: معرضون. وقيل: المراد الغناء بلغة الحمير لأنّ المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء ليشغلوا الناس عن استماعه روي أنه‌صلى‌الله‌عليه‌وآله ما رئي ضاحكاً بعد نزول هذه الآية.

وعن أبي هريرة: لمّا نزلت هذه الآية بكى أهل الصفّة حتّى جرت دموعهم على خدودهم فلمّا سمع رسول الله حنينهم بكى معهم فبكينا لبكائه فقال‌صلى‌الله‌عليه‌وآله: «**لا يلج النار من بكى من خشية الله ولا يدخل الجنّة مصرّ على معصية الله ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ثمّ يغفر لهم**»[4]. وفي تفسير «روح البيان»: إنّ النبيّ‌صلى‌الله‌عليه‌وآله نزل عليه جبرئيل وعنده رجل يبكي فقال جبرئيل: «**من هذا؟**» فقال: «**فلان**» فقال جبرئيل: «**إنّا نزن أعمال بني آدم كلّها إلّا البكاء فإنّ الله ليطفىء بالدمعة**

١ـ سورة الأعراف: ١٨٧.

٢ـ المناقب، ج ١، ص٣١٧، و الطرائف، ص٥١٢، و انظر: مطلوب كل طالب، ص٣.

٣ـ مجمع البيان، ج ٩، ص٣٠٦.

٤ـ تفسير الثعلبي، ج ٩، ص١٥٨، و الدرالمنثور، ج٦، ص ١٣١.

بحوراً من نيران جهنّم.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ الفاء لترتيب موجب الأمر على ما تقرّر من بطلان مقابلة القرآن بالإنكار والاستهزاء ووجوب تلقّيه بالإيمان وكمال الخضوع أي وإذا كان الأمر كذلك وحال الكفّار ما بيّناه ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ الّذي فعل هذه الأمور وأنزل هذا الحديث والقرآن، واعبدوه ولا تعبدوا غيره من ملك أو بشر فضلاً عن جماد كالأصنام والكواكب.

تمّت السورة بعون اللّه.

سورة القمر

مكية. عن النبي ﷺ: «ومن قرأ سورة اقتربت في كلّ غبّ بعث يوم القيامة ووجهه على صورة القمر ليلة البدر ومن قرأها كلّ ليلة كان أفضل وجاء يوم القيامة ووجهه مسفرٌ على وجوه الخلائق»[1].

وروى بريد بن خليفة عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة اقتربت أخرجه الله من قبره على ناقة من نوق الجنة». ختم الله[2] تلك السورة بذكر أزفت الآزفة وافتتح هذه السورة بمثله فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا

١ـ مجمع البيان، ج٩، ص٣٠٧، و نور الثقلين، ج٥، ص١٧٤.

٢ـ ثواب الاعمال، ص١١٦، و وسائل الشيعة، ج٤، ص٨٩٣.

﴿وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾

الاقتراب لزيادة مبالغة في القرب كما في اقتدر مبالغة على قدر أي قربت الساعة الّتي تموت فيها الخلائق وتكون القيامة والساعة جزءاً من أجزاء الزمان عبّر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك لسرعة حسابها أو لأنّها يقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنّها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم.

قال‌ﷺ: **«إنّ الله جعل الدنيا كلّها قليلاً فما بقي منها قليل من قليل ومثل ما بقي منها مثل الغدير شرب صفوه وبقي كدره»**[1] فالاقتراب في الآية يدلّ على مضيّ الأكثر ويمضي الأقلّ عن قريب كما مضى الأكثر.

قال صاحب تفسير «روح البيان»: وقد قيل: إنّ مدّة هذه الأمد تزيد على ألف بنحو خمسمائة سنة ولا يكون الزيادة إلى خمسمائة سنة بعد الألف من الهجرة لعدم ورود الأخبار في ذلك وقد قال‌ﷺ: **«مثلي ومثل الساعة كفرس رهان»**. فإذا وجوده‌ﷺ من أشراط الساعة فمعجزاته من انشقاق القمر تكون كذلك. قيل: إنّ آدم خاطبته الدنيا وقالت: يا آدم جئت وقد انقضى شبابي. فآدم على هذا التقدير جاء إلى الدنيا وقد انقضى عمرها وبقي شيء قليل منها وعلى هذا يحمل قول من قال: إنّ عمر الدنيا سبعون ألف سنة. وأمّا تعيين وقت الساعة فقد انفرد الله بعلمه وأخفاه عن عباده وفي الحديث: إنّ بين يدي الساعة كذّابين فاحذروهم والمراد بالكذّابين الدجاجلة وهم الأئمّة المضلّون فكلّ كذّاب مبتدع فهو من مقدّمات الدجّال وأصحابه كما أنّ كلّ أهل صدق وحقّ من مقدّمات المهديّ.

﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ قال ابن عبّاس: اجتمع المشركون إلى رسول الله فقالوا: إن كنت صادقا فانشقّ القمر فرقتين. فقال لهم‌ﷺ: **«إن فعلت تؤمنون؟»** قالوا: نعم،

١ـ المستدرك الحاكم النيشابوري، ج٤، ص٣٢٠، و كنز العمال، ج٣، ص١٨٩.

وكانت ليلة بدر فسأل رسول اللّه ربّه أن يعطيه ما قالوا؛ فانشقّ القمر فرقتين ورسول اللّه ينادي: «يا فلان يا فلان اشهدوا»[1] قال عبد اللّه بن مسعود: انشقّ القمر على عهد رسول اللّه شقّتين فقال لنا رسول اللّه: «اشهدوا اشهدوا»[2]. وروي أيضاً عن ابن مسعود أنّه قال: والّذي نفسي بيده لقد رأيت الحراء بين فلقي القمر[3]. وعن جبير بن مطعم قال: انشقّ القمر على عهد رسول اللّه فرقتين على هذا الجبل وهذا الجبل فقال ناس: سحرنا محمّد[4].

وقد روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة منهم عبد اللّه بن مسعود وأنس بن ملك وحذيفة بن يمان وابن عمر وابن عبّاس وجبير بن مطعم وعبد اللّه عمر وعليه جماعة من المفسّرين إلّا ما روي عن عثمان بن عطا عن أبيه أنّه قال: سينشقّ القمر وأنكره الباقون.

قال البلخيّ: هذا لا يصحّ لأنّ المسلمين أجمعوا على ذلك فلا يعتدّ بخلاف من خالف فيه لأنّ اشتهاره بين الصحابة يمنع من القول بخلافه.

ومن طعن في ذلك بأنّه لو وقع انشقاق القمر لما كان يخفى على أحد من أهل الأقطار فقول باطل لأنّه يجوز أن يكون اللّه قد حجبه عن أكثرهم لمصلحة لا نعرفها وقد رآه المقترحون. وفي كتاب «فتح الباري» لابن حجر: إنّ الجذع وانشقاق القمر نقل مستفيضاً يفيد القطع عند من يطّلع على طرق الحديث وأسند أبو إسحاق الزجّاج عشرين حديثاً إلّا واحدا في تفسيره في انشقاق القمر، قال سعدي المفتي: وقد رواه ستّون أو أكثر من الصحابة.

١ـ تفسير القرطبي، ج١٧، ص١٢٧، و تفسير الصافي، ج٧، ص٤٧، و زادالمسير، ج١٧، ص٢٤٢.

٢ـ مجمع البيان، ج٩، ص٣١٠، و نور الثقلين، ج٥، ص١٧٤، و زادالمسير، ج٧، ص٢٤٢، و مسند أبي يعلي، ج٨، ص٣٧٩.

٣ـ مجمع البيان، ج٩، ص٣١٠، و بحار الانوار، ج١٧، ص٣٤٧.

٤ـ تفسير الصافي، ج٧، ص٤٧، و مجمع البيان، ج٩، ص٣١٠.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ﴾ إخبار عن حال كفّار قريش إن يروا آية من آيات اللّه وهي معجزة لمحمّد ﷺ ودليل على صدق نبوّته يعرضوا عن التأمّل فيها ليقفوا على حقيقتها فيؤمنوا ﴿وَيَقُولُواْ﴾ هذا ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ مطّرد دائم يأتي به محمّد ﷺ كسائر أنواع السحر. والاستمرار بمعنى الاطّراد أي تبع بعضه بعضاً وهو يدلّ على أنّهم رأوا قبل انشقاق القمر آيات اخرى مترادفة حتّى يقولوا ذلك وفيه تأييد وقوع الانشقاق لا أنّه سينشقّ يوم القيامة كما قاله بعض. ويجوز مستمرّ بالكسر من المرّة والقوّة أي سحر ذو قوّة شديدة يعلو كلّ سحر وقيل: معناه مستمرّ أي ذاهب يزول ولا يبقى من المرور.

﴿وَكَذَّبُواْ﴾ بالنبيّ ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ الّتي زيّنها الشيطان لهم من ردّ الحقّ بعد ظهوره أو كذّبوا الآية الّتي هي الانشقاق وقالوا: سحر أعيننا والقمر بحاله ولم يصبه شيء.

﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ أي: وكلّ ما وعد اللّه به كائن في وقته وحاصل لا محالة فالخير يستقرّ بأهله والشرّ بأهله أو أنّ المعنى كلّ أمر من خير وشرّ مستقرّ ثابت حتّى يجازي به صاحبه إمّا في الجنّة أو في النار.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ أي: وباللّه لقد جاءهم يعني أهل مكّة في القرآن من الأخبار النافعة ولا يقال لخبر في الأصل: نبأ حتّى يكون ذا فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظنّ أي: أتاهم في القرآن أنباء القرون الخالية وأحوال الآخرة وما وصف من عذاب الكفّار ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ أي: ازدجار أو موضع ازدجار وتاء الافتعال يقلب دالا للتناسب في المخرج يقال: زجره أي نهاه عن السوء ووعظه غير أنّ افتعل أبلغ في المعنى من فعل وأيضا الزجر طرد بصوت ثمّ استعمل في الطرد تارة وفي الصوت تارة فحينئذ قوله: ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾ أي: فيه طرد ومنع عن ارتكاب المآثم.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ لا خلل فيها وقد بلغت الغاية في الإنذار والموعظة وهو بدل من ما أو خبر لمحذوف والحكمة بالكسر العدل والعلم والحكم والنبوّة والقرآن وإصابة الحقّ بالعلم وإذا وصف القرآن بالحكيم فلتضمّنه الحكمة وهي علميّة وعمليّة والقرآن حاولهما ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ ومفعول تغني محذوف أي لم تغن النذر شيئا إذا كذّبوا وما تنفعهم لتكذيبهم وفيه إشارة إلى عدم انتفاع النفوس المتمرّدة بإنذار منذر الروح ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ والفاء للسببيّة أي بسبب أنّ الإنذار لا يؤثّر فيهم أعرض عنهم إلى أن تؤمر بقتالهم وانتظر عقوبتهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ أصله يدعو الداعي لمّا حذف الواو يدعو من التلفّظ لاجتماع الساكنين حذفت في الخطّ أيضاً اتّباعا للّفظ وأسقطت الياء من الداعي للاكتفاء بالكسرة تخفيفا ويوم منصوب بيخرجون والداعي إسرافيل ينفخ في الصور قائماً على صخرة بيت المقدس ويدعو الأموات وينادي: أيّتها العظام البالية واللحوم المتمزّقة والشعور المتفرّقة إنّ الله يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء. وقيل: إنّ إسرافيل ينفخ وجبرئيل يدعو وينادي بذلك وقال بعضهم: هو مجاز كالأمر في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فحينئذ الدعاء في البعث مثل كن في التكوين ويكون الدعاء عبارة عن مشيّة والأصحّ بقاؤه على حقيقته. ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي: منكر غير معتاد بل أمر فظيع لم يروا مثله، قرئ بضمّتين وقرئ بسكون الكاف وكلاهما بمعنى المنكر ينكره النفوس وهو هول يوم القيامة ومنه منكر ونكير لأنّه لم يعهد عند الميّت مثلها.

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ حال من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أي: خاشعة أبصارهم وذليلة خاضعة عند رؤية العذاب وإنّما وصف الأبصار بالخشوع لأنّ ذلّة الذليل وعزّة العزيز تتبيّن وتظهر في العين ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور حال

كونهم ذليلين ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموّج والتفرق في الأقطار.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي: مسرعين إلى جهة الداعي مادّين أعناقهم إليه ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم يقال: هطع الرجل إذا أقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه وأهطع إذا مدّ عنقه وأهطع في عدوه إذا أسرع. ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ استيناف وقع جوابا عمّا نشأ من وصف اليوم بالأهوال كأنّه قيل: فماذا يكون حينئذ فقيل في الجواب: يقول الكافرون ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: صعب شديد علينا فيمكثون بعد الخروج من القبور واقفين أربعين سنة يقولون: أرحنا من هذا أو إلى النار ثمّ يؤمرون بالحساب وفي إسناد القول المذكور إلى الكفّار تلويح بأنّ المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة من الشدّة بل ذلك اليوم يسير لهم ببركة إيمانهم وأعمالهم بل المطهّرون الّذين ما تدنّست بواطنهم بالشبهة المضلّة ولا ظواهرهم أيضاً بالمخالفات الشرعيّة آمنون.
﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: فعل التكذيب قبل قومك قوم نوح تسلية للرسول ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحا تفسير لذلك التكذيب المبهم مثل قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ﴾[1] فالمكذّب والمقامان واحد والفاء تفصيليّة تفسيريّة تعقيبيّة في الذكر فإنّ التفصيل يعقّب الإجمال وفي ذكره بعنوان العبوديّة مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم لنوح عليه السلام ورفع لحاله وزيادة تشنيع لمكذّبيه وإشارة إلى أنّه لا شيء أشرف من العبوديّة. ﴿وَقَالُوا﴾ في حقّه ﴿مَجْنُونٌ﴾ قد غطي على عقله ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي: وزجر بالشتم والرمي بالقبيح وتوعّد بالقتل ومنع عن التبليغ بأنواع الأذيّة وقيل: المعنى أنّ وازدجر من جملة ما قالوه أي هو مجنون وقد ازدجرته الجنّ وتخبّطته وأفسدته وذهبت بلبّه.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ أي: لمّا زجروا نوحا عن الدعوة ومنعوه أشدّ المنع وبلّغ

١ـ سورة هود: ٤٥.

مدّة التبليغ وكمل إلى تسعمائة وخمسين سنة دعا ربّه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ أي: بأنّي مغلوب من جهة قومي ومالي قدرة على الانتقام منهم ﴿فَانتَصِرْ﴾ فانتقم لي منهم وذلك بعد تقرّر يأسه منهم فقد روي أنّ الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتّى يخرّ مغشيًا فيفيق ويقول: اللهمّ اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون فلمّا أذن الله له في الدعاء للإهلاك دعا فأجيب كما قال في الصافّات: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾[1].

فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

ثمّ بيّن سبحانه إجابته لدعاء نوح فقال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ هاهنا حذف تقديره فاستجبنا لنوح دعاءه فأجرينا الماء من السماء كجريانه إذا فتح عنه باب كان مانعاً له وذلك من صنع الله الّذي لا يقدر عليه سواه ﴿بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ الهمر صبّ الدمع والماء همره يهمره صبّه وانهمر انسكب وسال والمعنى بماء كثير منصبّ لم ينقطع أربعين يوما وكان مثل الثلج بياضاً وبرداً والباء للملابسة.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي شققنا الأرض بالماء عيونا حتّى جرى الماء

١ـ سورة الصافات: ٧٥.

على وجه الأرض قيل: وكان ماء الأرض مثل الحميم حرارة وأصله: وفجّرنا عيون الأرض، فعبّر عن المفعوليّة إلى التمييز قضاء لحقّ المقام من المبالغة.

﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ أي: ماء السماء وماء الأرض وارتفع على أعلى جبل في الأرض مائتين ذراعا ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ على حال قد قدّره الله أو على حالة قدّرت وهو أنّ قدر ما أنزل الله من السماء على قدر ما اخرج من الأرض أو المعنى على أمر قدّره الله في اللوح المحفوظ وهو هلاك قوم نوح وإنّما لم يثنّ ولم يقل: فالتقى الماء ان لأنّه اسم الجنس يقع على القليل والكثير.

﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ﴾ أي: حملنا نوحا على سفينة ذات ألواح مركّبة جمع بعضها إلى بعض وألواحها خشباتها الّتي صنعت منها واللوح كلّ صحيفة عريضة ﴿وَدُسُرٖ﴾ جمع دسار وهو الدفع الشديد بقهر سمّي به المسمار لأنّه يدسر به منفذه ويدفع بالدقّ. ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي: تجري السفينة وتسير بمرأى منّا ومحفوظة بحفظنا ومنه قولهم للمودّع: عين الله عليك ﴿جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي فعلنا بهم ما فعلنا من إغراقهم جزاء لمن جحد نبوّته وكفر بالله.

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ قيل: الضمير راجع إلى الفعلة وهي الغرق وقيل: راجع إلى السفينة أبقاها الله دهرا طويلا بياقردى من بلاد الجزيرة وفي تفسير أبي الليث إنّ تلك السفينة كانت باقية على الجبل الجوديّ قريبا من خروج النبيّ ﷺ ثمّ اضمحلّت ألا ترى أنّ مقام إبراهيم مع كونه حجرا صلدا لم يبق أثره بكثرة مسح الأيدي ثمّ لم يبق نفسه على ما هو الأصحّ والمعروف بالمقام الآن هو مقام ذلك المقام وقيل: المراد من قوله: ﴿تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ أي جنس السفينة صارت عبرة وأنّ الناس لم يعرفوا قبل ذلك سفينة واتّخذوا السفن بعد ذلك في البحر فكذلك كانت آية للناس. قال

بعضهم: لم يكن في الدنيا قبل الطوفان إلّا البحر المحيط وذلك أنّ اللّه أمر الأرض بعد الطوفان فابتلعت ماءها وبقي ماء السماء لم تبلعه الأرض فهذه البحور على وجه الأرض منها وأمّا البحر المحيط فغير ذلك بل هو جزر عن الأرض حين خلق اللّه الأرض من زبده وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ وبالجملة وكان نوح نجّارا فجاء جبرئيل وعلّمه صنعة السفينة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أصله مدتكر أدغمت الدال في التاء ثمّ قلبت دالا مشدّدة. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ استفهام تعجيب وتعظيم على كيفيّة هائلة لا يحيط بها الوصف والنذر جمع نذير أصله نذيري حذفت الياء واكتفي بالكسرة.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: وباللّه لقد سهّلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم كما قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ ﴿لِلذِّكْرِ﴾ بأن وشحناه بانواع العبر والمواعظ وعن الحسن عن النبيّ ﷺ لو لا قول اللّه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ لما أطاقت الإنس أن يتكلّم به ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إنكار ونفي للمتّعظ.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ بالرسول الّذي بعثه اللّه إليهم وهو هود فاستحقّوا الهلاك فأهلكهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ لهم ﴿وَنُذُرِ﴾ أي وإنذاري.

ثمّ بيّن كيفيّة إهلاكهم فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: شديدة الهبوب وقيل: المراد من الصرّ وهو البرد أو من صرّ الباب والقلم أي شديدة الصوت وهي ريح الدبور وتقدّم تفصيله ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾ النحس ضدّ السعد أي شؤوم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ صفة ليوم أو نحس أي استمرّ شؤمه عليهم واتّصل عذابهم في الدنيا حتّى اتّصل بالعقبى وروى العيّاشيّ عن أبي جعفر أنّه كان في يوم الأربعاء آخر الشهر لا تدور ويمكن أن يكون المراد من اليوم الحين وابتداء ذاك يوم الأربعاء.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: ريحا تقلع الناس روي أنّهم دخلوا الشعاب والحفر

وتمسّك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى أو ينزع أرواحهم من أجسادهم دامت عليهم سبع ليالي وثمانية أيّام كيلا ينجو منهم أحد ممّن في كهف أو سرب فأهلكت من كان ظاهرا ومستتراً بالاقتلاع والهدم أو الجوع والعطش ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ عجز الإنسان مؤخّره والنخل اسم جنس يفرق بين جمعه وواحده بالتاء، والمنعقر المنقلع عن أصله قيل: شبّهوا بأعجاز النخل وهي أصولها بلا فروع لأنّ الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رؤوس.

قال أبو الليث: صرعتهم وكبّتهم على وجوههم كأنّهم اصول نخل منقلعة من الأرض فشبّههم لطولهم بالنخل الساقط، قال مقاتل: كان طول كلّ واحد منهم اثني عشر ذراعا وقال الكلبيّ: كان طول كلّ واحد منهم سبعين ذراعا فاستهزءوا حين ذكر لهم الريح فخرجوا إلى الفضاء وضربوا بأرجلهم وغيّبوا في الأرض إلى قريب من الركبة فقالوا: قل للريح حتّى ترفعنا فجاءت الريح وجعلت ترفع كلّ اثنين وتضرب أحدهما بالآخر بعد ما ترفعهما في الهواء ثمّ تلقيهما في الأرض ثمّ رمت بالرمل والتراب عليهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مرّ تفسيرها.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ أي: الإنذار الّتي سمعوها من صالح أو بالرسل فإنّ تكذيب أحدهم تكذيب للكلّ للاتّفاق على الأصول ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا﴾ أي: من جنسنا وانتصاب بشر بفعل يفسّره ما بعده ﴿وَاحِدًا﴾ أي: منفرداً لا تبع له أو واحدا من آحادهم لا من أشرافهم ﴿نَّتَّبِعُهُ﴾ في أمره ﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: تقدير اتّباعنا له وهو منفرد ونحن أمّة، في الغواية عن الحقّ والصواب وجنون، يقال: ناقة مسعورة إذا كان بها جنون وأصله التهاب الشيء.

أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ
ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ
﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ
ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ﴾ بقية من كلام القوم أي أألقي الكتاب والوحي ﴿عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وفينا من هو أحقّ بذلك والاستفهام للإنكار ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ شديد الكذب فيما يقوله بطر متكبّر يريد أن يتعظّم علينا بالنبوة ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ وهذا وعيد لهم سيعلمون يوم القيامة إذا نزل بهم العذاب أهو الكذّاب أم هم في تكذيبه فذكر مثل لفظهم مبالغة في توبيخهم وإنّما قال: ﴿غَدًا﴾ على وجه التقرّب على عادة الناس كما يقال: إنّ مع اليوم غداً.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ باعثو الناقة بإنشائها على ما طلبوها معجزة لصالح واختبارا لهم إذ بها يتميّز المثاب من المعاقب ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي انتظر يا صالح فيهم أمر الله ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على ما يصيبك من الأذى حتّى يأتي أمر الله.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ يوم للناقة ويوم لهم ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي: كلّ نصيب من الماء يحضره أهله لا يحضر آخر معه ففي يوم الناقة يحضر الناقة وفي يومهم يحضرونه وحضر واحتضر بمعنى واحد وإنّما قال: ﴿قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ تغليبا لمن يعقل. ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ وهو قدار بن سالف بضمّ القاف وكان قصيراً شريراً أزرق أشقر أحمر يلقّب باحيمر ثمود ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ مجاز عن الاجتراء والتعاطي تناول الشيء بتكلّف والعقر ضرب القوائم أي فاجترأ صاحبهم قدار على تعاطي الأمر العظيم فأحدث العقر بالناقة ومعنى ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ أي: نبّهوا قدار على مجيء الناقة وقربها من مكمنه.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مرّ تفسيره ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي صيحة جبرئيل جزاء الوفاق لفعلهم فإنّهم صاروا سببا لصيحة الولد بقتل امّه ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أي: فصاروا لأجل تلك الصيحة بعد أن كانوا في نضارة عيش ودعة كاليابس المكسّر من الشجر وغيره وأصله جمع الشيء في حظيرة والمحتظر بكسر الظاء الّذي يجمع ويعمل الحظيرة قال الجوهريّ: الحظيرة الّتي تعمل للإبل من الشجر لتقيها البرد والريح.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ مرّ تفسيره ونعم المذكّر القرآن لكن لصالح النفس لا لثمود النفس.

وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهلة

وهي قبيلة تعرف بالدناءة وحقيقة النفس واحدة غير متعدّدة لكن بحسب توارد الصفات المختلفة عليها تسمّى بالأسماء المختلفة فإذا توجّهت إلى الحقّ توجّها تسمّى بالمطمئنّة وإذا توجّهت إلى الطبيعة البشريّة توجّهاً كلّيّاً تسمّى بالأمّارة وإذا توجّهت إلى الحقّ تارة وإلى الطبيعة اخرى تسمّى اللوّامة.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ بالإنذار أو بالمنذرين وهم الرسل ومن كذّب نبيّاً فقد كذّب بالأنبياء ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً حصبتهم ورمتهم بالحجارة

والحصباء، يريد ما حصبوا من الحجارة في الريح. قال الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام تضربنا   بحاصب كنديف القطن منثـورا

ثمّ استثنى آل لوط، خلصناهم بسحر من ذلك العذاب من الأسحار وهو السدس الأخير من الليل أو السحر وقت اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار والاستثناء منقطع لأنه مستثنى من الضمير في عليهم ولا يدخل فيهم آل لوط ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أنعمنا إنعاماً منّا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة من المؤمنين.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أنذر لوطعليه السلام أخذتنا الشديدة بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا﴾ فكذّبوا ﴿بِالنُّذُرِ﴾ متشاكّين وأصله تماريوا على وزن تفاعلوا.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ والمراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فترود غير ما يروده لأنهم أرادوا من لوط تمكينهم من أضيافه وهم الملائكة في صورة الشبّان ومعهم جبرئيل وقصدوا الفجور بهم ظنّا منهم أنهم بشر. ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ والطمس المحو واستيصال أثر الشيء أي مسحناها وسوّيناها كسائر الوجه بحيث لم ير لها شقّ روي أنهم لمّا دخلوا دار لوط عنوة صفقهم جبرئيل بجناحه فتركهم يتردّدون لا يهتدون إلى الباب حتّى أخرجهم لوط والصفق الضرب الّذي ليس له صوت.

﴿فَذُوقُوا﴾ قلنا لهم على ألسنة الملائكة: ذوقوا ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ والطمس من جملة ما أنذروه ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ أي: جاءهم وقت الصبح ﴿عَذَابٌ﴾ الخسف والحجارة ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ يستقرّ بهم ويثبت لا يفارقهم حتّى يفضي بهم إلى النّار عذاب دائم متّصل بعذاب القيامة لأنهم ينتقلون إلى البرزخ الموصول بالقيامة كما أشار إلى هذا المعنى قوله صلى الله عليه وآله: «من مات قامت قيامته»[1].

١ـ بحار الانوار، ج٥٨، ص٧، و تفسير الصافي، ج١، ص١٢٠، و انظر: كنزالعمال، ج١٥، ص٦٨٦، و تفسيرالميزان، ج٢، ص١٠٩.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مرّ ما فيه من التفسير.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ أي: وبالله لقد جاءهم الإنذارات من جهة موسى وهارون ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يعني: الآيات التسع وهي اليد والعصا والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم وحلّ عقدة من لسانه وانفلاق البحر.

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ بالعذاب عند التكذيب ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يغالب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ ولا يعجزه شيء والعذاب هو الإغراق في بحر القلزم أو النيل ولعلّ سرّ العذاب بالغرق أنّ فرعون كفر نعمة وجود موسى حيث وصل فرعون إلى تلك النعمة بسبب الماء الّذي ساقه إليه في تابوته فلم يشكر لا نعمة الماء ولا نعمة موسى فانقلبت النعمة نقمة فأهلكه بالماء.

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ
﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ
﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا
مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ
﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ
فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾
فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا معشر العرب ﴿خَيْرٌ﴾ عند الله قوة وشدة ﴿مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ المعدودين من قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون وأصابهم ما أصابهم مع كونهم أقوى منكم عدّة وعدداً فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ إضراب أي بل ألكم براءة وأمن من عذاب الله بمقابلة كفركم نازلة لكم في الكتب السماويّة فلذلك تصرّون على كفركم وتأمنون بتلك البراءة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ جهلاً منهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ والالتفات للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب أي بل أيقولون واثقين بشوكتهم نحن أولو حزم وأمرنا مجتمع لا نرام ولانضام ومتناصرين ينصر بعضنا بعضاً على أن يكون افتعل بمعنى تفعّل مثل اختصم والإفراد في منتصر باعتبار لفظ جميع قال أبو جهل ـ وقد ركب فرساً كميتاً وقد حلف أنّه يقتل محمّداًﷺ ـ: وننتصر اليوم من محمّد وأصحابه. وجرّ رأسه إلى رسول الله. عن ابن مسعود.

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ردّ وإبطال لقولهم أي سيهزم جمع قريش البتّة ويولّون الأدبار والإفراد في الدبر إرادة الجنس أي ينصرفون عن الحرب منهزمين وينصر الله رسوله والمؤمنين وقد كان ذلك يوم بدر قال ابن عبّاس: بين نزول هذه الآية وبدر سبع سنين فالآية على هذا مكّيّة.

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: ليس هذا تمام عقوبتهم بل القيامة موعد أصل عذابهم وهذا العذاب القليل من طلائعه ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ والقيامة أعظم داهية وأقصى غاية من الفظاعة والداهية الأمر الّذي لا يهتدي إلى الخلاص منه ﴿وَأَمَرُّ﴾ وأشدّ مرارة كما أنّ نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نارها.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين والكافرين من الأوّلين والآخرين ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: في هلاك ونيران مسعرة ملتهبة أي في هلاك وضلال عن الحقّ في الدنيا ونيران في الآخرة.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ أي: يوم القيامة يجرّون في نار جهنّم على وجوههم يقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ على لحنهم ولذلك لم يصرف أو اسم لطبقتها الخامسة من سقرته النار إذا غيّرته والمسّ كاللمس وهو إدراك ظاهر البشرة أي قاسوا حرّها وألمها فإنّ مسّها سبب للتألّم بها.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ من الأشياء وهو منصوب بفعل يفسّره ما بعده، خلقناه بقدر متعيّن اقتضته الحكمة الّتي عليها يدور أمر المتكوين فقدر بمعنى التقدير وهو تسوية صورته وشكله وصفاته أو المعنى خلقناه مقدّراً مكتوباً في اللوح قبل وقوعه فحينئذ المراد تقديره في علمه الأزليّ قضاء فالقضاء وجود جميع المخلوقات في اللوح والقدر وجودها في الأعيان بعد حصول شرائطها والتعبير عن الخلق متعلّق بالوجود الظاهريّ في الوقت المعيّن وفي الحديث كتب اللّه مقادير الخلق كلّه قبل أن يخلق السماوات والأرض خمسين ألف سنة وعرشه على الماء.

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ﴾ لشيء نريد تكوينه ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ لا تثنّى سريعة التكوين يعبّر بالكلمة أي كن لأنّه تعالى تكلّم بكن والمراد إرادة من كن الإرادة المحضة ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ اللمح لمعان البرق وسرعة النظر وحاصل المعنى أنّ قضاءه في الخلق أسرع من لمح البصر.

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ أي: أشباهكم في الكفر من الأمم جمع شيعة وهو من يتقوّى به من الإنسان وأنصاره وأتباعه ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنّث ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ متّعظ يتّعظ بذلك فيخاف.

﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ من الكفر والمعاصي مكتوب على الفصيل في ديوان الحفظة جمع زبور بمعنى الكتاب فهو بمعنى مذبور كالكتاب بمعنى المكتوب ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ﴾ من الأعمال ﴿مُّسۡتَطَرٌ﴾ ومسطور في الكتاب بتفاصيله يقال: استطره أي كتبه، روي أنّ النبيّ ﷺ ضرب لصغائر الذنوب مثلاً فقال: «إنّما محقّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض وحضر جميع القوم فانطلق كلّ واحد منهم بحطب فجعل الرجل يجيء بالعود

والآخر بالعود حتّى جمعوا سواداً وأججوا ناراً فشووا خبزهم ولحمهم وإنّ الذنب الصغير يجتمع على صاحبه فيهلكه إلّا أن يغفر الله له»[1]. اتّقوا صغائر الذنوب ومحقّراتها فإنّ لها من الله طالبا. ولقد أحسن من قال:

خلّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى

واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صغيرة إنّ الجبال من الحصى

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من المعاصي ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ أي بساتين عظيمة الشأن ﴿وَنَهَرٍ﴾ أي: أنهار الماء والخمر والعسل واللبن والإفراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ خبر بعد خبر والصدق بمعنى الجودة أي في مكان مرضيّ ومجلس حقّ وسالم من الكدورات ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ المراد من العنديّة قرب المكانة لا قرب المكان والمسافة والمليك أبلغ من المالك والتنكير للتعظيم. قال الصادق عليه السلام: «مدح الله المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلّا أهل الصدق»[2] وهو المكان الّذي يصدق الله فيه وعده لأوليائه.

روي وهذه الرواية من طرق العامّة، روى صالح بن حيّان عن عبد الله بن بريدة أنّه صلى الله عليه وآله قال في هذه الآية: «إنّ أهل الجنّة يدخلون كلّ يوم مرّتين على الجبّار تعالى فيقرءون عليه القرآن وقد جلس كلّ امرئ مجلسه الّذي له ومجلسي على منابر الدرّ والياقوت والزمرّد والذهب والفضّة بأعمالهم فلم تقرّ أعينهم بشيء قطّ كما تقرّ أعينهم بذلك ثمّ ينصرفون إلى رحالهم ناعمين قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد»[1].

أقول: ومن المعلوم أنّ المراد بالدخول عليه تعالى دخول القرب

١ـ انظر: مسند احمد، ج٥، ص٣٣١، و مجمع الزوائد، ج١٠، ص١٨٩، و المعجم الصغير، ج٢، ص٤٩.

٢ـ تفسير الثعلبي، ج٩، ص١٧٤، و تفسير البغوي، ج٤، ص٢٦٦.

١ـ تفسير الثعلبي، ج٩، ص١٧٤، و كنز العمال، ج١٤، ص٤٧٦.

والمكانة والشرف في موضع مخصوص في الجنّة وليس المراد أنّه تعالى متحيّز في مكان من الجنّة وهؤلاء يدخلون عليه تعالى شأنه أن يكون متحيّزاً في مجلس ومكان وهذا معنى قولهﷺ: «الفقراء جلساء الله»[1] ومعلوم أنّ مقصد الصدق لا يقعد فيه إلّا الصادقين ولا بدّ أن يكون صادقا في قوله في الدنيا وفعله فيصون اللسان عن الكذب الّذي هو أقبح الذنوب.

قالﷺ: «التجّار هم الفجّار» فقيل: أليس الله قد أحلّ البيع؟ قال: «نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدّثون فيكذبون»[2] قالﷺ: «الكذب ينقص الرزق»[3]. في الحديث: «أربع من كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم: إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإذا خاصم فجر»[4]، وأمّا الصدق في فعله بأن يصون حاله عمّا ينقصه ويفسد عمله غير خالص لله ولا بدّ أن يكون عزمه مستمرّة على دوام الطاعة. نسأل الله أن يرزقنا الصدق والكرامة إنّه حميد مجيد.

تمّت السورة.

١ـ ميزان الاعتدال، ج ١، ص٩٦، و لسان الميزان، ابن حجر، ج ١، ص١٦٨.

٢ـ المستدرك، الحاكم، ج ٢، ص٦، و الدر المنثور، ج ٢، ص١٤٤.

٣ـ كنزلعمال، ج ٣، ص٦٢٣، و ميزان الاعتدال، ج ٣، ص٤٣.

٤ـ انظر: الخصال، ص٢٥٤، و بحار الانوار، ج ٦٩، ص٢٦١، ج ٧٢، ص٩٤، و صحيح مسلم، ج ١، ص٥٦، و سنن أبي داود، ج ٢، ص٤١٠.

فهرس الأحاديث

(أ)

أتاني جبرئيل فعلّمني الوضوء والصلاة ٣٢٧
أترى اللّه أعطى من أعطى من كرامته عليه ٢٥٦
إذا كان يوم القيامة نادى مناد ٤٤
إذا كان يوم القيامة يقول اللّه لي ولعليّ ٢٦٣
أربع من كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم ٣٥٨
أغربوا عنّي هذه الشيطانة ٢١٧
ألا أخبركم بأشراط الساعة؟ ١٨٠
ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ ٢٣٥
الّذين ارتدّوا عن الإيمان في ترك ولاية أمير المؤمنين ١٨٥
إنّ أحبّ أحبّائي إليّ الّذين يستغفرون بالأسحار ٢٧٥
إنّ أدنى أهل الجنّة منزلة من ينادي الخادم من خدّامه فيجيبه ألف خادم ببابه لبّيك لبّيك ٢٩٧
إنّ الرجل يزني ثمّ يتوب فيتوب اللّه عليه ٢٤١
إنّ اللّه تعالى قد فرض لي عليكم فرضاً فهل أنتم مؤدّوه؟ ٢٧
إنّ اللّه جعل الدنيا كلّها قليلا ٣٤٢
إنّ اللّه خلق الأنبياء من أشجار شتّى وخلقت أنا وعليّ من شجرة واحدة ٢٨
إنّ اللّه عزّ وجلّ جعل الخلق قسمين فجعلني في خيرهم قسماً ٢٤٤
إنّ اللّه عزّ وجلّ قد وعدني فلن يخلفني ٢٠٤
إنّ اللّه يرحم أمّتي في هذه اللّيلة بعدد شعر أغنام بني كلب ٩٥

إنّ الله يغفر للمؤمنين جميعا في تلك اللّيلة ٩٥
إنّ النجم رسول الله ٣١٠
إنّ أهل الجنّة يدخلون كلّ يوم مرّتين على الجبّار تعالى ٣٥٧
إن تتولّوا يا معشر العرب يستبدل قوما غيركم يعني الموالي ١٩١
إنّ رسول الله كان يقوم من الليل ثلاث مرّات ٣٠٦
إنّ رضى الناس لا يملك وإنّ ألسنتهم لا تضبط ٣١١
إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذّابين فتوبتك يحتاج إلى توبة ٣٣
إنّ عليّا راية الهدى وإمام أوليائي ونور لمن أطاعني وهو الكلمة الّتي ألزمها ٢٢٣
إنّ في المال حقّا سوى الزكاة ٢٧٦
إنّ من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ١٧٩
إنّ من أشراط القيامة إضاعة الصلاة واتّباع الشهوات ١٨٠
إنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا السقم ولو صحّحته لأفسده ٣٦
أنا ابن من علا فاستعلى فجاء سدرة المنتهى فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى ٣١٦
أنا رسول الله والله أخبرني خبر يونس ١٥٧
أنا رسول الله وإن لم تقرّوا ٢٠٥
أنا سيّد ولد آدم ولا فخر ٢٤٤
أنا عروة الله الوثقى وكلمة التقوى ٢٢٣
أنا من الله والمؤمنون منّي .... ٣١١، ٣٢٢
أنا من أهل البيت الّذين افترض الله مودّتهم على كلّ مسلم ٣١
إنّك على ولاية عليّ وعليّ هو الصراط المستقيم ٧٢
إنّما محقّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض ٣٥٦
إنّه سينقضّ كوكب من السماء مع طلوع الفجر فيسقط في دار أحدكم ٣١٠
إنّه لا يجوز لأحد أن يقسم إلّا بالله والله سبحانه يقسم بما يشاء من خلقه ٢٧٢
إنّي أمرت أن أقرء على الجنّ الليلة فأيّكم يتبعني ١٥٩

أوحى الله إلى نبيّ من أنبيائه قل لمن آمن بي ٢٢٥
أوّل الآيات الدخان ونزول عيسى ٩٩
أوّل من سبق إلى الله وذلك أنّه أقرب الخلق إلى الله بالمكان ٣١٥
أولئك قوم عجلت طيّباتهم وهي وشيكة الانقطاع وإنّما أخرت لنا طيّباتنا ١٥٠
إيّاكم والغيبة فإنّ الغيبة أشدّ من الزنا ٢٤١

(ب)

بكت السماء على يحيى بن زكريّا وعلى الحسين بن عليّ بن أبي طالب ١٠٤
البيت المعمور في السماء الرابعة فيه نهر يقال له الحيوان ٢٩٠

(ت)

التوبة اسم يقع على ستّة أشياء ٣٣

(ج)

الجنّ كانوا أحسن جوابا منكم لما قرأت ١٥٩

(ح)

حصّنوا أموالكم ونساءكم وما ملكت أيمانكم من التلف بقراءة إنّا فتحنا ١٩٤

(ذ)

الذكر القرآن ونحن قومه ونحن المسئولون ٧٣

(ر)

رأيت السدرة رفرف ٣١٩
رأيت جبرئيل نازلا في الأفق على صورته الأصليّة ٣١٩
رحم الله المحلّقين ٢٠٦
رحم الله المقصّرين ٢٠٦

(س)

سبقت رحمتي غضبي من أتاني بشهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله وأنّ علياً وليّ الله ٢٩٠

(ش)

الشفاعة لمن وجبت له النار ممّن أحسن إليهم ٣٤

(ف)

فاطمة بضعة منّي .... ٣٠، ٦٠
فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت ٣١
فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ٢٤٤
فإنّي أتقى ولد آدم ولا فخر وأكرمهم على الله ٢٤٤
فضّلني ربّي بالمفصّل من القرآن ٢٤٧
فقال قبل أن يقوم ٣٠٥
الفقراء جلساء الله ٣٥٨
فوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ٣٧
فيها يفرق كلّ أمر حكيم يخرج منها خير كثير ورجل حكيم ورجل حكيم ورجل حكيم ٩٧

(ك)

كانت الشمس تطلع حمراء وتغيب حمراء ١٠٤
الكذب ينقص الرزق ٣٥٨

(ل)

لا تسبّوا الدهر فإنّ الدهر لا يحدث أمراً فلا تسبّوا فاعلها ١٢٤
لا تسبّوا الدهر فإنّ الله هو الدهر ١٢٤
لا تسبّوا تبعاً فإنّه كان قد أسلم ١٠٧
لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات ٢٣٩

لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت ٢٩٥

لا يلج النار من بكى من خشية الله ولا يدخل الجنة مصرّ على معصية الله ٣٣٩

لأعطينّ الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّاراً غير فرّار ٢١٥

لأعطينّ الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله ٢١٥

لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً فطوبى لمن وصل إلى حق اليقين ٣٣٩

ليس للمؤمن أن يذلّ نفسه ٦١

ليس له في دولة الحق مع الإمام نصيب وله النار ٢٣

(م)

ما أمر الله خازن الرياح أن يرسل على عاد إلّا مثل مقدار الخاتم وذلك القدر أهلكهم ١٥٤

ما جاء ولاية أمير المؤمنين من الأرض ولكن جاءت من السماء مشافهة ٣١٦

ما جئت إلّا لأقضي مناسكي ٢٠٣

ما ضلّ في عليّ وما غوى وما ينطق فيه عن الهوى ٣١٠

ما طلع النجم قط وفي الأرض من العاهة شيء إلّا رفع ٣٠٩

ما من مؤمن إلّا وله باب يصعد عمله وباب ينزل رزقه فإذا مات بكيا عليه ١٠٤

مائة كتاب وأربع كتب أنزل الله على آدم عشر صحائف ٣٣١

مثلي ومثل الساعة كفرس رهان ٣٤٢

من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدّقه بما قال فقد كفر بما أنزل الله على محمّد ٢٩٨

من أدمن قراءة الزخرف آمنه الله في قبره من هوام الأرض ٥٣

من أراد أن يعرف حالنا وحال أعدائنا فليقرأ سورة محمّد فإنّه يراها آية فينا وآية ١٦٥

من صلّى في هذه اللّيلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك ٩٥

من فاتته صلاة العصر فكأنّما وتر أهله وماله ١٨٩

من قرأ الجاثية ستر الله عورته وسكّن روعته عند الحساب ١١٣

من قرأ الجاثية كان ثوابها أن لا يرى النار أبداً ولا يسمع زفير جهنّم ولا شهيقها وهو مع محمّد ١١٣

من قرأ الدخان في ليلة الجمعة غفر له ٩٢

من قرأ حم عسق بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ٥
من قرأ سورة اقتربت أخرجه الله من قبره على ناقة من نوق الجنة ٣٤١
من قرأ سورة الحجرات اعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع الله ومن عصاه ٢٢٧
من قرأ سورة الحجرات في كل يوم أو في كل ليلة كان من زوّار محمّد ٢٢٧
من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك ٩٣
من قرأ سورة الدخان ليلة الجمعة ويوم الجمعة بنى الله له بيتا في الجنّة ٩٣
من قرأ سورة الزخرف كان ممّن يقال له ٥٣
من قرأ سورة الطور جمع الله له خير الدنيا والآخرة ٢٨٩
من قرأ سورة حمعسق كان ممّن يصلّي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون ٥
من قرأ سورة محمّد كان حقّا على الله أن يسقيه من أنهار الجنّة ١٦٥
من قرأ سورة والنجم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بمحمّد ومن جحد به ٣٠٧
من قرأ كلّ ليلة أو كلّ جمعة سورة الأحقاف لم يصبه الله بروعة في الدنيا ١٣١
من كان يدمن قراءة والنجم في كلّ يوم أو في كلّ ليلة عاش محمودا بين الناس ٣٠٧
من كانت نيّته الدنيا فرّق الله عليه أمره وجعل الفقر بين عينيه ٢٣
من مات على حبّ آل محمّد عليهم السلام بشّره ملك الموت بالجنّة ٢٩
المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يخذله ولا يتطاول عليه في البنيان ٢٣٥
المؤمنون كالبنيان يشدّ بعضهم بعضاً ٢٩

(ن)

نزلت عليّ البارحة سورة هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها ١٩٣
نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ٢٨٢

(و)

والّذي نفسي بيده إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ٢٩٦
والكتاب المبين أمير المؤمنين ٩٧

واللّه لقد رقعت مدرعتي هذه حتّى استحييت من راقعها ١٥٠
واللّه ما كان له ذنب ولكنّ اللّه ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة عليّ ما تقدّم من ذنبهم وما تأخّر ١٩٧
واللّيلة المباركة فاطمة ٩٧
وأنبيائه فنسبوا نبيّنا محمّداً إلى أنّه ينطق عن الهوى في ابن عمّه عليّ حتّى كذّبهم اللّه ٣١١
وأهل بيته أهل الذكر وهم المسئولون ٧٣
وأهل بيتي مطهّرون من الذنوب ٢٤٤
وقاف جبل يحيط بالدنيا من زمرّدة خضراء فخضر السماء من ذلك الجبل ٦
ومن قرأ سورة اقتربت في كلّ غبّ بعث يوم القيامة ووجهه على صورة القمر ليلة البدر ٣٤١
ومن قرأ سورة الأحقاف أعطي من الأجر بعدد كلّ رمل في الدنيا عشر حسنات ١٣١
ومن قرأ سورة الدخان في فرائضه ونوافله بعثه اللّه من الآمنين يوم القيامة ٩٣

(ي)

يا عليّ خير آية في كتاب اللّه هذه الآية ٣٨
يا عليّ والّذي بعثني بالنبوّة لقد وجبت لله الوصيّة والخلافة والإمامة بعدي ٣١٠
يا معشر الشيعة خاصموا بحم والكتاب المبين إنّا أنزلناه... .... ٩٧

المصادر

١ـ القرآن الكريم، كتاب الله تبارك وتعالى الحي القيوم.

٢ـ الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين عليه السلام (السجاد) (ت ٩٤ هـ ق)

٣ـ الاحتجاج، الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (ت ٥٨٨ هـ ق).

٤ـ أحكام القرآن، الجصاص، أبي بكر أحمد بن علي الرازي.

٥ـ الاختصاص، الشيخ المفيد، أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ ق).

٦ـ أسباب النزول، الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد بن محمّد النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ ق).

٧ـ الإستبصار فيما اختلف من الأخبار، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).

٨ـ الإستبصار في نسب الصحابة الأنصار، عبدالله بن أحمد بن موفق الدين ابن قدامة (ت: ٦٢٠ هـق).

٩ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، إبن الأثير الجزري، عزالدين علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ ق).

١٠ـ إعانه الطالبين علي حل الفاظ فتح المعين، بكري المكي ابن السيد محمد شطا عمر الله الدمياطي.

١١ـ الألفية والنفلية، الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي.

١٢ـ الأمالي الشيخ الطوسي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).

١٣ـ الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية.

١٤ـ بحار الأنوار، المجلسي، محمّد باقر محمّد تقي (ت ١١١٠ هـ ق).

١٥ـ البداية والنهاية، ابن كثير، ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).

١٦ـ بصائر الدرجات في فضائل آل محمد ﷺ، الصفار، محمد بن حسن (ت ٢٩٠ هـ ق).
١٧ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ ق).
١٨ـ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ ق).
١٩ـ تاريخ (الرسل والأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ ق).
٢٠ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة اللّه الدمشقي (ت ٥٧١ هـ ق).
٢١ـ التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).
٢٢ـ تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الامامية، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).
٢٣ـ التحصين في صفات العارفين، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق).
٢٤ـ تحف العقول، ابن شعبة، أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسين الحراني الحلبي (ت ٣٨١ هـ ق).
٢٥ـ تحفة الأحوذي (شرح جامع الترمذي)، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري الهندي.
٢٦ـ تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).
٢٧ـ تذكرة الموضوعات، أبو الفضل محمد بن طاهر بن أحمد المقدسي.
٢٨ـ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد العمادي أبو السعود.
٢٩ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل فى تفسير القرآن)، حسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ ق).
٣٠ـ تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت ٦٩١ هـ ق).
٣١ـ تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، ابو اسحاق احمد بن ابراهيم الثعلبي النيشابوري (ت ٤٣٧ هـ ق).
٣٢ـ تفسير الجلالين، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي.
٣٣ـ تفسير روح المعانى، ابو الفضل، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ ق).
٣٤ـ تفسير الرازي (روض الجنان وروح الجنان فى تفسيرالقرآن)، ابوالفتوح حسين بن على الرازي.

٣٥ـ تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، نصر بن محمد بن احمد السمرقندي.
٣٦ـ التفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
٣٧ـ تفسير العياشي، ابن عياش، أبو النضر محمّد بن المسعود بن محمّد التميمي الكوفي السلمي السمرقندي (من أعلام القرن الثالث الهجري).
٣٨ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤هـ ق).
٣٩ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، القرطبي، أبو عبدالله محمّد أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ ق).
٤٠ـ تفسير القمي، القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم بن هاشم (ت ٣٠٧ هـ ق).
٤١ـ تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ ق).
٤٢ـ التفسير المنسوب الي الإمام العسكري عليه السلام.
٤٣ـ تفسير جوامع الجامع، فضل بن حسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ ق).
٤٤ـ تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، محمد بن محمد رضا القمي المشهدي.
٤٥ـ تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ ق).
٤٦ـ تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام، ورام بن أبي فراس (ت ٦٠٥ هـ ق).
٤٧ـ تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، شرف الاسلام بن سعيد المحسن بن كرامة (ت ٤٩٤ هـ ق).
٤٨ـ تنزية الأنبياء، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).
٤٩ـ تهذيب الأحكام، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).
٥٠ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ ق)
٥١ـ ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق)
٥٢ـ جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجردي، (ت ١٣٨٠ هـ ق)
٥٣ـ جامع الأخبار، محمد بن محمد الشعيري (من اعلام القرن السادس الهجري).

٥٤ـ جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ ق).

٥٥ـ جامع السعادات، العلامة النراقي، محمد مهدي بن أبي ذر (ت ١٢٠٩ هـ ق).

٥٦ـ جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري الدوسي (ت ٣٢١ هـ ق).

٥٧ـ الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، محمد بن حسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

٥٨ـ جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، محمد حسن بن باقر النجفي (ت ١٢٦٦ هـ ق).

٥٩ـ الحبل المتين في أحكام الدين، الشيخ البهائي، الشيخ محمد بن حسين العاملي (ت ١٠٣٠ هـ ق).

٦٠ـ الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦ هـ ق).

٦١ـ حلية الأبرار في أحوال محمّد وآله الأطهار عليهم السلام، السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ ق).

٦٢ـ الخصال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٦٣ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ ق).

٦٤ـ الدعوات (سلوة الحزين)، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٦٥ـ رسائل المرتضى، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).

٦٦ـ روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، محمد بن احمد الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ ق).

٦٧ـ زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ ق).

٦٨ـ زبدة البيان في أحكام القرآن، المقدس الأردبيلي، احمد بن محمد (ت ٩٩٣ هـ ق).

٦٩ـ سعد السعود، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٧٠ـ سنن ابن ماجة، ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ ق).

٧١ـ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير بن سداد الأزدي (ت ٢٧٥ هـ ق).

٧٢ـ السنن الكبرى، البيهقي، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨ هـ ق).

٧٣ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ ق).

٧٤ـ السيرة الحلبية (انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون)، الحلبي، علي بن إبراهيم الحلبي الشافعي.

٧٥ـ شجرة طوبى، محمد مهدي الحائري.

٧٦ـ شرح احقاق الحق، السيد شهاب الدين المرعشي النجفي (ت ١٤١١ هـ ق).

٧٧ـ شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١ هـ ق).

٧٨ـ شرح الأزهار (المنتزع المختار من الغيث المدرار)، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ ق).

٧٩ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله بن محمّد بن الحسين المدائني المعتزلي (ت ٦٥٥ هـ ق).

٨٠ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحاكم الحسكاني، عبيدالله بن عبدالله بن أحمد الحذاء الحنفي النيسابوري (من أعلام القرن الخامس الهجري) (المتوفى بعد سنة ٤٧٠ هـ ق).

٨١ـ صحيح البخاري، البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن مغيرة بن بودزيه الجعفي (ت ٢٥٦ هـ ق).

٨٢ـ صحيح مسلم، القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ ق).

٨٣ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد الواقدي، محمّد بن سعد بن منيع الزهري الكاتب (ت ٢٣٠ هـ ق).

٨٤ـ عدة الداعي ونجاح الساعي، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق).

٨٥ـ علل الشرايع، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٦ـ عوالي اللآلي العزيزيّة، ابن أبي جمهور، محمّد بن علي بن إبراهيم الاحسائي (من أعلام القرن التاسع الهجري).

٨٧ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٨ـ عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من اعلام القرن السادس الهجري).

٨٩ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني، أحمدبن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ ق).

٩٠ـ الفتوحات المكية، محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (ت ١٢٤٠ هـ ق).

٩١ـ فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٢ـ الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، ابن الصباغ، علي بن محمّد بن أحمد المالكي المكّي (ت ٨٥٥ هـ ق).

٩٣ـ فقه القرآن، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٩٤ـ فلاح السائل ونجاح المسائل، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٥ـ فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، المناوي، أبو زكريّا يحيى بن محمّد عبدالرؤوف (ت ١٠٣١ هـ ق).

٩٦ـ قواعد المرام في علم الكلام، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٩٩ هـ ق).

٩٧ـ الكافي، الكليني أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن اسحاق الرازي (ت ٣٢٨ هـ ق).

٩٨ـ كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، اسماعيل بن محمد (ت ١١١٩ هـ ق).

٩٩ـ كشف الغطاء عن مبهمات شريعة الغراء، كاشف الغطاء، جعفر بن خضر (ت ١٢٢٧ هـ ق).

١٠٠ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت ٩٧٥ هـ ق).

١٠١ـ كنز الفوائد، محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ ق).

١٠٢ـ كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق، عبدالرؤف بن تاج العارفين المناوي الحدادي (ت ١٠٣١ هـ ق).

١٠٣ـ لسان العرب، ابو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١ هـ ق).

١٠٤ـ لسان الميزان، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢ هـ ق).

١٠٥ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل (ت ٥٤٨ هـ ق).

١٠٦ـ المجموع في شرح المهذب، يحيي بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ ق).
١٠٧ـ المحاسن، ابو جعفر احمد بن محمد بن خالد البرقي، (ت ٢٨٠ هـ ق).
١٠٨ـ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
١٠٩ـ المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦ هـ ق).
١١٠ـ المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ ق).
١١١ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ ق).
١١٢ـ مصباح المتهجد، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٣ـ المصنف في الأحاديث والآثار، ابن ابي شيبة، أبوبكر عبدالله بن محمّد بن ابراهيم بن عثمان العنبسي الكوفي (ت ٢٣٥ هـ ق).
١١٤ـ مكارم الأخلاق، ابو نصر رضي الدين حسن بن فضل الطبرسي (من اعلام القرن السادس الهجري).
١١٥ـ الملاحم والفتن، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٦ـ من لايحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
١١٧ـ مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ابو جعفر رشيد الدين محمّد بن علي السروي المازندراني (ت ٥٨٨ هـ ق).
١١٨ـ الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ ق).
١١٩ـ النصائح الكافية، السيد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي (ت ١٣٥٠ هـ ق).
١٢٠ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

المحتويات

سورة الشورى.. ٥

سورة الزخرف ٥٣

سورة الدخان.. ٩٣

سورة الجاثية ١١٣

سورة الأحقاف.. ١٣١

سورة محمد ﷺ ١٦٥

سورة الفتح ١٩٣

سورة الحجرات ٢٢٧

سورة ق ٢٤٩

سورة الذاريات.. ٢٧١

سورة الطور.. ٢٨٩

سورة النجم.. ٣٠٧

سورة القمر ٣٤١

فهرس الأحاديث ٣٥٩

المصادر ٣٦٧

المحتويات.. ٣٧٥